سلسلة إحياء التراث الثقافي الفلسطيني ٤



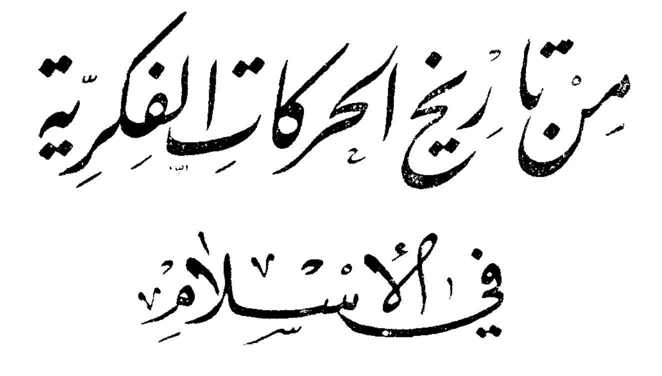
من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام

بقلم : بندلي جوزي

الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ـ الأمانة العامة

سلسلة احياء التراث الثقافي الفلسطيني (٤)

بندلي جوزي



الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين
الامانة العامة

جمعية الصداقة الفلسطينية - السوفياتية

الطبعة الثانية
١٩٨١

مقدمة الطبعة الثانية

هكذا نقرأ بندلي جوزي ..

بقلم : حسين مروه

أما القول عن بندلي جوزي إنه الرائد في حقل الدراسات التراثية ، العربية ـ الاسلامية ، فذلك اصبح من مألوف القول عندنا ، بل يكاد يكون من بدهياته ..

غير أن الألفة لهذا القول لا يلغي ضرورة النظر فيه من جديد ، لكن من موقع يختلف عن مواقع الكثيرين ممن قالوه في البدء اندهاشاً ، أو ممن اعتادوا قوله مشايعة للمألوف دون نظر في عملية الريادة ، او ممن قالوه عن نظر واقتناع دون دخول في التجربة ذاتها التي دخلها بندلي جوزي رائداً ..

لا بد من نظر جديد في هذه الريادة من موقع التجربة عينها في الحقل التراثي ، أي من موقع المعاناة ، فعلا ، لدراسة التراث العربي ـ الاسلامي الفكري في ضوء من المنهج المادي التاريخي ذاته ..

من هذا الموقع الخاص أقرأ هنا بندلي جوزي ، وأجد في قراءته هذه المرة اطمئناناً بأنني قريب الى فهم معنى القول المألوف عن الرجل إنه الرائد في هذا الحقل .. اي انني قريب الى التمكن من دخول عالمه الدراسي ذاك ، ورؤيته من الداخل ، ومعرفة قدر الريادة التي اجترحها في وقت لم يكن قد اتفق فيه لاحد من الباحثين في العالم العربي ان يعقد مثل هذه الصلة الدراسية بين المنهج المادي التاريخي والتراث العربي ـ الاسلامي الفكري ..

إذا رجعنا نصف قرن ونيفا الى الأطار الزمني الذي كان يكتب فيه بندلي جوزي دراساته عن هذا التراث ، بطريقتــه المنهجيــة الجديدة البكر ، تيسر لنا أن نستوعب القيمة التاريخبة الريادية لتلك الدراسات .. فهي قيمة باهرة حقا وفق هذا المقياس ، أي مقياس الزمن التاريخي نفسه الذي صدرت فيه دراسات بندلي جوزي عن الحــركات الفكريــة في الاســلام ، وعــن التاريــخ الاقتصــادي والاجتماعي عند العرب ، ودراساته في اللغة وفلسفة اللغة .. وفي ظني ان الرجل كان المتفرد بين الباحثين العرب حينذاك من حيث شمولية الرؤية ، فضلا عن تفرده من حيث منهجية المعالجة .. ففي حين كانت وحدانية الجانب تسود رؤية معظم هؤلاء الباحثين ، كان بندلي جوزي يحيط بموضوعه من كل جوانبه ، لا يتناول جانبا على حساب جانب آخر ، رغم كونه منحازاً الى هذا او ذاك من جوانب المسألة التي يعالج .. فأن انحيازه الفكري ، وربما الايديولوجي ـ ولا أجزم ـ الى حركة **القرامطة** ، مثلا ، كحركة فكريــة أولا ، وكحركة اجتماعية ثانياً ، لم يكن (هذا الانحياز) ليحجب عنه رؤية المواقف المتناقضة ورؤية الزوايا غير المضيئة لهذه الحركة ، او ليعلن قياداتها ، أو بعض الجيوب المثقوبة في هيكليتها ..

بل الصحيح ان يقال هنا إن نوعية « الانحياز » الذي نقرؤه في دراسات هذا الرائد ، هي نوعية متميزة تضع مسألة « الانحياز » في مستوى المسائل الضرورية للبحث الجاد المخلص والمثمر .. ذلك بأن مستوى الانحياز في بحوث بندلي جوزي يرتفع عن المفهــوم المبتذل للانحياز ، ويرقى به الى المفهوم العلمي الذي يعني ـ أولا ـ تحديد موقف للباحث حيال القضية التي يعالج ، ويعني ـ ثانيا ـ ان هذا الموقف المحدد يستند إلى معطيات حقيقية مستمــدة من « تاريخية » القضية الموضوعة رهن المعالجة ، ويعني ـ ثالثا ـ رؤية هذه المعطيات في اطار جوابها عن هذا السؤال : اي اتجاه

تخدم ، هل تخدم الاتجاه السلفي المعادي لحركة التطور التاريخي ، ام تخدم الاتجاه المعاكس ، اي ذاك الذي يجري وفق القانـون الموضوعي لحركة التاريخ ، وهو قانون التطور والتقدم ؟..

ان تحديد الباحث موقفه على أساس من كشفه كل معطيات القضية ، مهما اختلفت وتناقضت ، ثم رؤية الاتجاه الواقعي لهذه المعطيات ، ثم النظر الى هذا الاتجاه من منظار مصلحة التطور والتقدم ـ إن تحديد الموقف على اساس من هذا كله ، هو المصداق الفعلي لمفهوم « الانحياز » بمستواه العلمي .. ولقـد كان بنـدلي جوزي يمارس هذا المفهوم بحذق وصدق وحماسة . في دراساته التاريخية كلها ، ولا سيما دراساته في حقل التراث الفـكري ، العربي ـ الاسلامي .. وليس يعيبه ـ في رأينا ـ ان تغيـب عن بعض ممارساته في هذا الحقل دقة التحليل واصابة الاستنتاج ، كما في محاولته إسقاط الفكر الاشتراكي ؛ بمفاهيمه المعاصرة ، على بعض الحركات الفكرية التي تناولها بالدرس في كتابه الرائد الذي نتحدث عنه ، اي تلك الحركات التي تنتسب الى زمن يبعد عن زمننا نحو ألف عام ...

لماذا أقول ان مثل هذا النقص في دراسات بندلي جوزي ، لا يعيبه ، او لا يعيب هذه الدراسات ذاتها ؟..

أقول ذلك ، لا عن مسايرة لفكرة إعزاز ذكـراه حتـى درجـة التحرج عن نقده ، اي نقد أعماله البحثية .. بل أقوله من منطلق معاكس لهذه المسايرة . أعني من منطلق نقدي بوجه التحديد .. ذلك بأن القول بغياب دقة التحليـل وإصابـة الاستنتـاج عن بعض دراساته ، صادر ـ اساساً ـ عن موقف نقدي . أما القول بأن هذا النقص لا يعيبه ، فصادر عن إدراك الظـروف الموضوعيـة والذاتية التي هي مصدر النقص .. فأن مجمل هذه الظروف ، من

حيث « تاريخيتها » ما كانت على قدر كاف من النضج لكتابة عمل نقدي كامل لتراثنا الفكري بمنهج علمي ، كالمنهج المادي التاريخي ، كان لا يزال في ذلك الحين ، غريباً جداً عن حقل الدراسات العربية التراثية .. كما أن مجمل هذه الظروف ذاتها لم تكن لتكفي لباحث يشق طريقاً بكراً الى مثل هذا النوع من الكتابة وفق المنهج المادي التاريخي ، دون تجربة سابقة ، ودون نموذج حاضر – لم تكن تلك الظروف كافية لهذا الباحث ان ينضج استيعابه لهذا المنهج اولا ، وأن ينضج استيعابه لطريقة استخدام هذا المنهج في دراسة التراث الفكري ثانيا ..

إننا نطلب من بندلي جوزي تخطي كل تلك الظروف ، حين نطلب منه عملا دراسياً عن التراث لا تغيب عنه مطلقاً دقة التحليل وإصابة الاستنتاج . إن طلب التخطي على هذا النحو ، هو نوع من الموقف « الطوباوي » ، والموقف « اللاتاريخي » وكلا الموقفين انحراف عن المنهجية العلمية ..

ان طبيعة العمل الرائد ان لا يكون كاملا ، لان الريادة لا تكون إلا انطلاقاً من حالة كالفراغ ، وهناك مراحل عدة بين الانطلاق من حالة كالفراغ وبين الكمال .. فليس مطلوباً اذن من الرائد إلا أن يكتسح الحالة – الصفر ، ممهداً الأرض البكر لان تصبح حقل إنتاج وإخصاب .. هذا وحده هو مجد الرائد .. هذا وحده هو الدور التاريخي التأسيسي الذي يكفي الرائد مجداً أن يفعله ، ثم يترك للآتين بعده فعل الأدوار اللاحقة ..

* * *

على أن عناصر الريادة في عمل بندلي جوزي متعددة ، فهي لا تقتصر على اقتحام التراث بقراءة منهجية ، مادية تاريخية ، بل تضيف الى ذلك عنصرين يزيدان هذا العمل قيمة تاريخية بالغة

الاهمية ، هما : **اولا** ، ان بندلي جوزي ينطلق ، منهجيا ، من وعي علمي لارتباط حركة تطور المجتمع العربي ـ الاسلامي بالقوانين العامة الموضوعية ذاتها التي ترتبط بها حركة تطور المجتمع البشري ككل ، مع ادراكه اهمية الخصائص التاريخية التي تميز مصداقية تلك القوانين في المجتمع العربي ـ الاسلامي .. ان وعيه العلمي لتلك الحقيقة المزدوجة ، يتجلى **نظرياً** في مقدمته لكتاب « من الحركات الفكرية في الاسلام » ، كما يتجلى **عمليا** في فصول الكتاب ، خلال دراسته تلك الحركات في ضوء رؤية القوانين العامة الموضوعية التي تحكم ظروف نشأتها ومسار حركتها ، إيجابيا وسلبيا ..

أما العنصر الثاني من العنصرين الاضافيين في ريادة الرجل ، فهو سبقه إيانا نحو نصف قرن الى كشف المنطلق الفكري للمنهج البرجوازي الغربي في دراسة تراثنا الفكري ، وتحديده هذا المنطلق بكونه ينكر شمولية القوانين العامة الموضوعية لحركة تطور المجتمع البشري ، أي كونه ينكر خضوع المجتمع العربي ـ الاسلامي لتلك القوانين ويفتعل قوانين خاصة لهذا المجتمع « **الخــاص** » (!) تحكمه بمعزل عن القوانين العامة تلك .. ففي مقدمة الكتاب ذاتها ، وفي سياق كشفه لهذا الأساس غير العلمي للمنهج البرجـوازي الغربي يفضح الاستنتاجات المعادية للعلم التي تنبنـي على ذلك الأساس نفسه ، ولا سيما الاستنتاج الذي يؤدي مباشرة الى الأخذ بالنزعة العرقية (العنصرية) في تصنيف شعوب البشرية وتمييـز بعضها من بعض ، لا بالخصائص **التاريخيــة** الواقعيــة ، بل بالخصائص الفطرية الطبيعية التي يزعمون ان الطبيعة اختصت بعض الشعوب بالخصائص العالية الممتازة منهم ، في حين اختصت الطبيعة شعوبا اخرى بخصائص ادنى شأنا في سلـم التطـور الحضاري !.. وبناء على هذا الاساس الفـاشي المعـادي للعلـم وللشعوب ، تتمايز شعوب العالم وتتفاضل ، فاذا ببعضها يقع في

ذروة الهرم البشري وبعضها في ادنى درجات الهرم ، وبعضها بين هذه وتلك ..

إن إدراك بندلي جوزي موضع الخطأ الفادح ، وموضع العداء للعلم وللانسان ، في اساس المنهج البرجوازي الغربي في دراسة تراثنا الفكري ، يصح ان نعده العنصر الأهم بين عناصر الريادة التي أصبحت الصفة الملازمة ، بجدارة ، لاسم بندلي جوزي .

* * *

لكي تدرك اليوم ، اعمق فأعمق وأوضح فأوضح ، حقيقة الدور التاريخي الذي نهض به هذا الباحث الرائد ،علينا ان نتصور كيف امكنه ان يتحدى عصره بتحديه كلا المنهجين السائدين سيادة مطلقة قبل نحو من نصف قرن : المنهج السلفي ، والمنهج البرجوازي الغربي الذي كان الكلام عليه منذ قليل .. فقد كان تراثنا الفكري ، حينذاك ، لا يــراه الدارسون إلا بمنظار من هذا المنهج او ذاك ليس غير .. أي انهم لم يكونوا يرون اليه إلا من خلال موقفين متناقضين : إما موقف التقديس المطلق لهذا التراث ، انطلاقاً من نزعة التقديس المطلق للماضي بوصف كونه ماضياً فقط .. وإمــا موقف العداء لهذا التراث ، الذي يتجلى بمحاولات تشويهه وانتقاص المجتمع الذي انتجه ، ومحاولات ابراز الجوانب الغيبية والجوانب الهشة منه ، مع محاولا اغتيال جوانبه الحضارية المتقدمة والمتطورة والمحتفظة حتى الآن بحضورها البهي في قيم الحضارة العالميــة الزاهية .

رغم هذا الواقع السائد حقل الدراسات التراثية ، في عصر بندلي جوزي ، كان له قدرة التحدي لهذا الواقع ، اي تحدي كلا المنهجين السابقين ، وتحدي موقفيهما من التراث كليهما ، وكان له قدرة وضع البديل عنهما ، وهو البديل الذي يخرج بمسألة التعامل مع

التراث القومي الفكري من نزعة التقديس السلفية ، ومن نزعة التشويه البرجوازية ، ليدخل بهذه المسألة الى رحاب النزعة **النقدية** للتراث من موقع الحب له والاعتزاز به ، ومن موقع الطموح الى تطويره ، بالأدوات العلمية المعاصرة ، اي تطوير حضوره في عصرنا على نحو يضيء مكانته الواقعية من تاريخ نهضتنا العربية ـ الاسلامية خلال العصر الوسيط ، ويضيء دوره المرموق في إغناء الحضارة البشرية وتقدمها اثناء عصره الذهبي وبعده حتى عصر النهضة الاوروبية في الأعصر الحديثة ..

* * *

إن نظرة بندلي جوزي للتراث ، ذات الوجه **الشمولي** اولا ، وذات الوجه **النقدي** ثانيا ، وذات الوجه « **الانحيازي** » ثالثا ، قد أسهمت في استحقاق بندلي جوزي صفة الرائد استحقاقا لا منازع فيه حتى لدى ذوي الأفكار والأراء والمناهج الفكرية المخالفة لرأيه وفكره ومنهجه . ذلك بفضل نزاهة البحث عنده ، وصدق التعامل مع موضوع البحث ، وبفضل طريقته في الكشف عن كل الجوانب والزوايا لكل قضية تدخل عنده في نطاق البحث ..

إن هذه المزايا الثلاث الاخيرة التي تتميز بها دراساته التراثية ، قد أضفت على هذه الدراسات طابع العمل الجدي المشبع بطموح العالم وتواضعه معا ، كما أضفت عليها طابع النهج العلمي ، بحيث كان من العسير على من يخالفها في وجهة النظر ان لا يوليها العناية والاحترام دون تردد ..

* * * *

ومن الحق ، بعد هذا ، أن نتذكر جوانب اخرى هي بمثابة الروافد لتلك السمات والمزايا التي تضع اسم بندلي جذري في عداد

الأسماء الثقافية العربية المحتفظة حتى الآن ، برونقها ، وستبقى محتفظة بهذا الرواء زمناً طويلاً ..

هذه الجوانب ـ الروافد ، قد أمدت مزايا دراساته طاقة النفاذ الى مختلف اوساط الباحثين المعاصرين ، عرباً ومستشرقين وأكاديميين من الشرق والغرب .. ويصح القول ، باطمئنان ، إن الأجدر بالاحترام والاهتمام بين تلك الجوانب ـ الروافد :

اولا ، سعة الاطلاع على مختلف شؤون الثقافة الاسلامية ، فضلا عن سعة الاطلاع على كل من شؤون المجتمع العربي ـ الاسلامي في القرون الوسطى بخاصة ، سواء بذلك شؤونه الاقتصادية ، ام الاجتماعية ، ام السياسية ، ام الثقافية ..

وفي هذا السياق لا نستطيع ان نكتم ، خلال قراءتنا بندلي جوزي ، اعجابنا بفهمه العميق لدلالات النصوص الفقهية الاسلامية ولمناخاتها الاقتصادية والاجتماعية والدينية واللغوية[1] ..

ثانياً ، سعة الاطلاع ـ من جهة اخرى ـ على الكثير والمهم من ثقافات الشعوب واللغات الشرقية والغربية واستيعاب اساليب البحث المقارن في مسائل هذه اللغات واكتشاف وجوه العلاقة بينها ، ووجوه التأثير المتبادل بين بعضها والبعض الآخر[2] .

إن لتلك الروافد منطقها الدامغ في تجويد البحوث المقارنة التي كتبها بندلي جوزي في باب التاريخ المحض ، او في باب الدراسات

١ ـ راجع كتاب « بندلي صليبا جوزي ـ دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب » جمع وتقديم : جلال السيد وناجي علوش ـ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٧ .

٢ ـ الكتاب المذكور .

الاجتماعية ، او في باب اللغويات الخالصة[3] .

* * * *

لكن السمة المثلى التي تؤكد سماته كلها ، وتوفر لشخصيته العلمية جانبيتها النفاذة ، **هي تواضع العالم ..**

ان تواضعه في العلم وللعلم ، حالة تبهرنا منه .. إنه التواضع الذي يعني اولا : ان صاحبه لا يشكو عقدة الجهل ، اي انه مطمئن لعلاقته الحميمة بالعلم والمعرفة .. ويعني ثانياً : انه العالم الذي يؤثر مصلحة العلم في بحوثه ودراساته على اية مصلحة يمكن ان تتدخل في شأن ما من شؤون البحث العلمي .. ويعنيّ ثالثاً : انه الصديق الصادق للحقيقة اولا وأخيرا ..

هنا نقرؤه وهو يكتب رداً على السيد عبد اللطيف الطيباوي ، بعد ان انتقد السيد الطيباوي مقالة له (لبندلي جوزي) عن « الخراج والجزية في الاسلام » .. نقرؤه ، وهو يكتب هذا الرد ، في قوله :

« .. وإني أؤكد لحضرته أني لا أقصد من كل ما أكتبه الا الحقيقة على قدر ما تتكشف لي وتساعدني معارفي وحالة العلم على إدراكها ، واني اكره الجدل الباطل ، ولا اتعالى عن الحقيقة ان بدت لي في أبحاث غيري ... »[4] .

نقرؤه في هذا القول البسيط الرائع ، ونصدقه .. وهذه هي المسألة ..

المسألة هنا هي : أنك تصدق ما يقوله الكاتب عن نفسه ..

٣ ـ المرجع نفسه (دراسات في التاريخ الاقتصادي الاجتماعي العربي ، ودراسات حول اللغة) .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٢٠٢ .

وكيف تصدقه ؟..

إن سيرته العلمية ، وان مسلكه في ممارسة البحث والدراسة ، وإن علاقته الداخلية ذات العمق والرحابة معا بالمعرفة ـ ان هذا كله هو ما يحكمك ان تصدق ..

من هنا نصدق بندلي جوزي انه **لا يقصد من كل ما يكتبه الا الحقيقة ..**

مقدمة الطبعة الاولى

وحدة النواميس الاجتماعية

اذا نحن عرفنا ان اول من وضع مبادىء علم التاريخ واساليب الانتقاد التاريخي هم مؤرخو الغرب كنيبور (Niebhur) ورانكه (Ranke) وشلوسر (Schlosser) وغيرهـم ، وان هؤلاء المؤرخين بنوا احكامهم ونظرياتهم على تاريخ الغرب وحده اذ لم يكونوا يعرفون من تاريخ الشرق الا الشيء اليسير ، سهل علينا والحالة هذه ان ندرك مقدار ما في اقوال بعض مؤرخي الغرب عن الشرق وتاريخه من الغرابة والطيش ، فهل من طيش اكبر من ان يقول احدهم « انه لم يكن ولن يكون للامم الشرقية تاريخ بمعنى هذه الكلمة المعروف بين علماء اوروبا وان اساليب البحث التاريخي التي وضعها علماء الغرب لا يمكن ان تطبق على تاريخ الشرق » واية غرابة او بالاحرى اي جهل اعظم من ان يقال « ان العوامل المؤثرة في تاريخ الامم الاوروبية والنواميس العمومية الفاعلة في حياتهم الاجتماعية هي غير العوامل والنواميس العاملة في تاريخ الامم الشرقية وحياتهم وثقافتهم » .

لو صدرت هذه الافكار الغريبة عن مؤرخي الاجيال الوسطى ، او لو صدرت عن اناس عرفوا بالتعصب الديني او القومي والاغراض السياسية او الاستعمارية ، لكان لهم في الجهل والتعصب عذر ، اما وقد صدرت ولا تزال احياناً تصدر عن فئة من العلماء ومؤرخي العصر التاسع عشر بل العشرين ، فأي عذر لهم ؟.

يقول المؤرخ شلوسر المذكور : « ان اهم فرق بين تاريخ الغرب وتاريخ الشرق هو ان الدين والشعائر الدينية والاداب والنظام الدولي المدني حتى الفنون انفسها ترتكز في الدول الشرقية المشبعة بروح الاستبداد والسلطة الدينية على نفي تطور الموجودات ونفي تطور الحضارة المحلية وتأثير الحضارة العربية عليها » ولهذا يكفي على رأي المؤرخ المذكور ان نعرف دورا صغيرا من حياة اية امة شرقية قديمة كانت لان نتصور حالة تلك الامة الاجتماعية في كل ادوارها التاريخية مهما طال امدها ومهما طرأ على تلك الامة من التغيرات الداخلية اذ لا حاجة الى معرفة تاريخ تلك الامة كله لفهم حالتها الاجتماعية في دور كبير من حياتها قضته تحت حكم اسرة واحدة وسماء واحدة . وفي ذلك من الغرابة ما لا يحتاج اليوم الى تبيين، واشد من ذلك في الغرابة ان يقوم مؤرخ آخر اشتهر بابحاثه عن تاريخ الشرق القديم وتاريخ بابل والبابليين على الاخص فيحاول ان يؤيد صحة هذا الفكر العقيم ببراهين لا تقبلها اليوم طلبة المدارس ، منها أن الشعوب الشرقية كانت تعتقد في أن ما يحدث في هذا الحياة الدنيا ليس هو الا صورة منعكسة لما يحدث هناك في السماء ، وأن حياة المجتمعات الانسانية يجب ان تنظم وتجري طبقا لحركات الكواكب السماوية . ومعنى هذه العبارة الغامضة ان هناك فرقا بينا بين نفسية الامم الشرقية ونفسية الامم الغربية يمكن أن يعبر عنه بان الشعوب الشرقية لا تقول بمبدأ التطور والاستقراء اللذين هما أس العلوم الحديثة ولا تقيم لهما وزنا ، وان الاحكام العامة لا تبنى عندهم على استنتاجات منطقية مرتبط بعضها ببعض ومؤسسة على فكر او نظرية عامة سابقة لتلك المراقبات تتوقف عليها جميع اعمالهم وأفكارهم » .

هذا رأي بعض مؤرخي الغرب في تاريخ الامم الشرقية وعقليتهم ، فلا عجب والحالة هذه اذا رأيناهم ينكرون على تاريخ الشرق تطوره

ويحسبونه نتيجة سبب او عامل واحد ترجع اليه حياة الامم الشرقية في جميع أدوارها ومظاهرها ، مما ينتج عنه ان ليس للامم المذكورة تاريخ بالمعنى العلمي المقصود من هذه الكلمة وهو ما قاله بعضهم كما أشرنا الى ذلك سابقا .

نعم إن كلام العلماء المذكورين كان في تاريخ الامم الشرقية القديمة كبابل وأشور ومصر الخ ... فهل يا ترى يصدق هذا الكلام على الامم الشرقية الحديثة ، أو أمم الاجيال المتوسطة ، وهل حاول أحد المؤرخين أن يطبق النظرية المذكورة على التاريخ الحديث كتاريخ الامم الاسلامية مثلا ؟ نعم قد حاول بعض من تأثر بأفكار شلوسر وفنكلر أن يدخل تحت هذا الحكم تاريخ القرون الوسطى للامم الشرقية حتى الحديثة منها ولا سيما تاريخ الاسلام ، وأشهر من أقدم على ذلك المستشرق الفرنساوي أرنست رينان وذلك في بعض محاضراته عن اليهود والاسلام مثل « الاسلام والترقي » و« منزلة الامم السامية بين سائر الامم » . وإليك ما قاله في محاضرته الثانية مما له علاقة بموضوعنا : « ان الاسلام يكره العلم ويدعو الى هدم المجتمع وإن هو الا بساطة الروح السامي الهائلة التي تضغط على دماغ الانسان وتسد أمامه الطرق المؤدية الى كل فكر حر وكل بحث علمي ، مستعيضة عن كل ذلك بتكرارها الممل : لا اله الا الله » . فأنت ترى أنه لم يبق بعد هذه العبارة الا أن يقوم صاحبها ويقول لنا ان حياة الامم الشرقية الاسلامية ترتكز على نواميس وعوامل غير التي ترتكز عليها حياة الامم الغربية . وقد قالـه فعـلا في تلك المحاضرة نفسها حيث جاء « انه كان للشعوب الآرية من يوم عرفها التاريخ مجلة حقوق قديمة ... أما حياة العرب واليهود البطريركية (القديمة) فانها كانت دائما خاضعة لنواميس اخرى » . وقال في موضع آخر : « إن تطور الامم السامية الديني كان يقوم دائما على نواميس اخرى » وان « العربي او المسلم على الاطلاق يبعد عنا

اليوم أكثر من ذي قبل ، فالمسلم والاوروبي اليوم شخصـان لا يجمعهما شيء من أساليب التفكير والشعـور كأنهمـا من عالمين مختلفين » . وقد كرر رينان هذه الافكار والعبارات في محاضرته الثانية بل جاء بما هو أشد منها ، ولكنا نقتصر على ما ذكرناه تحاشيا للاطالة واعتقادا منا أنه لو قدر لرينان ولمن أخذ عنه نظريته المذكورة أن يعيشوا الى هذا اليوم ويروا بأعينهم آثار الحركة الفكرية في البلاد العربية والشرق على الاطلاق ، لتبرأ مما قاله عن عقلية الامم الشرقية ونفسيتهم ، ولهذا ، ولأن هذه النظرية أصبحت اليوم في خبر كان ، لا نرى فائدة في دحضها ، لأن الزمان تولى دحضها بنفسه ، ويكفينا هنا أن نقول أن مصدر هذه الافـكار العقيمة الفاسدة هو أولا : قلة معرفة أصحابها لتاريـخ الامـم الشرقية وضعفهم في تحليل المواد التاريخية التي كانت في أيديهم في ذلك الوقت تحليلا علميا محضا . وثانيا لأن الكتبة المذكورين بنوا حكمهم على مستقبل الامم الشرقية مستندين على حالتهم العمرانية والاجتماعية في الماضي القريب . وهو حكم في نظر أهل المنطـق فاسد ، وما مثلهم إلا كمثل عربي مسلم من أهل الجيل العاشر أو الحادي عشر زار اوروبا في ذلك العصر ورأى ما كان عليه سكانها وقتئذ من الجهل والتعصب الديني والفقر فحكم عليهم بالجمـود وقضى على مستقبلهم وقال انه لن تكون لهم حياة اجتماعية بمعنى هذه الكلمة في عصرنا الحاضر .

إلا أنه يسرنا أن نجاهر بان أكثر علماء تاريخ الشرق المعروفين بترفعهم عن الاغراض القومية أو السياسية هم على غير رأي شلوسر وفنكلر ورينان ومن حذا حذوهم من مؤرخي الجيل السابق . ولولا خوفنا من الملل لاتينا على أقوال كثيرين منهم ليرى القارىء منها أن أفكار رينان وأشياعه لم يعد احد يذكرها اليوم أو يهتم بها . ولهذا نقتصر على شهادة واحدة فقط لعضو اكاديمية بطرسبرج الاستاذ

بارتولد الذي يعدونه اليوم من اكبر مؤرخي الشرق الاوسط إن لم يكن اكبرهم على الاطلاق . قال الاستاذ المذكور في كتابه « تاريخ الابحاث عن الشرق في الغرب وفي روسيا » ما تعريبه: « لو كان نظر الامم الشرقية من البساطة والوحدة على ما يتصوره بعض مؤرخي الغرب لكان البحث في تاريخ الشرق ومعرفته أسهل من معرفة تاريخ الغرب على المستشرقين الذين يدرسون في الغالب الأعصر المتأخرة من تاريخ الشرق . والذين توافرت لديهم المصادر التاريخية اكثر ممن سبقهم ، يرون ان عدد الاشخاص الذين عرفوا بكمال ووحدة نظريتهم لا يزيد في الشرق على عدد أمثالهم في الغرب ، وان شعائر الدين في الشرق كانت ملزمة بأن تلتئم مع شروط الحياة أكثر من التئام هذه الشروط معها ، وأنه كثيراً ما كانت تنشأ تحت لواء الدين حركات مصدرها العوامل الاقتصادية او السياسية لا الدينية كما كنا نظن قبلا » . وقال في موضع آخر : « إن أديان الامم الشرقية الكبيرة كالبوذية والبراهمية والاسلام كانت تعد زمنا طويلا المصدر الوحيد لمعرفة نظر الامم المذكورة إلى هذا العالم ومعرفة نظامهم الدولي والاجتماعي . وكان العلماء يبنون عليها وحدها حكمهم عن ماضي وحاضر ومستقبل تلك الامم ويحاولون أن يستعينوا بها على بيان أسباب سقوط الشعوب التي كانت ولا تزال تدين بتلك الأديان » . وقال العلامة المذكور في مقالة عن الحركة الثورية التي حدثت في سمرقند سنة ١٦٦٥ ما تعريبه : « انا نستطيع أن نبرهن بصورة قاطعة ان من السهل أن نطبق على تاريخ الشرق تلك النتيجة التي وصل إليها علماء التاريخ في الغرب وهي أن بين ترقي الادراك الاجتماعي وبين ترقي طبقة التجار والصناع صلة قوية(١) .

١ ــ انظر مجلة القسم الشرقي من جمعية الآثار الروسية الامبراطورية ج ١٧ ص ٧ .

وأهم من ذلك في نظري أن أكثر علماء أوروبا أصبحوا اليوم يجاهرون بأن لا تأثير للدين على انحطاط العمران في البلاد الشرقية وان لهذا الانحطاط الوقتي أسباباً غير الدين أهمها مهاجرات وفتوحات الامم المتوحشة كالمغول والترك وغيرهم ، والحروب الصليبية ، وبعد أكثر بلاد الشرق عن مراكز الحضارة الجديدة . وتحول طرق التجارة ، إلى غير ذلك من الاسباب التي يعلمها اليوم طلبة المدارس الوسطى والتي أشرنا إلى بعضها في مقالة نشرناها في اللغة الروسية قبل ثلاثين سنة تحت عنوان : « الاسلام والعلم » .

ينتج مما ذكرنا أن تاريخ الشرق وحياته الاجتماعية وعقلية شعوبه على الاطلاق والشعوب الاسلامية على الاخص تخضع لنفس النواميس والعوامل التي تخضع لها حياة وتاريخ الامم الغربية ، وان امم الشرق قطعت في حياتها الطويلة وستقطع ذات المراحل أو الأدوار الاجتماعية التي قطعتها الامم الغربية . فلا فرق إذن من هذا الوجه بين الشرق والغرب ولا تفوق طبيعي لاحدهما على الآخر ، وهذا بعض ما نحاول ان نبينه في كتابنا هذا فان وفقنا كان ذلك من حسن حظنا وإلا فما على المرء إلا ان يسعى .

الفصل الاول

اسس الاسلام الاقتصادية

ان القول بان الاسلام فكرة دينية محضة وان ظهوره وتغلبه على وثنية العرب وانتشاره السريع بين اكثر امم الشرق وفتوحات الخلفاء الراشدين وبني أمية الواسعة ، ترجع الى الحماسة الدينية او التعصب الديني ، يعد اليوم قولاً جزافاً بعيداً عما أثبتته الابحاث التاريخية والاقتصادية كابحاث الاستاذ Wellhausen والامير كايتاني Caetani والاستاذ Lammens · H ونولدكه F . Noldeke وعضو اكاديمية بطرسبرج بارتولد Barthold . V وغيرهم ، فقد أصبح اليوم من المقرر ان الاسلام كغيره من الاديان الكبيرة ليس فقط فكرة دينية بل مسألة اقتصادية واجتماعية ايضاً او بالاحرى هو مسألة اقتصادية واجتماعية اكثر منه فكرة دينية . قال الامير كايتاني :

L' islam non fu un moto religioso — religioso non si fu che la veste l'essenza fu politica ed economica

« ان الاسلام لم يكن حركة دينية اذ لم يكن فيه دينياً الا الظاهر ، اما الجوهر فانه كان سياساً واقتصادياً (١) » ومن فضل مؤسس الدين الاسلامي ومظاهر عبقريته انه ادرك مصدر الحركة الاقتصادية والاجتماعية التي ظهرت في ايامه في مكة عاصمة الحجاز ، وعرف كيف يستفيد منها ويسخرها لاغراضه السامية دينية كانت او اجتماعية .

يظن كايتاني ان « الاسلام هو آخر مهاجرة هاجرها العرب وان الدافع اليها هو ما كان يدفع سابقاً الى مثلها في جزيرة العرب ، اي جفاف ارضهم المستمر وما يتبع ذلك من الضيق والفقر » . ويقول المستشرق الهولاندي الشهير M. de Goeje « ان الداعي الى ظهور الحركة الاسلامية هو الدين ، الا ان القبائل العربية وسكان مكة والمدينة اقبلوا عليه ودخلوا فيه لاسباب غير دينية (٢) ». ومعنى ذلك ان صاحب الدين الاسلامي استعمل الدين كغيره من اصحاب الاديان الكبيرة قبله وبعده واسطة للوصول الى اغراض اخرى لا علاقة لها بالدين اصلاً او لها علاقة ضعيفة . على كلٍّ لا ريب في ان الحركة الاسلامية بنت عصرها ووليدة ذلك الوسط الاجتماعي الذي تكوّن في مكة في اواخر الجيل السادس بعد المسيح ، فاذا اردنا ان نقف على منشأ تلك الحركة التي أدت الى ظهور

---

١ - انظر كتابه Annali dell islam Vol. I.II

٢- انظر مجلة الشرق الجديدة الروسية . ع ٤

الاسلام لا بد لنا من معرفة ذلك الوسط وتلك الاسس الاجتماعية التي قامت عليها حياة مكة وما يجاورها من بلاد الحجاز .

معلوم ان الاسلام ظهر في مكة وما كان ليظهر الا فيها ، لان الشروط الضرورية لظهوره لم تكن يومئذ متوافرة في غير مدينة من مدن العرب . وهذه الشروط كثيرة نقتصر منها هنا على ما يأتي :

كانت مكة قبل الجيل الخامس من التاريخ المسيحي بلدة صغيرة او بالاحرى محطة للقوافل التي كانت تمر بها وهي راجعة من جنوب الجزيرة تحمل بضائع الهند واليمن الى سوريا وفلسطين ومصر ، فاصبحت في اواخر الجيل السادس مدينة تجارية غنية تمد بما كان يأتيها من البضائع المحلية والاجنبية اكثر سكان الحجاز واسواقه التي كانت تؤمها العرب من جميع اطراف الجزيرة ومن سوريا والعراق وسائر البلاد العربية . اما اسباب هذا التقدم فكان متوقفاً في الدرجة الاولى على مركزها الجغرافي ووجود الماء فيها ، ثم على انها اصبحت - ولعل ذلك من أوائل الجيل الخامس - مركزاً دينياً مهمّاً لقسم كبير من البلاد العربية تحج اليه كل سنة الالوف وألوف الألوف من جميع اطراف العالم العربي لزيارة الكعبة المكرمة وإقامة شعائر الحج فيها مدة

ثلاثة اشهر (١) او للمتاجرة في اسواق الحجاز وعلى الاخص في سوق عكاظ التي كانت تقام كل سنة على مقربة من مكة وكان يحضرها ليس فقط تجار العرب وشعراؤهم بل بعض تجار العجم وسوريا والحبشة الخ .

لا اظنني ابالغ اذا قلت ان اكبر دافع الى زيارة مكة كانت هذه السوق وما كان يجري فيها من سباق الخيل ومناظرة الشعراء الى غير ذلك من وسائل اللهو والطرب ، لا تلك الشعائر الدينية التي حفظها لنا الاسلام الى هذا اليوم بدون تغيير يذكر . فكان سكان مكة أو بالاحرى طبقة قليلة منهم وهم سدنة الكعبة واهل الندوة المعروفون بالملأ يستغلون ايام الحج وشعائره وسوق عكاظ وغيرها من الاسواق كسوق المجنة وذي المجاز ومنى ، ويستثمرونها لمنفعتهم الشخصية ويستمدون منها نفوذهم بين العرب وقوتهم السياسية والمعنوية المرتكزة على قوتهم المالية .

عرف سكان مكة مصدر ثروتهم وقوتهم في الحجاز فأكبوا على التجارة حتى ألهتهم عن غيرها من الاشغال ، فاصبحت مكة مدينة تجارية محضة لا يفكر اهلها الا في التجارة ولا يهمهم الا جمع المال واستثماره بجميع الوسائل المحللة وغير المحللة . وما عليك الا ان تقرأ القرآن لتقف على حركة التجارة

---

١ – انظر عن هذه الاسواق « دائرة المعارف الاسلامية » ج ٢١ ص ٢٠٩ – ٢١٤

في مكة ودرجة انهماك سكانها بها وبسائر الاعمال المالية ، ولتدرك ما كان لهذه السوق الدائمة من التأثير على النبي الكريم وعباراته وفحوى كلامه في أول دعوته بل في جميع ادوار حياته . فلو انعمت النظر في آيات القرآن لرأيت ان عدد الرجال « الذين لم تكن تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقامة الصلاة وإداء الزكاة » (النور ٣٧) كان قليلاً جداً في مكة ، وان شغف الناس بالتجارة والتجول في اسواق مكة للوقوف على اسعار البضائع وقيمة النقود كان عظيماً جداً حتى ان بعض من اتبع النبي وهاجر معه الى المدينة كان يتركه وهو يصلي ويهرول الى الشوارع ليتنسم الاخبار عن القوافل ويستعلم عن اسعار البضائع لان بعض هؤلاء المهاجرين صاروا في المدينة تجاراً يزاحمون خصومهم في مكة لذين اضطروهم الى المهاجرة بعد ان اكسبوهم حب التجارة والمال .

ونحن لا نعجب من اشتغال سكان مكة بالتجارة وحدها واستثمار ما كان عندهم من المال بشتى الطرق ، لان مدينتهم وهي التي وصفها القرآن الكريم بأنها « واد غير ذي زرع » (ابراهيم ٣٧) لم تكن تصلح لا للزراعة ولا للصناعة فكان اهلها مضطرين ان يعيشوا من محصولات وواردات بلاد أخرى ، وكانت حياتهم وسعادتهم متوقفتين على التجارة او المضاربة بالاموال وما . المضاربة ، في نظرهم ، الا نوع من

التجارة ، ولولا التجارة ولولا المضاربة لاضطروا ان يهجروا بلادهم التي الفوها واحبوها على شظف العيش فيها ، فكانت حالتهم في ذلك العصر كحالة اخوانهم اليوم يعيشون على الحجاج ومن الحجاج ومن القبائل المجاورة لهم التي كانت ولا تزال الى اليوم تستقرض منهم المال بالربا الفاحش .

هذا ولما كان عدد الحجاج وروّاد اسواق الحجاز كبيراً وكان من واجبات ومصلحة سكان مكة ان يهتموا بهم ويقدموا لهم كل ما كانوا يحتاجون اليه من طعام وشراب وبضائع ، كانوا والحالة هذه مضطرين ان يحتاطوا للأمر سلفاً ويهيئوا بضاعتهم قبل أشهر الحج وافتتاح سوق عكاظ ؛ فكان لهم في السنة رحلتان رحلة الصيف ورحلة الشتاء (قريش٢) الى سوريا وفلسطين وجنوب بلاد العرب ليبتاعوا هناك ما كانوا يحتاجون اليه من البضائع وليبيعوا بعض محصولات بلادهم كالتمر والجلد والزبيب الخ . والذي يظهر من بعض الأحاديث واقوال المؤرخين ان رؤوس الاموال التي كانت في ايدي تجار مكة واصحاب القوافل كانت تبلغ احياناً مئات الالوف (١) وانها لم تكن تخص اشخاصاً معلومة بل كانت تجمع من اشخاص عديدة من سكان مكة

---

١ ـ انظر كتاب H. Lammens جمهورية مكة التجارية ص ٣٧
(الجزء الرابع من مجلة Institut Egyptien)

والطائف على شروط معلومة (١) يستفيد منها اصحاب القوافل وغيرهم ممن كانوا يؤمنونهم على اموالهم. فلا عجب والحالة هذه اذا رأينا اكثر سكان مكة يهتمون للقوافل السنوية ويسألون عنها الرائح والغادي ويختارون لمرافقتها الى الحدود احسن الخفراء واشهر رجالهم في الخبرة التجارية والحنكة السياسية وبعد النظر كأبي سفيان وغيره من الملأ المكي، فكانوا كلما زاد رأس مالهم الذي كانوا ينفقونه على قوافلهم ازداد قلقهم عليها وصعبت مهمة روّادها والمسؤولين عنها لان طرق القوافل لم تكن مأمونة من الخطر بل كانت دائماً معرضة لغزو القبائل وسطو شذاذ الطرق وقطاعها الذين كانوا يعيثون في الصحراء فساداً ويعيشون من السلب والنهب، فكان يصعب على اصحاب القوافل ان يبلغوا ببضاعتهم واموالهم حدود سوريا او فلسطين ثم يجتازوا هذه الحدود وجماركها من دون ان يعرض لهم في طريقهم عارض او ينشأ لهم خطر، فما كل قافلة كانت تبلغ مرامها ولا كل مكي كان يقدم على جمعها وقيادتها، فكانت القيادة محصورة في اشخاص معلومة عرفوا بثبات الجأش ومضاء العزيمة وحسن السياسة والتوفيق بين مصالح اغنياء مكة وجشع رؤساء القبائل التي كانت تمر القوافل بأراضيها ويستأجرها أصحابها

---

١ - انظر M. Lammens: La Mecque à la veille de L'hégire, P. 125

لخفارتها فكانوا يستميلونهم تارة بالمال وتارة بالمصاهرة وتارة بالارهاب والقوة المسلحة . ولهذا كان اصحاب القوافل واغنياء مكة مضطرين الى استخدام جماعات كثيرة من الناس لخفارة بضائعهم والمحافظة عليها في الطريق ، وكان اكثر هؤلاء الخفراء من الاحابيش او عبيد افريقيا وكان عددهم يزداد سنة عن سنة حتى تألف منهم جيش منظم كان يقوم بنفقاته تجار مكة مما يدل على ان تجارتهم كانت رابحة وان ارباحهم كانت عظيمة والا لما استطاعوا ان يقوموا بهذه النفقات الباهظة ويجمعوا فوق ذلك ثروة كبيرة كما هو معروف .

اما ان تجارتهم كانت رابحة فدليلنا على ذلك ان بعضهم كان يملك مئات الالوف بل الملايين ، وان مصارفهم كانت ملأى بالدنانير والدراهم مما يستنتج منه ان تجار مكة كانوا يصدرون من البضائع اكثر مما كانوا يستوردون وليس في ذلك شيء من الغرابة فقد عرف من بعض شعوب وقبائل روسيا وآسيا الوسطى في الاجيال الغابرة انها كانت تبيع اكثر مما كانت تشتري من البضائع لانها لم تكن تحتاج — وهي على تلك الحالة من العمران التي تشبه حالة قبائل العرب في القرن السادس — الا الى الضروريات . وفي ذلك بيان كاف لعثورهم على كميات كبيرة من النقود العربية في اواسط روسيا وشمالها بين القبائل الهمجية التي كانت تصدر الى الخلافة العربية محصولات بلادها كالفرو والشهد

وانواع الخشب بأثمان غالية وتشتري منها ما تحتاج اليه في معيشتها البسيطة .

فالمال اذن كان موفوراً في مكة والطائف ، وكان اصحابه كثيرين ، ولنا على ذلك ادلة عديدة في القرآن الكريم وفي الشعر الجاهلي وسيرة الرسول . وأعظم دليل على ذلك في نظري هو وجود فئة كبيرة من المرابين وأصحاب المصارف في اوائل الجيل السابع واضطرارهم – نظراً لتشبّع الاسواق التجارية بالمال ولأسباب أخرى – الى تعاطي الربا ، بل انصراف اكثر تجار مكة اليه حتى صار مصدراً ثانياً لثروتهم وإعلاء كلمتهم في البلاد وأحد اسباب سخط الناس عليهم لان الربا في مكة كان فاحشاً جداً يتراوح بين ٤٠و١٠٠ في المئة (١) اي كما هو اليوم في كثير من البلاد ، ولولا ذلك لما حمل صاحب القرآن الكريم حملاته المعروفة على المرابين والربا ، بل لما منع الربا ولعن المرابين على كل صفحة من صفحات سوره المكية (٢))

ان من يتصفح القرآن بامعان ويبحث عما ورد فيه من الآيات المتعلقة بالربا والمرابين لا يستطيع ان ينكر ان عدد المرابين في مكة كان كبيراً جداً في عصر النبي وان

---

١ – انظر La Mecque الخ للكاتب المذكور ٣٠٦ – ٣٣٢

٢ – انظر عن الربا والمرابين بحسب القرآن والفقه كتاب Der Wucher im Qoran etc · Berlin 1903 Emil Cohn :

ضررهم على الهيئة الاجتماعية لم يكن بأقل من ذلك ، فالويل ثم الويل لمن كان يسقط في شباكهم ويا لتعاسة من كانت تضطره ظروف الحياة الى الالتجاء اليهم ، لان هذه الطبقة من الناس لم يكن يهمها من الدنيا الا جمع المال فلم تكن تفقه للرحمة معنى ولا كانت ترى فرقاً بين التجارة والربا الفاحش (البقرة ٢٧٦) وذلك لان التاجر والمرابي كانا في ذلك الوقت يعاملان المشتري او المستدين معاملة واحده ترمي الى غرض واحد وهو الاثراء بجميع الوسائط ، فكانوا اذا « اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون (المطففون ١ — ٣) . وكانوا يضاربون بالدراهم والدنانير والتبر والنقود الاجنبية فكانوا تارة يزيدون في وزنها او قيمتها وطوراً يخفضون تبعاً لمصالحهم الشخصية وجرياً وراء جشعهم المعهود ، ثم كانوا يتلاعبون بالديون بأن يؤخروا آجالهم او يقدموها او يضيفوا اليها الى غير ذلك من الاعمال التي كانت تؤدي دائماً الى خراب المستدين واستعباده ، والتي وصفها صاحب القرآن وصفاً صحيحاً مطابقاً للواقع . قال صاحب الكتاب المذكور : « يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه (١) وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب

---

١ — الضمير في « فاكتبوه » يجوز ان يعود الى الاجل والى الدين .

ان يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً او ضعيفاً او لا يستطيع ان يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء (البقرة ٢٨٢).

كانت نتيجة اعمال هذه الفئة الظالمة خراب المدينين واستعبادهم ثم استثمار اتعابهم بشتى الطرق التي كانت توحيها اليهم ضمائرهم الفاسدة وسنن ذلك العصر وذلك الوسط المنحط ، فكان من جملة هذه الطرق ان الدائن كان يحمل امرأة المستدين او بنته على البغاء (١) لايفاء ما على ابيها او زوجها من الدين (سورة النور ٣٣) الذي لم يكن هنالك سبيل الى ايفائه ، لانه كان يزداد كل يوم بل كل ساعة بما كان يضاف اليه من الربا الفاحش . وهذا لم يكن وقتئذ امل في التخلص من اولئك الظلمة بالطرق السلمية الا في ما ندر . أما اكثر المدينين فانهم كانوا مضطرين إما الى الهرب الى الصحراء والالتحاق بطبقة المتشردين وقطاع الطرق ، وإما ان يدخلوا في طبقة الارقاء ويقيموا فيها الى ما شاء الله ، وهذا كان حظ الاكثرين كما يستفاد من آيات القرآن والوسائل العديدة التي كان يعمد اليها صاحبه بعد

---

١ ـ كان ذلك يعرف عندهم بالمساعاة

الهجرة إما لتحرير الارقاء وإما لتحسين حالهم .

كل ذلك ادّى الى وجود طبقتين غير متناسبتي العـدد والعدد : طبقة المثرين واصحاب البنوك وسدنة الكعبة واصحاب السلطة او طبقة الارستوقراطية او الملأ او الاعزاء (المنافقون ٨) كما يقول القرآن ، وطبقة الصعـاليك proletaires والفقراء والارقاء او الاراذل (الشعراء ١١١) ومن كانت تتوقف حياته وسعادته على ارادة اصحاب اليسار . وان الذي يظهر من مطالعة القرآن (١) وامعان النظر في المفردات المستعملة هناك للدلالة على طبقة الصعاليك هو ان عدد اصحاب هذه الطبقة في مكة كان عظيماً جداً بالقياس الى عدد اصحاب الثروة فيها ، وان العلاقات بين هاتين الطبقتين لم تكن لتختلف كثيراً عما هي عليه اليوم بين المتمولين والصعاليك او عما كانت عليـه حين ظهر الاسلام ، في رومـا والقسطنطينية والمدائن . وهذه العلاقات معروفة اليوم عند الجميع فـلا حاجة الى الكلام عنها بالتفصيل ، كما لا حاجة أيضاً الى الاسهاب في وصف حالة الصعاليك في مكة والطائف في ذلك الوقت . ويكفينا لتصوير حالتهم على الاطلاق ان نقول انهم كانوا لا يملكون شيئاً حتى انفسهم ، لأن حق التشريع كان محصوراً في ايدي الطبقة العليا فكان اصحابها

---

١ – انظر السور الآتية ١١ : ٢٩ و ٢٤ : ١١١

يسنون من الشرائع ما كان يوافق مصلحتهم . ولما لم يكن لأصحاب هذه الطبقة زاجر من انفسهم ولا رادع في ضمائرهم يردعهم عن استثمار اتعاب الصعاليك وامتهانهم ويوقفهم عند حد معلوم من القساوة ، كانت حياة الصعاليك بينهم عرضة دائمة للاخطار وسلسلة يأس وعذاب ، فلا قانون يحميهم ولا شريعة ترق لحالهم وتحاول ان تنتشلهم من هاوية الموت الاجتماعي والرق الابدي ، فكانوا يعيشون في شعاب البلدة وأطرافها البعيدة وفي بيوت حقيرة قذرة وعيشة ضنكة وجوع مستمر ، بينما كان الذين اثروا من اتعابهم يقيمون في وسط المدينة في قصورهم الفخمة ، بالقرب من الكعبة والنادي او دار الندوة : مصدرَي ثروتهم وسلطتهم .

هذه صورة مصغرة لحالة الصعاليك في مكة في اوائل الجيل السابع ، صورة ملؤها اليأس والسخط ، صورة كانت ولا بد تدعو احياناً الى التذمر والاحتجاج وأحياناً الى الثورة ، ولا سيما في اوقات الازمات التجارية والزراعية ، يوم كانت تسوء حالة الفاعل والزارع والرقيق لقلة الاشغال وضغط أصحاب الاموال عليهم . فهل من عجب والحالة هذه اذا خرج صعاليك مكة على ساداتهم وحاولوا بما لديهم من الوسائل ان يحسنوا أحوالهم المادية . وهل نعجب اذا سمعنا أحياناً شعراء البادية — وما شعراء البادية في ذلك الوقت الا لسان حال الأمة والمعبرون عن عواطف الفئة الكبرى

منها – ينحون باللائمة على أصحاب الثروة ويقبحون أعمال الملأ المكي ويدعونه الى الرفق بالفقير ويذكرونه بواجبه نحو الأرقاء والمظلومين ؟ قال بشر بن المغيرة يحض الاغنياء على مساعدة الفقير :

وكلهمُ قد نال شبْعاً لبطنه وشبْع الفتى لؤم اذا جاع صاحبه

وقال الأعشى :

تبيتون في المشتى ملاءَ بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

إلا انه لم يكن لهذه الصرخات القليلة وهذه الاحتجاجات الضعيفة تأثير يذكر لانها لم تكن موجهة الى استئصال المرض الذى كان ينخر وقتئذٍ قوام الهيئة الاجتماعية في مكة ويولد ذلك التفاوت بين طبقات الأمة وقد تكلمنا عنه قبل ذلك . اذن لم يكن بد لمقاومة هذه الامراض الاجتماعية من دواء انجح ووسائل أقوى ورجال أشد ثباتاً وأمضى عزيمة من شعراء البادية . وكان لا بد أيضاً من انتظار الوقت الموافق لاعلان الحرب على الملأ المكي وطبقة المرابين والوقت متى حان يتولى هو بنفسه ايجاد رجل العصر وبطله .

لو ألقينا نظرة الى الوراء وتأملنا ملياً في عمل النبي الاجتماعي في اوائل الجيل السابع للمسيح لتحتّم علينا ان نقرّ ان الاصلاح الاجتماعي بل الثورة الاجتماعية التي احدثها بين ابناء وطنه كانت اهم واعظم واعمق ثورة دعا اليها احد من العرب قبل النبي وبعده .

نحن لا نحب ان ندخل هنا في البحث عن صفات المصلح العربي الشخصية التي دفعته الى اقتحام هذه العقبة الكؤود ، واضطرته الى سلوك ذلك الطريق الوعر الخطر ، ولكن المجيد ايضاً . قلت الخطر لانه كان يسير بصاحبه عادة الى الجلجلة ، بل يكفينا ان نعرف ان النظام الاجتماعي في مكة أعدّ في أواخر العصر السادس محلاً اجتماعياً لشخص توافرت فيه القوى او الصفات اللازمة كسرعة التأثر ولطف الطبيعة وبعد النظر وطيب القلب ومعرفة طبيعة الناس وحسن السياسة والاستعداد التام لتضحية مصالحه الشخصية بل روحه العزيزة في سبيل المصلحة العامة وتحقيق مبادئه السامية التي توصّل إليها بجهده وأصبحت جزءاً من نفسه .

اسم هذا الرجل الذي توافرت فيه هذه الشروط التي قلما تجتمع في شخص واحد هو محمد بن عبد الله (١) . انتدب هذا الرجل ليكون مصلحاً لبلاده او كما يسميه القرآن منذراً وبشيراً لقومه ، فلبى راضياً مسروراً . وانتدابه لم يكن عن صدفة بل كان عن معرفة سابقه لقواه الروحيه التي ذكرنا قسماً منها ولاستعداده لمثل هذه الدعوة ، وإنما نعني بهذه العبارة الاخيرة معرفة المنتدب للوسط الاجتماعي الذي ولد وعاش فيه قبل الدعوة نحو عشرين سنة كان فيها يتيماً

---

١ - الارجح ان اسمه قبل الدعوة كان قثم بن عبد اللات

فقيراً يتضور جوعاً ويقتات أحياناً وهو يرعى غنم غيره ـ من الكباث وثمر الاراك . ثم صار مستخدماً او وكيلاً في محل تجاري يخص ارملة عاقلة تكاد تكون امه فأصبح مضطراً بحكم وظيفته ان يسافر كل سنة ويخالط الناس ويطلع على احوالهم ويسمع شكواهم ويفكر في اسباب شقاء الطبقة الكبرى منهم والطرق التي يمكن ان تخفف من وطأة الفقر والظلم عليهم . فكانت هذه الرحلات وهذا الاختلاط بالناس والاصغاء الى احاديثهم مدرسة عملية له أعدته لأن يكون ذلك العامل الاجتماعي والمصلح الكبير الذي نعرفه ويعرفه التاريخ .

لا شك ان النبي العربي كان اعرف الناس من ابناء بلدته وقومه بامراض البيئة الاجتماعية ، وأقدرهم على مقاومتها فقد عركه الزمن وعرك الزمن سنين عديدة قضاها في المراقبة والتفكير ، ثم دخل مدرسة الحياة وأقام فيها زمناً طويلاً فأطلعته على اسرارها وكشفت له عن غثها وسمينها ، فأدرك معنى الحياة واسباب السعادة والشقاء فيها ، فاحب ان يطلع على ذلك السر ابناء بلدته ثم ابناء وطنه ثم العالم كله ، فنهض الى عمله ولا سلاح له إلا الاخلاص في النية والاتكال المطلق على الله الذي « وجده يتيماً فآوى ووجده ضالاً فهدى ووجده عائلاً فأغنى » (الضحى ٨) فأية مدرسة اكثر فائدة من ان يكون الانسان يتيماً فقيراً مضطهداً فيصبح

بجده وامانته وحسن سيرته غنياً محبوباً محترماً ويفقه معنى الحياة ويدرك مصادر الامراض الاجتماعية ثم يفكر في ايجاد علاج شافٍ لها وفي مقاومتها على قدر ما تسمح له بذلك قواه العقلية والادبية والوسط الذي يريد اصلاحه والظروف السياسية والعمرانية في ذلك الوقت ، الى غير ذلك من الموانع التي لم يكن له بدّ من التغلب عليها اذا هو احب ان يصل الى غايته الكبرى التي وضعها امامه .

لا شك ان الفقر وما يتبعه من الحالات النفسية كان اكبر مدرسة للمصلح العربي . والدليل على ذلك انه كان كثيراً ما يتذكر هذا الدور من حياته ليستمد منه قوى جديدة يستعين بها على مكافحة خصومه والتغلب على تلك العراقيل التي كانت تعترضه في طريقه الاصلاحية ، وان هو نسي هذا الدور اذكره به ربه فقال : « ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك ؟» (الانشراح ١ - ٤) . اضف الى ذلك تيتّم الصبي وهو في سن الطفولة وتأثير احاديث الاهل والجيران عن امه وابيه الذي توفي وهو راجع من سوريا يرافق قوافل تجار مكة الاغنياء كعامل او اجير بسيط لا حظّ له في تلك القوافل لانه كان فقيراً جداً يخدم اصحاب الثروة في مكة بأجرة زهيدة لا تقوم بـأود عائلته . وأمرُّ من ذلـك تأثرات النبي في بيت عمه ابي طالب الذي آواه بعد وفاة

والده . وابو طالب كما نعلم لم يكن اسعد حظاً من اخيه عبد الله فكان ، مضطراً ان يستخدم ابن اخيه ويعوّل عليه في أمور كثيرة صعبة . نعم لا ننكر انه كان بين اقرباء الصبي اليتيم من كانت تعد ثروته بعشرات الالوف من الدنانير كعمه ابي لهب التاجر الغني المشهور « الذى لم يُغنِ عنه ماله وما كسب » (تبت ٣) او كعمه الثاني العباس صاحب الثروة الكبيرة التي جمعها بالربا الفاحش ، وجد اسرة بني العباس . الا انه لا يستفاد من القرآن والسيرة ان هؤلاء الاعمام الاغنياء كان يهمهم امر ابن اخيهم الفقير او كانوا يعرفون عنه الشيء الكثير قبل ظهور دعوته وقبل ان بدأ يتهدد ثروتهم المجموعة بشتى الطرق . وإنه ليغلب على ظني إنه كان لهذا التفاوت الكبير في الثروة بين اعمامه ، والتأمل العميق في اصل هذا التفاوت ، ومصادر تلك الثروة ثم في اساليب التجارة وطرق معاملة التجارة واصحاب المال للناس ، أعظم تأثير على عواطف الفتى ونفسيته . وان هذا التباين في الفقر والغنى بين اعضاء العائلة الواحدة هو الذي نبه افكار النبي العربي الى النزاع الاجتماعي الموجود بين طبقات الناس في بلدته ، والبحث عن منابعه ، وهو الذي دفعه الى اعلان الحرب الكلامية على الطبقة الظالمة الفاجرة المحتكرة لموارد الثروة والمستغلة لاتعاب الفقراء وسكان البادية السذج .

رسخت هذه الفكرة في نفس المصلح العربي ، وساعد على تقويتها وإنمائها فيه ما كان يراقبه يومياً ، حين صار تاجراً أو بالأحرى وكيلًا تجارياً لامرأته خديجة ، من الكذب والغش في التجارة والافلاس الكاذب وأكل أموال اليتامى والتلاعب في الوزن والكيل والبذخ والترف في الطبقة العليا على حساب الفقراء والعمال إلى غير ذلك من عيوب التجارة والمضاربة بالمال ، فعقد نيته على محاربة هذه الامراض الاجتماعية مهما كلفه ذلك من التعب . . . فأنت ترى مما ذكرناه أنه كان لمنشأ النبي ووسطه الاجتماعي تأثير قوي على ظهوره ودعوته ومضمون أقواله في بادىء الأمر بل في جميع أدوار حياته . وأنت ترى إنه لا صحة لتلك الأحاديث التي تصوره بغير صورته الحقيقية ، ولتلك المساعي التي بدت في بعض كتب ظهرت حديثاً في روسيا وأوروبا الغربية وهي تحاول أن تجعل من النبي العربي رجلًا مثرياً قام للمدافعة عن حقوق اصحاب الثروة والسلطة في بلاده ومصالحهم المالية ... لا نستطيع أن نحشر المصلح المكي بين الاشتراكيين أو الشيوعيين ، أو أن نقول إن دعوته كانت ترمي إلى أغراض إشتراكية أو شيوعية محضة كما خيّل لبعض كتبة الغرب (١) ولكننا نعتقد إن للعوامل

---

١ – انظر كتاب M . Grimme «محمد» (جزء اول Munster ١٨٩٢)

الأجتماعية ـ التي قلما تظهر في الشرق الأدنى السامي غير محتجبة بحجاب من الدين كثيف ـ تأثيراً قوياً على دعوته ، وإنه وقف في جانب الفقراء والصعاليك المظلومين وقفة رجل مغامر في الحياة ، ودافع جهاراً عن مصالحهم الحيوية معرضاً نفسه للخطر وغير مبالٍ بعواقب عمله مدفوعاً إلى ذلك بعوامل أدبيـة ودينية أكثر منه بدوافع اقتصادية أو مالية .

كان سلاح النبي في هذه الحرب الأهلية التي أصلى نارها بنفسه ولا سيما في الدور المكي سلاح من سبقه من مصلحي الأعصر السابقة كسقراط وبوذا وزرداشت والمسيح وسائر أنبياء بني سام الذين كان دائماً يحذو حذوهم ويتمثل بهم في جميع أدوار حياته من يوم برز للدعوة إلى أن تمّ له الظفر . وما هذا السلاح إلاّ كلمة الإخلاص يدعو بها ويحذر ويستعطف ويسترحم ثم يوعد ويهدد لا يخـاف في القول لومة لائم ، ويقول الحق حتى على نفسه واقرب الناس إليه (١) : هذا عمه أبو لهب الذي برز لمناوأته وراح يفسد عليه عمله ويؤلب الناس عليه فإنه يلعنه ويلعن امرأته ويوعدهما « بنار ذات لهب » تقوم على إيقادها إمرأته « وفي جيدها حبل من مسد » (تبت ٤ ـ ٥) حيث « لا يغني عنه

---

١ ـ انظر سورة ٢٨ : ٢ و ٨١ : ٢٢ وغيرها .

ماله وما كسب ». وهذا أحد عظماء مكة وأغنيائها المغيرة بن الوليد الذي تعرض للنبي وأخذ يعاكسه في مهمته الكبرى، فإن النبي لم يخش بأسه وقوة ثروته بل دعاه في وجهه « همزة لمزة » وأوعده بمحل خالد في الحطمة حيث لا ينفعه ماله « الذي جمعه وعدده » إلى غير ذلك من أدلة الجرأة الروحية والاستخفاف بالأخطار والأقوال التي لم يعتدها سادات مكة وأغنياؤها. وأعظم من ذلك في الجرأة والتأثير كلمات كان يوجهها إلى تجار مكة وينسب فيها إليهم الجشع (١) والتهافت على حطام هذه الدنيا والتكالب على جمع المال بمختلف الوسائل، ويتهمهم بها بأكل مال اليتامى والقصر والمساكين والغش في الوزن والكيل (المصففون ١ ـ ٣ والفجر ٢٠) إلى غير ذلك من الصفات الممقوتة التي لم تخلُ منها طبقة التجار والمرابين عصراً من العصور الغابرة والتي هي أهم مصادر ثروتهم.

هؤلاء كلهم وسمهم نبي العرب بميسم العار والفضيحة وأوعدهم بأشد العذابات في الآخرة (٨٣ : ١ ، ٧٦ : ٧٨ : ٢١ الخ) بعكس أولئك الذين « يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً » يطعمونهم « لوجه الله » لا يطلبون

---

١ ـ انظر سورة ٥٥ : ٧ ـ ٨ و ٦ : ١٥٢ و ٢١ : ٢٠ و ٨٦:٧ و ١١ : ٨٦ الخ.

منهم « جزاءً ولا شكوراً » (٧٦ : ٧ – ٩) والذين أعدت لهم جنات فيها « حدائق وأعناب وكواعب أتراب وكأس دهاق لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً (٧٨ : ٣٢ : ٣٥) « متكئين فيها على الارائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلًا ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير ... ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلًا . . . ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ... عليهم ثياب سندس خضر وأستبرق وحلّوا اساور من فضة وسقاهم ربّهم شراباً طهوراً » (٧٦ : ١٣ – ٢١) .

هذه كانت لغة النبيّ في ذلك الوقت ، وهذا كان كل ما في وسعه ان يعد بهِ المؤمنين ويوعد به الكافرين . وما الكافرون في نظره إلا الذين لم يلبوا دعوته وينزلوا عند حكمه في حل المسائل الاجتماعية والدينية : هذه اللغه لم يستحسنها بعد عصرين الاسماعيليون واخوانهم القرامطة شيوعيو الاسلام بل ضحكوا منها وانتقدوها أمرّ الانتقاد ، ثم نحن نخالها اليوم بسيطة ساذجة لا تؤثر على أحد منا ، إلا ان هذا لا يمنع أنه كان لها في ايام النبيّ وفي فمه أعظم تأثير على سامعيه الذين لم يكونوا قد اعتادوه من قبل لأنه لم يستعملها أحد من قبله في مكة ، فلا عجب إذن إن احدثت تلك العبارات حركة قوية بين سكان أم

القرى على الاطلاق وطبقة الصعاليك منهم على الاخص ، أولئك الصعاليك الذين أعجبتهم كلمة الحق والانصاف فأخذوا يدخلون في دين النبيّ الجديد ويؤيدونه ثم يلتقطون كلامه ويحرضون عليه (١٥ : ٢٩ : ٢٦ : ١١١) أما أن اكثر الذين اتبعوا في بادىء الأمر النبيّ الأمي او كلهم (١) كانوا من طبقة الصعاليك والأرقاء وأصحاب الحرف الصغيرة ، فهذا أمر معلوم ، وهذا ما لم يخف على أصحاب الطبقة العليا في مكة كما يظهر من عباراتهم « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا (١١ : ٢٧) ولهذا كانوا يحتقرونه وجماعته ويعرضون عنه إلى ان قويت دعوته واخذت تستميل إليها العناصر غير الراضية عن حياتها الاجتماعية . فلما أحس بذلك أصحاب المال او السلطة اخذوا يشعرون بالخطر الذي ابتدأ يتهددهم ويفكرون في طرق ملافته . ولا شك ان أول شيء شعروا به لم يكن الخطر على دينهم الذي تعرض له النبيّ كثيراً في سوره المكية ، بل الخطر المالي وربما الاداري ، لأن الدين لم يكن عند تلك الطبقة التي عرف أصحابها بميلهم إلى الظن (Skepsis) بالشيء المهم في جميع المسائل الدينية (٣٦ : ١٨ : ٣٢ : ٥ : ٦٤ : ٧ الخ)

---

١ — ما عدا عثمان بن عفان احد اغنياء وادباء بني امية وربما ابو بكر الصديق .

وإنما كان خوفهم على أموالهم وسلطتهم لانهم فهموا ان إقبال صعليك مكه على الدعوة الجديدة سوف يقضي على نفوذهم في البلاد وعلى ثروتهم المبنية على حج الكعبة والتردد في اسواق الحجاز ، لأن من نتائج انتشار الدعوة الجديدة ودخول الناس فيها القضاء على الكعبة وشعائر الحج الوثنية التي لم تكن لتلتئم مع الدين الجديد . وفي القضاء على مكة والدين القديم قضاء على سكانها كلهم وبالأخص على أصحاب الثروة والسلطة فيها ، وهو ما أراده عظماء مكة بقولهم للنبي انه يريد بدعوتـه الجديدة ان يخرجهم من ديارهم (٢ : ٧٨ و ٢٤٧ : ٤ : ٦٩ و ٧٨ الخ) وهذا نفسه ما حملهم على مقاومة المصلح الجديد قبل ان يستفحل امره ، واضطرهم الى اتخاذ شتى الوسائل ، كالانذار والتهديد والوعد والوعيد والوساطة والمقاطعة والطعن والهجاء الخ ، لمنعه من نشر آرائه الهادمة ووضع حد لدعوته الثورية في البلاد او على الاقل لاضعاف تأثيرها على عقول صعاليك مكة وأرقائها .

وقد كادت مساعيهم تنجح ومكيدتهم تفلح لو لم يتساهل النبي (١) مع خصومه قليلًا وقد كفّر عن ذلك بأن كرّ عليهم كرة أخرى أشد من الأولى وأبلغ وردّ كيدهم

---

١ ــ كان ذلك من عمل الشيطان (انظر التفاسير على الآيات ١٩ ــ ٢١ من سورة النجم .

في نحورهم .

فلما رأى الملأ المكي ان لا قبل له بصدّ النبيّ عن افكاره وحمله على الاتفاق معهم على شروط معلومة عرضوها عليه ، همّوا بقتله او بإخراجه من مدينتهم (الانفال ٣٠) فعلم النبيّ بذلك فأشار على أصحابه ان يتركوا مكة ويسيروا إلى المدينة التي سبق وتفاهم مع بعض سكانها من كان يمتّ اليهم بالخؤولة او بصلة أخرى لا نعرفها . فتركوها وهاجروا إلى المدينة الليلة السادسة عشرة من شهر تموز سنة ٦٢٢ . وكان النبيّ وصديقه الاعز أبو بكر آخر من هجر بلدته

كانت ولا ريب هجرة المؤمنين ونبيهم إلى المدينة فاتحة دور جديد في حياته وحياة الاسلام على الاطلاق . وإن من أكبر مميزات هذا الدور في نظري هو ان النبيّ اصبح بعد جهاد عنيد وحروب متواصلة مع خصومه القدماء ومع جيرانه الحديثين ، سيد قومه وزعيم عشيرته بل رئيس مملكة واسعة الاطراف بعد ان كان قبل ذلك واعظاً بسيطاً مضطهداً ومنذراً ومبشراً سلمياً ، واصبحت البلاد العربية بعد ثماني سنوات مضت على هجرته تأتمر بأمره وتنزل في كل شيء عند حكمه ، فصار من السهل عليه ان يقوم بوعوده ويحقق ما كان يدعو إليه في مكة من الاصلاح الاجتماعي ويحلم به منذ سنوات من المبادىء السامية كالعدل والاخاء

وتحرير المرأة والارقاء ومحاربة أسباب الشقاء والفقر بين ابناء بلدته بل في سائر البلدان العربية .

لو ألقينا الآن نظرة إلى الوراء وبحثنا عما تمّ على يد النبيّ الأمي من الاصلاح لما استطعنا ان ننكر أنه قام بأكثر وعوده وحقق قسماً كبيراً من امانيه . ولو قدر له ان يعيش اكثر مما عاش لكان الاصلاح الذي أدخله على حياة الامة العربية أتم وأوسع ومع ذلك فإن ما عمله في هذه السنين القليلة التي قضاها في المدينة بين الحروب والمنافسات الشخصية والدسائس والحسد والمكر والنفاق والمنافقين لهو شيء عظيم لا ينكره إلا كل مكابر عنيد او متعصب أعمى . فمن الاصلاحات التي ادخلها على حياة الأمة العربية وجعلها مبدأ من مبادئها هو هدمه للعصبية الجاهلية ومحاولته توثيق عرى المحبة والمساواة والإخاء ولو بين المسلمين فقط على أسس جديدة هي المبادىء الادبية المبنية على العقائد الدينية ، ثم تحسين حال الفقراء بالصُّقة أولاً ثم بالزكاة وهي تلك الضريبة التي وضعها المصلح العربي على اولي الثروة واليسار لمنفعة الفقراء والصعاليك . نعم ان هذه الضريبة الاشتراكية التي كان يرجى منها خير عظيم للفقراء صارت بعد وفاة النبي وخلفائه الأولين وبالرغم عن ارادتهم وسننهم تنفق أو ينفق اكثرها على حاجات الدولة لا على الفقراء والأسرى والأيتام والأرامل وسبل الاصلاح .

ثم لا بد من التنبيه إلى ان هذه البدعة الاقتصادية الجديدة التي ابتدعها النبيّ وهو في المدينة ليست من درجة تلك الوسائل التي يتخذها اليوم الاشتراكيون والشيوعيون لحل المعضلات الاقتصادية والمشاكل الاجتماعية . فالزكاة ضريبة محدودة لا يقصد منها نزع الثروة من أصحابها وتوزيعها على المحتاجين بالمساواة ولا بلوغ المساواة في أسباب المعيشة كما قد يتوهم البعض . وعندي ان غيرها من الاصلاحات التي جاء بها النبيّ كتحسين حالة الامرأة ومنع الربا وسن بعض قوانين تتعلق بالرقّ (١) مهما كانت اسبابه (٥ : ٩١ ٥٨ : ٤ : ٤ : ٩٤ : ٩ : ١٣ الخ) ومنع او بالاحرى حصر حق الإثـآر (الاسرى ٣٣) وهو أعظم آفات نظام الامة العربية في الجاهلية ، ثم منع الوأد عند بعض القبائل المتوحشة (٨١ : ٨ : ٦ : ١٥٣ : ١٧ : ٣٣) ووضع شرائع اجتماعية اخرى راقية ، ليس بأقل خطورة من الزكاة ، إذا حكمنا على ذلك بنظر ذلك العصر وقابلنا هذه السنن الجديدة بما يحاكيها من شرائع رومية والقسطنطينية والمدائن ناهيك عن شرائع الامم الشرقية المجاورة لجزيرة العرب

---

١ - انظر عن الرق في الاسلام كتاب B . Roberts تحت عنوان :
Das Familien — Sklaven und Erbrecht im Qoran . Leipzig 1908

او البعيدة عنها ، ومع ذلك لا بد من الاعتراف بأن السنن المذكورة مع ما فيها من عناصر الرقيّ لم تكن لتقتل كل جراثيم الامراض الاجتماعية التي اعلن عليها الحرب المصلح العربي الكبير ، ولذلك أسباب عديدة نقتصر هنا على ذكر بعضها

لا شك ان النبيّ العربي لم يقصد بأقواله وافعاله في مكة والمدينة ان يستأصل اسباب الشر الاجتماعي ويقتل جميع جراثيمه كما يحاول ان يفعل اليوم جماعة الاشتراكيين على اختلاف اسمائهم ونزعاتهم . بل كانت غايته الكبرى ان يخفف من وطأة تلك الأمراض على بعض طبقات الناس ممن خلقوا بعد قسمة الارزاق او وقعوا في الفقر والرق لأسباب لم يقووا على مقاومتها ، وإلا فلو أراد ان يقتل جراثيم الامراض الاجتماعية كلها لكان لجأ بعد ان أصبح صاحب الامر والنهي في جزيرة العرب الى وسائل غير التي ذكرناها . وما مثل النبيّ من هذا الوجه إلا كمثل سائر الانبياء الذين سبقوه ولا سيما انبياء بني اسرائيل ، أي أنه فضل استعمال الوسائل الادبية — إلا في ما ندر من الظروف — على غيرها من الطرق التي لجأ اليها بعصرنا بعض مصلحي وسياسيي اوروبا كلينين زعيم الشيوعية الروسية وموسوليني وغيرهما . وليس في هذا ما يقدح في ما أدخله المصلح العربي الامي من الاصلاح على امة متأخرة جاهلة ،

إذ ليس من العدل ان نطلب من النبي ان يستعمل في الربع الاول من العصر السابع وسائل للأصلاح لم تهتد إليها الانسانية إلا في أواسط الجيل التاسع عشر ، ولم يتبين حتى اليوم نفعها المطلق فلكل فصل زهوره ولكل عصر رجاله كما يقول مثل الروسي . وعليه يمكننا ان نقول ان محمداً أجاد في وصف الامراض الاجتماعية العربية وتعدادها اكثر منه في علاجها واستئصال جراثيمها . فإن تصويره لتلك الامراض كان يبلغ أحياناً حد الاعجاز ويحدث في عقول سامعيه ومخيلاتهم تأثيراً لا يمحى . اما علاجه للداء فكان أقل درجة من تصويره له إلا ما ندر ، مثال ذلك ان النبي اول من تنبه الى استياء الطبقة السفلى في مكة والطائف من حالتها الاقتصادية والاجتماعية وأول من أدرك اسباب هذا الاستياء ، إلا ان ذلك لم يكن ليحمله على قتل اسباب الاستياء قتلاً قاضياً كأن يمنع مثلاً التجارة الشخصية (١) ويجعلها كلها تحت مراقبة الحكومة التي أسسها في المدينة ، او يمنع الرق منعاً باتاً ، أو ينتزع الاراضي من اصحابها ويجعلها ملكاً لمن يعتملها ، او يحتكر بقية مصادر الثروة الفردية التي كانت ولا تزال اصل الشرور الاجتماعية ، او يستعمل وسائط أخرى مما

---

١ - انظر - Lammens , La Mecque etc . P 233 -152 ,

يشير اليها بعض الاشتراكيين في هذا العصر . كل ذلك لأن النبيّ لم يكن عدوّ التجارة الشخصية والبنوك ، ولا كان ضد جمع أراض كثيرة في اباذ محدودة قليلة ، بل لم يكن مبدئياً عدواً للرق ولا من القائلين بوجوب مساواة المرأة بالرجل والابنة بالصبي مساواة تامة (النساء ١٠ و ١٧٥ و ٣٤ : ٢ : ٢٨٢) في الحقوق والواجبات ، بل كان فقط ضد سوء استعمال هذه الانظمة الاجتماعية والتطرف فيها (النساء ٣٨ : الزخرف ١٧) كما يستنتج ذلك من خلو القرآن والسنة من آيات او نصوص تدل بصراحة على الانظمة المذكورة ومن انظمة غيرها . اما ما يرتئيه البعض من ان النبيّ كان ينوي إلغاء ملكية الاراضي وجعلها مشاعة اي ملكاً للجماعة او الأمة فهذا سوء فهم يؤبَهُ له لأن هذه الافكار المتطرفة لم تكن لتخطر على بال النبي حتى في الدور الاول من حياته الاجتماعية لا سيما وان مشكلة الاراضي لم تكن في ذلك الوقت وفي ذلك الوسط من المشاكل المهمة لان نظام العشائر او القبائل التي كانت العرب تجري عليه في ذلك العصر كان يحول دون جمع اراض واسعة في يد واحدة يستغلها صاحبها بأتعاب غيره ، وبأجرة بخسة كما كانت الحال مثلاً في اوروبا وآسيا ومصر في عصر الاقطاع ، او كما هي اليوم في اكثر الأقاليم المذكورة : فإذا صح هذا الرأي ، وإني أراه أقرب الى

الصحة من غيره ، نتج عنه أنه لم تكن في أيام النبيّ في الحجز طبقة خاصة من صعاليك الاراضي ، وعليه لم يكن الاستياء الذي ذكرناه آنفاً صادراً عن أصحاب هذه الطبقة ، وإلا رأينا آثاره في الكتاب الكريم كما رأينا آثار غيره من اسباب الصعلكة في مكة . يؤيد ذلك ان الاراضي التي افتتحها النبيّ والمسلمون من بعده بالسيف اصبحت بعد قليل من الزمن ملك أفراد من المسلمين يتصرفون فيها كيف شاؤوا لا ملك الامة او الخلفاء الذين كانوا يمثلونها . نعم ، نحن لا ننكر أن أراضي جزيرة العرب التي انتقلت الى أيدي المسلمين بالصلح ، وبعض الاراضي الواقعة خارج الجزيرة التي دخلت في حوزتهم بالسيف والتي لم تقسم بين المسلمين حسب القاعدة التي سنها النبيّ (انفال ٤١ : الحشر ٧) اصبحت ملكاً للأمة . إلا انه لا يجب ان تستنتج من ذلك ان حكم هذه الاراضي (الفيء والوقف) كان كحكم الاراضي الشائعة ، أي ان الامة الاسلامية كانت تستثمرها على أسس شيوعية كما هي الحال مثلاً اليوم في روسيا فيما يتعلق بالاراضي التي احتفظتها الحكومة لنفسها ولم توزعها على الفلاحين لاسباب عديدة لا حاجة هنا الى ذكرها ، إذ من المعلوم ان اكثر الاراضي التي اخذت عنوة بقيت في أيدي اصحابها يعتملونها بأيديهم ويؤدون عنها الخراج ، والقليل منها استولت عليه الحكومة وجعلت

منه رأس مالٍ ارضياً (Fond territorial) تقطع منه لمن تريد وتهب منه مـا تشاء على سبيل الملك لا على سبيل الاجارة (١).

اذا كان الامر كذلك فليس هناك مجال للجدال في ان النبي كان او لم يكن يفكر في دعوة قومه الى نظام للاراضي جديد يمكن ان يطلق عليه ولو على وجه التقريب اسم النظام الاشتراكي او الشيوعي، وذلك لان النبي لم يكن اشتراكياً ولا شيوعياً بمعنى هاتين الكلمتين الحاضر ولا بمعنى آخر، وذلك لاسباب يطول شرحها ويرجع اكثرها إما إلى عدم توافر الشروط اللازمة في ذلك الوسط وفي ذلك الوقت، وإما الى شخصية المصلح العربي. واذا قلنا الوسط فإنما نعني به الوسط الجديد الذي انتقل اليه النبيّ سنة ٦٢٢ وهو كما ذكرنا كان يختلف كثيراً عن وسط مكة. فالمدينة — وأكثر سكانها فلاحون فقراء — غير مكة صاحبة الثروة والتجارة الواسعة، وعليه فاللسان الذي كان يصلح في مكة لم يعد يصلح في المدينة، بل

---

١ — انظر عن هذه المسألة مطولا كتاب البارون (Tornau) تحت عنوان Das Eigentumsrecht nach moslem. Rechte (ZDMG 36. S 285) وكتاب M. Berchem. la propriété territoriale etc.; H. Lammens, Etudes sur le règne du Calife Moawia Ier. P. 225.

لم يعد مفهوماً هناك : رالغاية التي أخذ يرمي إليها النبيّ في المدينة ويعمل على تحقيقها هي غير غايته في مكة ، وفوق ذلك فان سياسته مع المكيين قد تغيرت كثيراً في المدينة تحت تأثير عوامل جديدة ولأسباب عديدة اوجدتها الظروف وأدى اليها الاختيار وحب النبي لوطنه الاصلي واهله وذويه الى غير ذلك من الانفعالات النفسية والعوامل السياسية التي ظهرت بعد موقعتي بدر وأحد وحصار المدينة وكان من نتائجها ان النبي اخذ يلطف من سياسته نحو اخوانه المكيين؛ كما ان اصحاب السلطة في مكة رأوا ـ بعد ما اصابهم في موقعة بدر وما لحق بتجارتهم من الخسائر ـ ان يتساهلوا في امور كثيرة مع النبي على شروط تضمن لهم بقاء الكعبة والحج وعكاظ على ما كانت عليه قبل الاسلام وان يشملهم بالعفو ، الا بعض اشخاص ، ويشركهم في عمله الجديد الذي اخذوا يتوقعون منه خيراً لانفسهم وربما كان من شروط التفاهم ان يبقى النبي في المدينة وان لا يتعرض في كلامه لأمورهم المالية فكانت الحديبية وكان « الفتح ونصر الله القريب » وسياسة « تأليف القلوب »(٩ : ٦٠) او بعبارة اخرى سياسة التسامح والتساهل المتبادل (Compromis) فصار الناس « يدخلون في دين الله افواجاً » لا عن اعتقاد بصحة الدين الجديد الذي لم يكونوا يعرفون عنه ومنه الا الشيء القليل ، بل عن رغبة في التقرب من اصحاب السلطة الجدد

وحفظاً لمراكزهم القديمة وثروتهم المجموعة في اجيال . . .
يخال لي أن من جملة الشروط التي اتفق عليها الطرفان في الحديبيه أو في مكان وزمان آخرين ان يكف النبي عن الطعن في الملأ المكي وأن لا يحرض صعاليك العاصمة الحجازية وأرقاءها عليه ، وهذا على ما يظهر لي أحد وأهم اسباب خلو السور المدنية ولا سيما تلك التي نزلت في الدور لاخير من العبارات القارصة والطعن في سكان مكة ، وهناك سبب آخر لا يقل خطورة عن الذي ذكرناه الان وهو أن حالة النبي الاجتماعيه في المدينة تغيرت كما هو معلوم تغيراً ظاهراً ادى إلى تغيير في نفسيته وهذا شيء طبيعي قلَّ من ينجو منه ، فكان من نتائج هذا التغيير ومن الاسباب التي ذكرنا بعضها وغيرها مما لم نذكر أن بعض اصلاحات النبي الاجتماعية والدينية جاءت مبتورة وفيها شيء مما يدعوه الاوربيون بالتساهل (Compromis) ربما كان لشخصية النبي ومميزاته القومية أثر في ذلك يصعب تعريفه وتحديد مقداره ، فقد عرف عنا نحن العرب انا ميالون إلى التطرف في كل شيء : إلى تضحية النفس وإلى الانانية الزائدة ، إلى الحب العذري وإلى التهتك ، إلى الصداقة النادرة وإلى الحقد اللانهاية له ، إلى التأله (Idéalisme) وإلى الشغف بالماديات الى الديمقراطية الحقة والى عبادة الشخصيات البارزة ، الى الاعتداد بالنفس وشدة الاعتماد عليها والى سرعة اليأس والسقوط في القنوط عند أول صعوبة نجدها في طريقنا ،

وبعبارة اخرى ان في الامـة العربية قوّى عظيمـة تارة تدفعهـا الى اشرف الاعمال وطوراً الى اسفلهـا وأخسها ، وسبب ذلك على ما يظهر لي ان هذه الامة العظيمة الذكية العاقلة على الاطلاق تعيش وتتمسك بعواطفها القوية اكثر منها بعقولها وتسير في حياتها واعمالها اليوميـة بقوة المصالح الشخصية التي لا تترك سبيلاً للحصول عليها الا طرقتـه . هذا تاريخنا يشهد علينا اننا قوم ذوو ذكاء ومقدرة على الاعمال وذوو نظر بعيد ولكننا سريعو التأثر وضعيفو قوة التوازن ، فسرعان ما نقع في اليأس ان اصابتنا مصيبـة ، وان اصابتنا حسنة اخذتنا سورة الفرح وكدنا نفقد رشدنا ، وهـذا الحكم ينطبق على الافراد والمجمـوع ويجري على كبيرنا وصغيرنا وعالمنا وجاهلنا الا ما ندر ...

من الاقوال المأثورة عند الاشتراكيين ان الادراك او الشعور الذاتي يتوقف على الكينونة اي على المحيط وحالة المرء الاجتماعية ، فاذا تغير المحيـط او حالة المرء الاجتماعيـة تغير شعوره الذاتي وتغيرت افكاره وسلوكه الا ما ندر ، وهذا ما حمل النبي العربي – وقد تغيرت احواله الشخصية في المدينة – ان يتبع في النصف الاخير من حياته الاجتماعية سياسة غير تلك التي اتبعها في مكة وهي سياسة اقتضتها الظروف الجديدة وما طرأ على نفسية النبي من التغيير .

كان الدور المكي دور تمهيـد واستعداد ، دور بث دعوة جديدة بين طبقات الامة ، دور حرب ونزاع كلامي

بين رجل ثابت في مبادئه مخلص في عمله وبين طبقة من الناس شعرت بالخطر على ثروتها وزعامتها في البـلاد فهبت تقاوم ذلك الرجل وتناوئه ، دور جهود واحلام لو تحققت كلها لقلبت البلاد رأساً على عقب . ما اجمل هـذا الدور وما اعظمه وما احلى تلك الاحلام والمساعي التي بذلت في تحقيقها ! اما الدور الثاني فكان دور عمل وتنظيم ، دور حروب وافتتاحات دور سياسة ومكاشفات ادّت الى تساهل من الطرفين. ومعنى التساهل في مثل هذه الثورات الاجتماعية هو التنـازل عن بعض مطالب او مبادىء او التلطف في الطلب والرجوع عن بعض الافكار او وضعهـا في قالب يرضاه الفريقان وهذا ما كان من امر النبي العربي ورئيس جمهورية مكة الحبر المحنـك الذي كان يتكلم بلسان المـلأ المكي – هذا يعترف بسيادة النبي الروحية والعالمية ويهجر الاوثان ويؤدي الزكاة ويقيم الصـلاة ، وذاك يتعهد ان تبقى مكة مركز البلاد العربية الديني وان يجعل لأعيان مكة وقادة افكارها حظاً في ادارة المملكة او الجمهورية الروحية الجديدة وان يتركهم وشأنهم يتاجرون ويعيشون كما يشاؤون . اما الفريق الثالث وهو الطرف الذي استعرت الحرب لاجله وظهرت الدعوة لتحسين احواله فقد ارضوه في بادىء الامر بشيء من الصدقات والزكاة ثم نسوه او تناسوه بعد وفاة النبي وخلفائه الاولين فرجع الى حالته

الاولى بل الى ما هو اسوأ منها كما سترى بعيد ذلك واصبح الملأ المكي منذ تولى الخلافة عثمان بن عفان صاحب الامر والنهي في البلاد واصبح ابناء ابي سفيان – رئيس هذا الملأ واكبر اعداء النبي – كتبته المقربين وقواد جيشه الفاتحين وعملاءه المبرزين في البلاد المفتوحة بسيوف المسلمين ثم اصبحوا ملوك تلك البلاد لا ينازعهم في الملك منازع الا قضوا عليه ، فكأن دعوة النبي وثورته الاشتراكية واتعابه واتعاب خلفائه الاقربين لم تكن الا لتؤيد خصومه في مراكزهم بل لتزيد في نفوذهم وثروتهم ، وكأن النبي لم يعمل العشرين سنة الا لمصلحتهم ولم يسعَ الا لسعادتهم . واغرب من ذلك وانكى ان تجار مكة في الامس قد استفادوا من الحركة الاسلامية وبعض افكار ومبادىء عدوهم فأسسوا دولة من أعظم دول العالم تكاد لا تكون بينها وبين « الامة » التي اوجدها النبي علاقة تذكر ، وفي ذلك من الادلة على ذكاء بني امية وبعد نظرهم وحنكتهم في السياسة ما لا ينكره الا كل مكابر جاهل او متعصب ذميم .

الفصل الثاني

الامبراطورية العربية والامم المغلوبة

ألمعنا في الفصل السابق الى ان المعضلة الكبرى ومسألة المسائل التي حامت حولها عقول اعظم ابطال الاعصر السابقة ولا تزال تعالجها علماء وساسة هذا العصر وهي مسألة التوفيق بين مصالح الطبقات المتضادة أي بين مصالح الغني والفقير، الثري والصعلوك، وبين اصحاب المعامل والاراضي الواسعة والعمال والفلاحين، تلك المسألة التي طرقها المصلح العربي ايضاً وحاول ان يحلها على قدر ما سمحت له ظروف ذلك العصر انتقلت بعد وفاته الى خلفائه مع غيرها من المعضلات السياسية والاجتماعية الا انها اخذت تزداد صعوبة وتعقداً بعد الفتوحات الكبيرة التي فتحها العرب في ايام الخلفاء الراشدين وبني امية واندماج الامة العربية في غيرها من الامم المختلفة صاحبات العمران القديم والاديان المتباينة، فنتجت من ذلك حالة اجتماعية جديدة توترت فيها العلائق

بين طبقات المجتمع الاسلامي وبلغ هذا التوتر درجة اصبحنا نخشى معها حدوث انفجار عظيم واصطدام عنيف كادت تكون عاقبته سقوط الدولة العربية وموتها . ومما ساعد على زيادة توتر تلك العلاقات هو سياسة الامبراطورية العربية على الاطلاق والاقتصادية على التخصيص .

لا ريب في ان اشتغال العرب بالفتوحات الواسعة وتمصير البلدان مع ما تبع ذلك من تدفق الاموال المغتصبة والمجموعة بشتى الطرق الى جزيرة العرب وتفرق القبائل العربية في عرض البلاد المفتوحة وطولها ألهتهم زمناً طويلاً عن التفكر في المسائل الاجتماعية التي كانت أهم بواعث الحركة الاسلامية ومصدر ثروتهم بل ربما أنستهم اياها ، ثم لا ريب ايضاً في ان الفتوحات المذكورة واتخاذ عواصم جديدة خارج جزيرة العرب ، كل ذلك قد ساعد على انتقال مركز الحركة الفكرية من مكة والمدينة الى غيرها من المدن الكبيرة العريقة في التمدن ، ومن العرب الى غيرهم من الامم المقهورة ، لا لأن هذه الامم كانت اقدر من العرب على التفكير وأعرق في الثقافة والحضارة ، ولا لأن البلاد المفتوحة عرفت الحركات الاجتماعية او الاشتراكية قبل الفتح الاسلامي فكانت أقرب الى تناولها وأقدر على فهم اسباب ظهورها من الامة العربية التي لم تسمع بها او لم تفكر فيها الا في اوائل العصر السابع وفي قسم صغير من

بلادها ، بل لأن الشروط الضرورية لظهور هذه الحركات كانت متوافرة بين الشعوب الغير العربية والغير المسلمة اكثر منها بين الامة العربية في ذلك الوقت ، والمراد بالشروط هنا حالة تلك البلاد الاقتصادية والادبية .

لو حاولت ان أصف هنا حالة الشعوب المغلوبة في الدور العربي او الخلافة الاسلامية وصفاً كاملًا وشاملًا لجميع مظاهر حياتهم الاجتماعية والدينية والادبية ، او حاولت ان ألم بجميع العوامل التي كانت تدفع الشعوب المذكورة في بعض الاحيان الى الخروج على الامة الغالبة ومقاومة تلك الامراض التي شرع في محاربتها المصلح العربي الكبير لكنه لم يتمها للاسباب التي ذكرنا بعضها آنفاً ، لاحتجت الى وقت طويل وصفحات تزيد على صفحات هذا الكتاب ، ولهذا اراني مضطراً ان اقتصر على ذكر القليل فقط من تلك العوامل مستعيضاً عن ذلك بذكر بعض المصادر العلمية .

ان نظام الضرائب التي وضع أساسه المصلح العربي مع ما ادخله عليه خلفاؤه من التغيير والزيادات ولا سيا عمر بن الخطاب مؤسس الإمبراطورية العربيه الحقيقي وواضع دستورها ونظامها ثم خلفاء بني امية ، كان عبئاً ثقيلًا على عاتق الامم المغلوبة اكثر منه على عاتق الامة الفاتحة ،وذلك لان هذه الامم كالاقباط والسريان والفرس والترك الخ كانت

مضطرة بحكم هذا النظام ان تؤدي ، ما عدا ضريبة الاراضي - الخراج - والجزية ، ضرائب ورسوماً اخرى على الصنائع والحرف ربما كانت أشد وطأة على الاقوام المذكورة من الخراج والجزية ، لأنها لم تكن محددة معروفة ومبنية على قاعدة مقبولة وكان مقدارها وزمن تأديتها منوطين بعمال الخليفة وجباة المال ، بعكس الخراج والجزية فانهما كانا محددين ومعروفين من قبل ، فلم يكن للعمال والموظفين مجال واسع للتلاعب بهما ، وان لم تكن وطأتها على الزراع وأهل الذمة بأخف منها عن غيرها . اضف الى ذلك ما كان يتحمله اصحاب الجزية من الذل والاهانات يوم كانوا « يؤدونها عن يدٍ وهم صاغرون » (التوبة ٣٠) واذا أحببت ان تدرك معنى هذه العبارة الحقيقي وتطلع على شيء مما كان يحدث يوم كان أهل الذمة يؤدون الجزية فما عليك إلا ان تطالع كتب التاريخ والفقه وتقرأ ما كتبه عن الخراج والجزية ابو يوسف وابن آدم وغيرهما (١) هذا ، ولما لم يكن سبيل آخر الى التخلص من هذا الذل والارهاق إلا الدخول في الاسلام كنت ترى سكان العراقين وفارس وبلاد الترك يدخلون في دين الله افواجاً حتى كادت مصر مثلاً في خلافة عمر بن الخطاب تخلو من أهل الذمة واصحاب الخراج ، وكاد المال ينفد من بيت المال

---

١ - انظر Lammens « ابحاث عن خلافة معاوية الاول » ص ٢٣٣

في ايام عثمان وعلي وقد كان كثيراً قبلهما ، وهذا ما حمل خلفاء بني امية ـ إلا عمر بن عبد العزيز ـ وعملاءهم في الشرق والغرب على نسخ سنة عمر الاول وأخذ الجزية حتى ممن كان يدخل في الاسلام ، وفي ذلك من بواعث الاستياء وأسباب السخط على دولة بني امية ما هو معلوم عند الجميع .

لا ريب ان دخول أهل البلاد المغلوبة في الاسلام في النصف الاول من العصر الاول للهجرة كان يؤدي الى تحسين بيّن في أحوال الفلاح والعامل المادية والأدبية ، وان لم يكن يساويهم بالعرب اخوانهم في الدين ، وذلك لأن العرب كانت تنظر الى هؤلاء الدخلاء في الدين والقومية العربية بعين الاحتقار خلافاً للمبدأ الجميل الذي جاء به النبي وأمر اصحابه بإتباعه الا وهو مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات والاخاء بين جميع المسلمين على اختلاف قومياتهم وطبقاتهم الاجتماعية واحوالهم الشخصية ، ومع ذلك فلا أحد ينكر ان حالة هؤلاء الدخلاء الاجتماعية كانت ، كما قلنا قبل ذلك ، أحسن من حالة اخوانهم في الامس الذين ظلوا محافظين على دين أجدادهم وآبائهم ، وعندنا أدلة صريحة وشواهد تاريخية عديدة على ان أحوال هؤلاء الآخرين أخذت تسوء رويداً رويداً وان الحكومة وعمالها صاروا ينظرون اليهم نظرهم الى بقرة حلوب ومورد جديد للاثراء

وسوء الاستعمال كما كانت الحال مع اليهود في اوروبا في الاجيال الوسطى او في بعض انحاء روسيا قبل الحرب الاخيرة .

يظهر لنا ان سوء الاستعمال في جباية الاموال ووضع بعض ضرائب على غير المسلمين ابتدأ في آخر ايام خلافة عمر بن الخطاب كما يفهم من الشكاوي العديدة التي كانت ترفع اليه ، ومنها شكوى الفاعل الفارسي فيروز الذي حضر الى المدينة ليشكو عامل الكوفة مغيرة بن شعبة فلم ينصفه الامير من عامله فقتله في المسجد فكان اول شهيد في الاسلام مات ضحية نظامه الاداري وسياسته الاقتصادية .

يقولون ان عمر بن الخطاب المعروف بعدله وشدته كان يقاوم جور عماله ويحثهم دائماً على انتهاج طرق العدل ويدعوهم الى الشفقة على رعاياهم ويتوعدهم بالعقوبات الشديدة ان هم أخلوا بواجباتهم ثم كان يعزلهم ويستصفي اموالهم (١) إلا ان هذه الوسائل كلها لم تكن لتمنع تسرب اموال الرعية ولا سيما اهل الذمة منها الى جيوب المتوظفين وتحول دون تجمع ثروات كبيرة في ايدي بعض الناس وظهور طبقة جديدة مثرية في المدينة عاصمة المملكة الجديدة التي أخذت تتحول بسرعة غريبة من بلدة صغيرة الى مدينة كبيرة

---

١ — انظر « تاريخ الاسلام » للاستاذ المرحوم A. Mü ler ول ص ٣١١

ذات ملاءٍ واسواق واسعة ملأى بالبضائع الاجنبية وطبقات اجتماعية جديدة لم تكن موجودة فيها قبل الاسلام .

توفي الخليفة المصلح والفاتح العظيم عن ستين عاماً قضى العقد الاخير منها في تأسيس امبراطوريته العربية العظمى وسن القوانين الضرورية لحفظها وضمانها من عثرات الزمان وعبث الرجال ، فخلفه بعد جدال طويل وأزمة خلافية ذات شأن صهر النبي وأحد اصدقائه الاولين عثمان بن عفان أحد اشراف بني امية وأغنيائهم وأحد ادباء عصره القليلين .

بويع عثمان بالخلافة وهو في سن لم يقدر معها ومع ما كان عليه من ضعف الارادة وتعلقه باهله وأقاربه ان يسوس المملكة الجديدة الواسعة الاطراف بنفسه فاضطر ان يسلم ادارتها الى بني امية ابناء عمه وأقدر الناس في ذلك الوقت على ادارة البلاد ، فلم يرضِ ذلك اكثر الصحابة وحزب المسلمين القديم وجماعة من آل ابي بكر وعمر فأخذوا جميعهم يقاومون الخليفة وأهله ويدسون لهم الدسائس ويحرضون الناس عليهم فساءت حالة المملكة ولا سيما حالة الطبقات السفلى من الاهالي وظهرت او بالأحرى قويت الاحزاب السياسية فكان من ذلك ما هو معروف عند الجميع مما لا حاجة الى ذكره هنا . فقتل الخليفة الثالث وانتقلت الخلافة الى صهر النبي الثاني وابن عمه علي بن ابي طالب فكانت ايام خلافته حروباً ومنازعات انتهت بعد

ست سنوات بقتله وانتقال الخلافة (سنة ٦٦١) الى بني امية خصوم النبي والاسلام حتى سنة ٦٢٨ م .

كان يؤمل ان حالة الزارع والفاعل من اهل الذمة وغيرهم تأخذ في التحسن في خلافة بني امية لما عرف عن اكثرهم من بعد النظر في سياسة الامة وسداد الرأي والحزم عند الضرورة وميلهم الى مراعاة عواطف الشعب البسيط والتقرب منه ، إلا ان حبهم للاموال الذي ورثوه عن اجدادهم تجار مكة ، وحاجتهم الماسة اليها لقضاء مهامهم السياسية الكبرى والقيام بالفتوحات الواسعة الصعبة ومحاربة أعدائهم داخل البلاد الى غير ذلك من الاسباب التي أوجدها التغيير الاجتماعي الذي ظهر في دار الاسلام في السنوات الاخيرة التي مرت عليه ، كانت تضطرهم الى طلب المال بكل الوسائل وفي جميع أطراف أمبراطوريتهم الواسعة او بعبارة اخرى الى زيادة الضرائب على الاهالي وجمعها بأشد الطرق وأثقلها على الطبقات التي كانت تؤديها .

معاذ الله ان انكر فضل بني امية على الامة العربية وبعض حسناتها على الامم المغلوبة كالفرس مثلًا الذين ألغوا بينهم النظام القديم المبني على تفاوت الطبقات وساووا بينهم في الحقوق والواجبات ، أو كالاقباط والسريان والعرب المسيحيين الذين عاملوهم في بادىء الامر بالحسنى ورفعوا عنهم نير الحكومة البيزنطية الديني وخففوا الضرائب التي

كادت تقض ظهورهم ، إلا ان ذلك لا يمنعني ان اقول ان
حالة الطبقات السفلى من الاهالي أخذت تسوء في اواخر
ايام بني امية وان الخلفاء المذكورين كانوا مضطرين
للاسباب التي ذكرتها ان يضعوا من الضرائب وان يستعملوا
من الطرق لجمعها ما لم تكن لترضى عنه بعض طبقات
الناس ، نذكر من ذلك نسخهم لسنة النبي وخلفائه الراشدين
المتعلقة بحقوق او امتيازات من كان يعتنق الاسلام من
أهل الذمة والشرك، فقد كانت سنة النبي وخلفائه الراشدين
ان تعفى هذه الطبقة من الناس من الجزية والخراج ، إلا
اذا كانت الارض خراجية من يوم الفتح الاسلامي ، أما
بنو امية - إلا عمر بن عبد العزيز - فانهم حملوا اهل الطبقة
المذكورة على تأدية الجزية والخراج كأنهم لم يدخلوا في
الاسلام ولم تجرِ عليهم احكامه . فكانت نتيجة هذه السياسة
الاقتصادية ان قلّ عدد الداخلين في الاسلام وزاد استياء
الذين دخلوا منهم من الأسرة المالكة والدين الجديد حتى
حملهم على الخروج عليها والعمل مع سائر أعدائها على
اسقاطها ، فهذه الامة القبطية مثلًا التي استقبلت الجيش
العربي الفاتح استقبال الصديق الاعز الزاحف لتخليصها من
أيدي عدوها وساعدته بالقوة والنصيحة على فتح البلاد ، لم
تلبث ان انقلبت عليه وأخذت تسيء الظن به وتتذمر من
سياسته الداخلية والمالية ، لأنها رأت من افعاله ما نفرها منه

وأوغر صدرها عليه وجعلها تحنّ الى ايام عبوديتها السابقة

قال الكاتب القبطي سويرس يشكو حال امته في اواخر خلافة بني امية « ان كثيرين من أغنياء وفقراء ملتنا انكروا دين المسيح هرباً من الخراج وسائر الضرائب الباهظة (١) » وهناك أدلة وشهادات كتابية اخرى لا تدع محلًا للشك في ان استياء الأمم المغلوبة من سياسة بني امية المالية لم يقف عند التذمر والاحتجاج أو البكاء والاستعطاف بل كان يتعداه أحياناً الى الخروج على الدولة وعمالها وإعمال السيف فيهم ، نذكر من ذلك خروج الترك في آسيا الوسطى سنة ٧٣ هـ على العرب وأصحاب السلطة هناك ، لأنهم أبوا ان يتساهلوا معهم في مسائل مالية ونكثوا بوعودهم نحو فئة كبيرة من قبائل الترك دخلت في دين الاسلام لا عن اعتقاد بل على أمل أن يحط عنها جباة المال الجزية اسوة بمن كان يدخل في الاسلام في عصر الخلفاء الراشدين ووفاءً بالعهود التي وعدهم بها عمال وشيوخ الدولة العربية يوم دعوهم الى الاسلام ، ولولا ما أبداه عمال الخليفة ورؤساء جنده من الحزم وما بذلوه من المال لقضت تلك الثورة على سلطة بني امية في طول البلاد التركية وعرضها ، اذ لم يبق في تلك السنة (٧٢٨) في أيدي العرب من مدن آسيا الوسطى

---

١ - انظر Müller , Becker , Islamstudien , S. 256
« تاريخ الاسلام » جزء اول ص ٣٠٤ (من الترجمة الروسية)

إلا سمرقند والدبوسية التي كادت تخرج منهم سنة ٧٣٠ بعد حروب طويلة مع خاقان الترك الأعظم ومن التف حوله من امرائهم وملوكهم الصغار ، وقد ساعد على استفحال الأمر وصعوبة الحال ان بعض العرب من أئمة المرجئة (١) الذين كانوا هدوا الاتراك الى دين الله ووعدوهم باسم حكومة دمشق تلك الوعود كانوا في جانب الترك يحبذون عملهم وينحون باللائمة على أصحاب السلطة وممثليها في تلك البلاد الذين غلب عليهم حب المال حتى أنساهم سنة النبي وخلفائه الراشدين .

هذه كانت نتائج سياسة خلفاء بني امية المالية ليس فقط في البلاد التي ذكرناها بل في العجم والقوقاس وما وراء القوقاس وسائر البلاد المفتوحة كما سنرى ذلك في الفصل الآتي ، وكلها نتائج وخيمة ذات تأثير رديء على سلطة بني امية وسني حياتها .

ومثل ذلك في الوخامة وسوء العاقبة نظام الاراضي الجديد الذي جروا عليه من يوم أصبح الحكم في أيديهم، وخلاصة هذا النظام انهم أطلقوا الحرية لمن أراد من العرب

---

١ — المرجئة نزعة دينية سياسية ظهرت في أوائل حكم بني امية كرد فعل ضد اراء الخوارج المتطرفة وبعض اراء القدريين (انظر عنها كتابي الملل والنحل للشهرستاني وابن حزم ومقالة في مجلة Assyriologie مج ١٦٩)

المسلمين ان يقتني ما شاء من الاراضي خارج جزيرة العرب بعد ان كان ذلك ممنوعاً كما يقال في ايام ابي بكر وعمر، فكان من ذلك ان تهافت أصحاب الثروة والسلطة من العرب على امتلاك الأراضي في العراق ومصر وسائر البلاد المعروفة بحسن تربتها وغزارة مياهها وأخذوا يعملونها ويستثمرونها بكل ما كان لديهم وقتئذٍ من الوسائل. فأدى ذلك الى انتقال اكثر الاراضي الطيبة الى أشخاص او عائلات قليلة أصبحت ذات ثروة كبيرة فلم يمض على ملك بني امية خمسون سنة حتى أصبح أخصب أراضي مصر والعراق في أيديهم وأيدي حلفائهم ومواليهم. ومثل ذلك يقال عن اراضي خراسان وما وراء القوقاس حيث انتقلت أخصب الاراضي واوسعها كموقان ومفازة وشروان الى أيدي طبقة صغيرة من العرب المقربين الى أصحاب السلطة او من اعضاء الاسرة المالكة نفسها يستغلونها بواسطة علوج البلاد او زنوج افريقيا الذين كانوا يأتون بهم بالالوف من بلادهم ويجبرونهم على الشغل في مستنقعات مصر والعرق وما وراء القوقاس حيث كانت الملاريا والحر والجوع تفتك بهم فتكاً ذريعاً كما كانت تفتك باخوانهم في الولايات الجنوبية من اميركا الشمالية حتى أوائل النصف الأول من العصر الماضي.

إذا اردت ان تعرف كيف تنقل الأراضي المذكورة من ايدي اصحابها الأصليين الى أيدي الطبقة المذكورة من

العرب فما عليك إلا ان تطالع مؤرخي العرب كالبلاذري واليعقوبي والطبري وغيرهم وهناك تجد أخباراً ضافية عن املاك بني امية ومواليهم وتقرأ صفحات كاملة عن طرق استغلال هذه الاملاك وحالة العاملين فيها .

ثم هناك سبب آخر كان يدعو احياناً الى حركات عدائية ضد السلطة الحاكمة ليس فقط بين من أسلم من أهل الذمة والكفار بل بين العرب المسلمين أنفسهم ، وما هذا إلا بسبب ذلك القانون الذي وضعه ، كما يقال ، عمر بن الخطاب وهو أن أراضي الخراج أي التي كانت تؤدي عند الفتح العربي الخراج لا العشر ظلت تؤدي هذه الضريبة حتى بعد الفتح وبعد أن انتقل قسم كبير منها الى أيدي المسلمين . نعم ان هذا القانون لم يسنه بنو امية أنفسهم إلا انهم حافظوا عليه لا مراعاة لخواطر عمر ولا حباً به وبسننه، بل حباً ببيت المال أو الأصح بالمال نفسه وخوفاً من أن ينتقل ما بقي من الأراضي الخراجية الى أيدي المسلمين والطبقة الممتازة او طبقة الارسطوقراط المعادية لهم . فمحافظتهم على هذا القانون أمر حسن في حد ذاته ومفيد لمصالح الدولة فلا لوم إذن عليهم ولا تثريب لو ساووا في أخذ الخراج بين الملاكين القدماء من أهل البلاد وبين الملاكين الحديثين من المسلمين ، إلا انهم لم يكونوا ليساووا بين هذين الطرفين للاسباب التي ذكرناها سابقاً والتي ترجع الى كره العرب

للاجانب وأنفتهم الجاهلية لمبدإ المساواة بين العرب . فلا عجب والحالة هذه اذا وجدنا قسماً كبيراً من سكان البلاد المغلوبة ناقماً على العرب ودولتهم ؛ يعمل سراً وعلانية على تقويض ملكهم ومقاومتهم بالسيف والقلم ، ولعله كان بالقلم اكثر منه بالسيف كما تشهد على ذلك الحركة الشعوبية التي اشترك فيها الفارسي والنبطي والقبطي والتركي وغيرهم من الشعوب الواجدة على سياسة بني امية العربية (١)

بقي هنالك عامل آخر من عوامل الاستياء لا بد من الاشارة اليه ولو بعبارات قليلة وهو يرجع الى ما ادخله عبد الملك بن مروان من الاصلاح على ادارة البلاد بعد ان جمع شملها ووحد كلمتها كمسح الأراضي مسحاً جديداً وتسجيلها في سجلات جديدة بلغة الدولة ، وضبطها ضبطاً محكماً لا يستطيع معه أصحاب الاراضي التلاعب بمقدار الاراضي ونوعها او بمقدار الخراج او العشر المطلوب عنها كما كان الحال قبل هذا الاصلاح يوم كانت الاراضي مسجلة بسجلات قديمة يرتقي عهدها الى ايام الرومانيين أو بني ساسان وبلغات لا يفهمها أصحاب السلطة الجديدة . أضف الى هذا الاصلاح المهم اصلاحاً آخر وهو سحب النقود القديمة التي كانت دارجة في البلاد حتى خلافة عبد الملك وصك نقود جديدة كتبت عليها آيات من القرآن عوض

---

١ – اقرأ عن الشعوبية فصلًا من كتاب المستشرق الشهير J. Goldziher تحت عنوان : Muhamm·studien, I. 147 - 177

الصليب وموقدة النار التي كانت على النقود القديمة . وأهم من هذا الأصلاح في توحيد الامبراطورية العربية إدخال اللغة العربية في الدواوين والمكاتبات الرسمية بدل اللغات اليونانية والقبطية والفارسية التي كانت لا تزال مستعملة في سوريا ومصر وبلاد العجم ، ثم تعيين موظفين من أبناء العرب أو من الذين كانوا يحسنون اللغة العربية - وهم في ذلك العصر قليلون - الى غير ذلك من التغيرات المهمة التي حاول عبد الملك أن يربط بها البلاد رباطاً معنوياً بعد ان جمع أطرافها بالسيف وحسن السياسة .

كل ذلك كان ضرورياً لحياة الدولة المترامية الأطراف وكان لا بد منه في خلافة عبد الملك بن مروان أعظم خلفاء بني امية وأبعدهم وأحدهم نظراً بعد الذي رآه بعينيه من الخلل فى البلاد وما آلت اليه الخلافة العربية بعد وفاة والده مروان بن الحكم من التفكك الذي كاد يقضي عليها لو لم يبعث الله لها خليفة مثل عبد الملك . إلا أنه كان لهذه الاصلاحات ،كما لكل اصلاح مهم تقوم به احدى الدول ،مساس بيّن بمصالح بعض الامم او بعض الطبقات المادية وعواطفها القومية فلم تحبذ هذا الاصلاح لأنها ظنته موجهاً الى مصالحها الخاصة وتقاليدها القديمة ،فكان هذا من جملة الاسباب التي جعلتها تنقم على الدولة المصلحة وتعمل في السر والجهر على الايقاع بها وتتمنى سقوطها .

ان سقوط الامبراطورية الاولى ومقام دولة بني العباس مكانها لم يحدث على وجه الاطلاق في حالة الامم المغلوبة تغييراً ظاهراً يذكر ، وسبب ذلك أن سياسة بني العباس الداخلية وبالأخص ما كان له علاقة بالمال والاراضي والاقتصاد لم تكن لتختلف كثيراً عن سياسة بني امية ولا سيما في خلافة أبناء المنصور واحفاده وذلك بعكس سياستهم الادارية والحربية أو الاستعمارية كما يقولون اليوم فان لهذه السياسة ميزاتها الخصوصية وطابعاً عباسياً تمتاز به عن سياسة من سبقهم من الخلفاء الراشدين وبني امية .

قلت ان سياسة بني العباس المالية كانت أقرب الى سياسة بني امية في أيام اولاد المنصور وأحفاده منها في ايامه ، وهذا امر محقق لأن المنصور كان أقدر بني العباس وأبعدهم نظراً فكان يرفق بالفلاح والعامل لأنه اول من من أدرك من خلفاء وسلاطين الشرق تلك الحقيقة البسيطة التى يعلمها اليوم طلاب المدارس وهي ان سعادة الدولة وثروتها وعزها تتوقف على سعادة افرادها ورضاهم . ولما أدركها بصائب فكره وذكائه الفكري او بايحاء من وزيره البرمكي آلى على نفسه ألا يرهق رعيته بالضرائب وان يتقرب اليها برفع بعض المكوس عنها او باصلاحها على طريقة تضمن للمزارعين والعملة نتيجة أتعابهم مما دعا الزارع الى الاقبال على زراعة أراضيه والاهتمام بها والفاعل الى ان يجد

في عمله الذي أوجده له الخليفة المصلح في عاصمة البلاد الجديدة وغيرها من المدن والقرى ، فكان من ذلك ان أثرت البلاد وأخذ الناس يشعرون بالرخاء والراحة ولا سيما في النصف الثاني من حكم الخليفة المذكور . ثم ان الحياة الاجتماعية في أيام المنصور لم تكن مثلها في أيام خلفائه فلم يكن دخلها بعد الترف والبذخ اللذان نعرفهما في ايام الرشيد وأبنائه ، ولم يكن استفحل بعد امر الحريم والغلمان والخصيان ، ولم تظهر الدسائس العائلية والسياسية الى غير ذلك من مظاهر الفخفخة والاستخفاف بمال الناس — الذي أخذوا يشعرون بشدة الحاجة اليه ويطلبونه بجميع الوسائل — أو جمع الأراضي الطيبة في أيادٍ قليلة وبيع جباية الخراج وسائر الضرائب من أشخاص عرفت بشرها وشراستها أو من عمال الدولة ومساعديهم الذين كانوا أشد ظلماً على الرعية وأسرع الى الارتشاء من غيرهم من الجباة الذين كانوا على كل حال تحت مراقبتهم . زد على ذلك نفقات البلاط الخليفي وحرمه ونفقات امراء الجيش من اتراك ومغاربة وعجم ثم قتل البرامكة وإضطهاد من سلم من أصحابهم وموالي الاسرة السابقة الى غير ذلك من مظاهر الظلم وأبواب النفقات الباطلة التي لم تكن معروفة في أيام المنصور وبني امية ، فتتبين لك أسباب إستياء بعض طبقات الأمة العربية وأكثر

الامم المغلوبة من سياسة بني العباس ومحاولة هذه الأمم إسقاط الدولة المذكورة ولا نستثني من بين هذه الامم امة واحدة حتى الامة الفارسية التي كان ينتظر ان تكون راضية عن حالتها في أيام بني العباس وسعيدة بما طرأ على الامبراطورية العربية من التغيير الذي أدى الى انتقال عاصمة المملكة الى جوارهم وإشراك الطبقة العالية منهم في ادارة البلاد واقتباس بعض أنظمتهم وعاداتهم القديمة الى غير ذلك من طرق المجاملة والتزلف اليهم . ومع ذلك لم تكن الفرس راضية عن حالتها في خلافة بني العباس عامة وخلافة الرشيد خاصة .وقد أخذ استياؤهم يظهر بصورة جلية بعد نكبة البرامكة حين أخذت الفرس تدرك أن سياسة بني العباس نحوهم لم تكن لتختلف كثيراً عن سياسة أسلافهم ،وانهم لم يكونوا يجاملونهم ويقربونهم من أنفسهم في أول عهدهم بالخلافة إلا لأنهم كانوا في حاجة ماسة اليهم ، ولأن مصلحة أسرتهم كانت تقتضي ذلك لا مصلحة الشعب الفارسي ،ولولا ذلك لما قضوا على حياة أبي مسلم الخراساني الذي أجلسهم على كرسي الخلافة وحياة كثيرين من عظماء الفرس وقوادهم . ولهذا ولاسباب اخرى لم يمضِ على حكم بني العبّاس زمن طويل حتى أخذ الفرس يشعرون بأن لا داعي لسرورهم من التغيير السياسي الذي تم بمساعدتهم في الخلافة الاسلامية ، وانه لا أمل لهم في تحسين شروط حياتهم الاقتصادية والحقوقية

لانهم رأوا ان الاسرة الجديدة تتبع في سياستها الداخلية سياسة الاسرة السابقة أي سياسة «السوط والسيف» ولا سيما نحو الطبقات السفلى أي طبقات المزارعين والفعلة والمحترفين الصغار وهم الاكثرية في البلاد كما هو معلوم ، بل ان سياستهم نحو الطبقات المذكورة أشد وطأة واوخم عاقبة من سياسة خلفاء بني أمية معها ، وهي الحقيقة التي يؤيدها التاريخ ويشهد على صحتها كتبة بني العباس أنفسهم واليك بيان ذلك بالاختصار .

من المعلوم أن مؤسس دولة بني العباس الحقيقي واعظم خلفائها عبد الله المنصور حاول أن يشيد دولته اولاً على التوفيق بين مصالح الامتين الكبيرتين التي كانت تتألف منها الدولة الاسلامية في عصره وهما العرب والفرس، مخالفاً بذلك سياسة بني أمية الداخلية التي كانت عربية محضة ترتكز على مراعاة الموازنة بين مصالح الاحلاف العربية الكبيرة وهم قيس واليمن . وحاول ايضاً ان يقضي على سوء التفاهم الذي وقع بين تينك الامتين في ايام الاسرة السالفة . وثانياً على الطبقات الراقية الغنية من الامتين ، فكان من ذلك انه أخذ يتقرب الى اصحاب الاملاك (الدهاقنة) والتجار واهل الادب والعلم وبالاخص الى الطبقة الارسطوقراتية كآل برمك وغيرهم ممن كانت قضت على نفوذهم في البلاد وحدّت من ثروتهم سياسة بني أمية الديمقراطية ، فعادت هذه الطبقات الى مراكزها السابقة وأخذت تلعب اهم الادوار في حياة الدولة العباسية عامة وحياة شعبها الفارسي خاصة . فنتج عن ذلك أن

الفلاح الفارسي الذي أخذ يشعر بشيء من الحرية الشخصية ويتمتع بمحصولات اراضيه في عصر بني أمية ، اصبح الآن بين نارين لا يدري ايتهما أشد حرارة على قلبه وتحت نيرين ثقيلين : نير الدولة الغريبة عنه ونير الطبقة الارسطوقراتية المبعوثة حديثاً من قبرها. فصار مضطراً ان يعمل لسيدين : سيد بغداد البعيدة عنه والذي لم يكن يعرف عنه إلا الشيء القليل، وسيده القريب منه صاحب الاملاك الواسعة والسلطة الحقيقية عليه لأن هذا السيد كان مكلفاً جباية الضرايب ووضع المكوس الى غير ذلك من الاعمال التي لها مساس بحياة الفلاح الفارسي رأساً .

إلا أن الاستياء من الدولة الجديدة لم يكن محصوراً في طبقة الفلاحين والعمال للاسباب التي ذكرنا بعضها ، بل كان يتعداها الى الطبقات الاخرى حتى الطبقة العالية اي طبقة الدهاقين الكبار ورؤساء الدين القديم لما اصابهم جميعاً من الفشل في سعيهم وراء استقلالهم القومي واعادة دينهم القديم واحياء آدابهم ولغتهم الى غير ذلك من الاعمال التي كانوا يعلقونها على ظهور دولة بني العباس التي كانوا في بادىء الامر أشد الناس ولاءً لها وضحوا في سبيل مصلحتها ارواحهم واموالهم كما هو معروف. أضف الى ذلك زيادة الضرائب والرسوم واضطهاد اصحاب الدين القديم وغير ذلك من الاعمال المغايرة لروح الامة الفارسية ، فتدرك حينئذ اهم اسباب استياء الشعب الفارسي والشعوب المجاورة له التي عاشت اجيالاً تحت تأثير النظام والأدب واللغة الفارسية، من

سياسة خلفاء بني العباس ومحاولتها مرات عديدة التخلص منهم ، وقد دامت هذه المحاولات سنين عديدة ولم تنته إلا بسقوط الدولة العباسية ودخولها مع من كان تحت سلطتها من الامم تحت حكم علوج آسيا الوسطى ومنغوليا .

لو اردنا أن نذكر جميع الثورات التي «أقامها الشعب الفارسي على الدولة المباركة » من يوم ظهرت اول ثورة سنة ٧٥٥ (ثورة سمباذ) الى آخر ثورة عقبها سقوط الدولة المذكورة لضاق بنا المقام ولاضطررنا ان ندخل في باب التاريخ المحض . على انه لا بد من الاشارة الى امرٍ لم ينتبه اليه مؤرخو الشرق وهو انه كان لهذه الثورات او لاكثرها كثورة استاذ في سنة ٧٦٧ او عطا سنه ٧٧٨ صبغة دينية قد تستدرج القارىء أو الباحث الغير المدقق الى الخطأ في الحكم على اسبابها الحقيقية . الا انا نعلم الآن ان هذه الصبغة لم تكن إلا حجابا شفافاً يحجب ما وراءه من العوامل السياسية والاقتصادية التي هي السبب الحقيقي لهذه الثورات كما بيّنا ذلك في مقدمة هذا الكتاب . ثم لا بد من الاشارة ايضاً إلى أن عدد الحركات الثورية ضد السلطة الحاكمة أو اعمالها في البلاد اخذ يزداد في خلافة المتوكل على الله (٨٤٧ — ٨٦١) وابنائه اي من يوم ظهر الضعف الادبي والعجز المالي في دولة بني العباس ، فكان لا بد لقمع هذه الثورات وردّ غارات العدو على الحدود الشمالية والغربية من جيش كبير منظم ومال كثير يقوم بنفقات هذا الجيش الذي أصبح اكثره ـ من ايام المأمون ـ من الترك

والديلم والمغاربة وغيرهم من الاقوام الغريبة المضمرة العداء للامة العربية وخلفائها . زد إلى ذلك نفقات القصور والمدن الجديدة التي أخذ ينشئها خلفاء بني العباس ووزراؤهم في بغداد وسامرا ، والمال في ذلك الوقت عزيز صعب المنال حتى على اصحاب السلطة المركزية لاسباب اهمها ان عملاء هذه السلطة في الاقاليم البعيدة صاروا يحتفظون بقسم كبير من الضرائب لانهم أخذوا يشعرون بضعف السلطة المركزية وعجزها عن معاقبتهم لو ارادت ذلك . ولما لم يكن لهم زاجر من أنفسهم ولا من الحكومة التي كانت تقيمهم في البلاد بالرشوة والتزلف، كان الشعب مضطراً ان يرد شرهم بالقوة كما حدث سنه ٨٠٧ في سمرقند حين خرج على عامل الخليفة المستبد الظالم وقتله شر قتلة أو كما فعل الشعب مرات عديدة في مصر والعراق وارمينيا واذربيجان التي كانت تئن تحت نير اولئك العتاة الظالمين . يكفيك أن تقرأ بضع صفحات من تواريخ البلاذري واليعقوبي والطبري وابن الاثير لترى بنفسك كم كانت تعاني في ذلك الوقت ، أي في اواخر العصر الثامن واوائل التاسع سكان الامصار المذكورة من ظلم الحكام وجباة الاموال ، وكم من مرة كانت مضطرة أن تلجأ إلى السلاح لتخفف عن نفسها وتضع حداً لاستبداد عمال الحكومة فكان لا يمضي عام حتى « تتحرك » البلاد كما يعبر عن ذلك اليعقوبي والبلاذري في كلامهما عن سكان ارمينيا واذربيجان وبالاخص

عن « صنارية » (١) والخزر النازلين على شواطىء بحر الخزر او بحر قزوين الغربية وغيرهم من خوارج القوقاس والعجم وتشق عصا الطاعة على السلطة الحاكمة فتضطر هذه الى حشد الجيوش وصرف الأموال الكثيرة لتعيد الامن الى نصابه .ولولا إختلاف هؤلاء الاقوام في الغاية والوسائل وتفرق كلمتهم لما استطاع عمال الدولة العباسية أن يقيموا في تلك البلاد شهراً واحداً ولانسلخت البلاد من ذي قبل .

أخذت حالة السلطة المركزية تزداد حرجاً وأخذ امرها يسير الى الزوال يوم صار عمالها من العرب ينحازون الى الخارجين عليها او يحرضونهم على الخروج وشق عصا الطاعة عليها لحزازات او أغراض شخصية أو لانهم شعروا ، كما قلنا ،بضعفها وقرب أجلها فاصبحوا يرون أقرب الى مصالحهم الشخصية او العائلية ان يصطنعوا سكان البلاد المذكورة والمتنفذين فيها ويمالئوهم ليستفيدوا منهم متى سقطت دولة بغداد أو متى قرروا هم أنفسهم ان ينسلخوا عنها ويؤلفوا أمارات او سلطات مستقلة كإمارات بني شيبان وبني مزيد والامارة الكسروانية التي قامت بُعيدَ ذلك على انقاض الخلافة العباسية في القوقاس وما وراءه مما ادّى الى ظهور طبقة خاصة

١ - الصنارية امة قوية من امم ما وراء القوقاس كانت تقيم على حدود جهورية اذربيجان الحاضرة (في ولايتي باكو وعنجه سابقاً) وقسم من اذربيجان العجمي ، والارجح انها من الطوائف الارمنية .

في ارمينيا وأذربيجان تعرف بطبقة « المتغلبين» وما المتغلبون إلا بعض عمال بني العباس في تلك البلاد او رؤساء بعض القبائل الذين انشقوا عن حلفائهم الشرعيين وحاولوا ان يستقلوا كل الاستقلال او بعضه (١) ليبدأوا في تاريخ الاسلام دوراً جديداً يذكرنا بدور الاقطاع (Féodalisme) في اوروبا في الاجيال الوسطى فكان عمل هؤلاء الامراء المستغلين داعياً لغيرهم من أصحاب النفوذ والامم المغلوبة على أمرها ان يحذوا حذوهم ويجربوا ان ينشقوا عن الخلافة العباسية فكان اول من فعل ذلك وحاول ان ينشر لواء الحرية على جبال قراطاغ بابك الخرمي أو باباك الفارسي كما هو اسمه الحقيقي في لغة قومه .

---

١ - اقرأ عن هؤلاء المتغلبين تاريخ اليعقوبي وهو أعرف المؤرخين بهم وبتلك البلاد .

الفصل الثالث

حركة بابك وتعاليمه الاشتراكية

تختلف حركة بابك الخرمي وأشياعه عن غيرها من الحركات الثورية السالفة بأمرين خطيرين: تنظيم الحركة، ثم الغاية التي كانت ترمي اليها. أما تنظيم الحركة فيظهر اولاً في نجاحها وسرعة انتشارها وثبات أصحابها أمام عدوهم المسلح نحو اثنين وعشرين سنة، ثم في اقبال الناس عليها اقبالاً غريباً لم نعهده في تاريخ غيرها واشتراك عدد كبير فيها من الأمم المجاورة لبلاد الفرس كالكرد والارمن والروم وغيرهم من قبائل ما وراء القوقاس الصغيرة اشتراكاً فعلياً يدل على اتفاق سابق وشعور قوي بالمصلحة العامة.

قلت ان بابك وأتباعه ثبتوا أمام جيوش خلفاء بغداد اكثر من عشرين سنة كانوا يدافعون فيها عن مبادئهم وارواحهم مدافعة الأبطال المستميتين في حب بلادهم وحريتهم، وانهم

وان غلبوا في آخر الأمر فقد تمكنوا قبل ذلك من ضرب عدوهم الألد ضربة كادت تقضي عليه وتأتي على قواه المادية والمعنوية إذ من المحقق عند أصحاب التاريخ أن ضعف الدولة العباسية وبوادر سقوطها أخذت تظهر في أواخر خلافة المعتصم (٨٣٣ – ٨٤٢) أحد خلفاء بني العباس العظام بلا جدال وكعبة شعراء عصره الذين بالغوا في تعظيمه ووصف الظفر الذي ناله في حروبه العديدة بمساعدة قائده التركي العظيم حيدر بن قاووس الافشين الذي لولاه ولولا عساكره التركية لسقطت دولة بني العباس في حربها مع بابك لا محالة .

لا ريب في أن حركة بابك كانت نتيجة تلك العوامل الاجتماعية والسياسية التي ظهرت في أواخر الجيل الثامن واوائل التاسع في مملكة بني العباس عامة وفي اذربيجان خاصة ، والتي كان من تأثيرها ان زالت هيبة السلطة الحاكمة أو كادت تزول في نفوس الامم الغريبة كالفرس والترك او الغير مسلمة كالقبط والسريان والارمن وفي عيون العرب أنفسهم، وسقطت منزلتها الادبية الى درجة أصبح معها رعاياها لا يقيمون لها وزناً ولا يحسبون لقوتها حساباً كما يظهر ذلك من أقوال بعض مؤرخي العرب (١) ومن تعدد الثورات والغرض الذي

---

١ – قال المسعودي في «التنبيه والاشراف» (ص ٣٧٨) : «وكانت في ايامه (ايام المقتدر) امور لم يكن مثلها في الاسلام منها غلبة النساء على الملك والتدبير حتى ان جارية لأمه تعرف بثمل القهرمانة كانت تجلس

أخذت ترمي اليه وهو الانفصال التام عن جسم الخلافة العباسية وتأليف ممالك او امارات مستقلة من نوع مملكة بني امية في اسبانيا وإمارة الاغالبة في شمالي افريقيا او الجمهورية التي حاول بابك أن يخلقها في جبال قراطاغ من الشعوب الايرانية التي عجز خلفاء بني العباس عن ادماجها في الامة العربية ودينها ، او عن ايجاد طرق للتفاهم بينها وبين الأمة الغالبة .

لدينا من الأدلة ما يكفي لأن نفرض أن بابك وأتباعه بدأوا يفكرون بالخروج على خلفاء بغداد ويهيئون للثورة أسبابها منذ أمد بعيد وانهم كانوا ينتظرون الفرص المناسبة للشروع في العمل واعلان الحرب على خصمهم الاكبر ، نستدل على ذلك من المخابرت السرية بين بابك وامبراطور بيزنطية تيوفيل (٨٢٩ - ٨٤٢) وسلفه (١) التي يرجح أنها ابتدأت قبل الثورة . فقد ذكر بعض المؤرخين ان بابك

تنظر في مظالم الخاصة والعامة ويحضرها الوزير والكاتب والقضاة واهل العلم» وقال ابن الاثير « ج ٨ ص ١٥٩ » ما حرفه :« وكان سبب ذلك انهم لما اعادوا المقتدر الى الخلافة زاد ادلالهم واستطالتهم وصاروا يقولون اشياء لا يحتملها الخلفاء ومنها انهم يقولون من أعان ظالماً سلطه الله عليه ومن يصعد الحمار الى السطح يقدر بحطه » – طالع ايضاً كتاب الفخري في الاداب السلطانية .

١ – انظر ملحق المؤرخ Théophane ج ٣ و ٢١ ص ١١٢ وميخائيل السرياني ج ٣ ص ٥٢ وتأليف الاستاذ الروسي فاسيليف « بزنطية والعرب » ص ٣٣

ذهب بنفسه الى عاصمة الروم او الى الحدود البيزنطية الجنوبية ليدعو امبراطورها الى الاشتراك معه في حرب عامة يعلنونها على عدوهم المشترك . لكنه يظهر لنا انه لا صحة لهذا الخبر لأنه يصعب علينا ان نصدق أن بابك زار (١) بيزنطية ايام الحرب التي نرجح أنها نشبت في صيف سنة ٨١٧ اما انه زارها قبل اعلان الحرب فلا دليل على ذلك . الا انه يمكننا ان نقدر استناداً على الحوادث التي سنأتي على ذكرها بعد ذلك ، ان بابك ، بعد ان عزم على الخروج على خليفة بغداد ، أطلع بواسطة أحد رسله صديقه وحليفه الطبيعي امبراطور الروم على عزمه والغرض من خروجه وطلب اليه أن يمده بجيوشه او ان ينضم اليه بنفسه في هذه الحرب العامة التي كان يرجى منها خير لهما جميعاً ان هي انتهت بسقوط عدوهما الألد . على كل حال لا ريب في أن بابك كان يستطيع أن يعوّل في حروبه مع حلفاء بغداد على مساعدة البيزنطيين . وبالعكس فنحن نعلم انه لما ساءت امور بابك بعد عشرين سنة صرفها في مقاومة أعظم جيش وأضخم دولة في ذلك العصر ، برز لمساعدته امبراطور الروم وحاول بمناوراته على الحدود العربية (العواصم) ان يصرق قسماً كبيراً من جيش الخليفة المرابط في اذربيجان عن بابك . ونعلم ايضاً ان

---

١ - انظر ملحق Théophane ص ١١٢ و Gesenios ص ٥٤ وابا الفرج وابن العبري وغيرهم .

فئة كبيرة من أصحاب بابك حاربت سنة ٨٣١ تحت قيادة رجل ايراني يُعرف بتيوفوب(١)Thèophobe في جانب البيزنطيين وان قسماً كبيراً من جيش بابك اجتاز الحدود البيزنطية بعد ما أصاب بابك من الفشل ، ونزل في ارض الروم على الرحب والسعة وهناك تنصر .

يستدل من هذا أن صداقة قديمة قوية كانت بين بابك وامبراطور الروم ان لم تكن معاهدة حربية سرية . إلا ان بابك لم يكتف بهذه الصداقة وحاول ان يستميل الى دعوته جيرانه الأقربين أي الكرد والأرمن او على الاقل ان يضمن حيادهم في الحرب المقبلة على شروط يتفق معهم عليها قبل الحرب لكنه لم يوفق الى ذلك تماماً لأن الارمن أبوا ان يدخلوا في المحالفة التي دعاهم اليها إلا فئة صغيرة منهم كانت تقيم في مقاطعة سيوانيا (صهيون ؟) فانها انضمت اليه عن طيبة خاطر وارتبطت معه برباط متين وثق عراه زواج بابك بابنة اميرهم وقائد جيشهم . أما سائر الامة الارمنية فانها رأت أقرب الى مصالحها القومية أن تنتهز هذه الفرصة المناسبة لتصلح امورها التي تضعضعت كثيراً سنة ٧٧٢ بما أصابها من الفشل والخسارة في حروبها الأهلية ومع عمال خلفاء بغداد ، فقررت لذلك ان تلزم الحياد خوفاً من ان تكون نتيجة الحرب بين شيوعيي قراطاغ وخليفة بغداد وبالاً عليها ان هي انحازت

---

١ – انظر « Gesenios » ج م ص ١١٩

.الى جانب الأولين ،ولولا هذا الحذر ولولا هذا الحياد من طرف اكثر بطارقة الارمن لكانت نتائج الحرب غير التي نعرفها .

اما اشتراك الكرد في هذه الحرب فقد كاد يكون عاماً كما يظهر من أقوال المؤرخين الذين ذكروا ان عصمة أمير مرند ورؤساء القبائل الكردية في همذان وكرمنشاه وغيرهما من المقاطعات الشرقية قد انضموا الى دعوة بابك غير مكرهين ولا مساومين . قال اليعقوبي ، وهو أعرف المؤرخين باحوال تلك البلاد : «وكان محمد بن البعيث قد شايعه وعصمة الكردي أمير مرندا في طاعته » (١) وذكر غيره (٢) « أن الاكراد كانوا يدخلون في دين بابك أفواجاً » وهذا يدل على انهم كانوا مرتاحين إلى عمله وميالين إلى مبادئه الجديدة . وكذلك القول في الباطنية أو الاسماعيلية وأكثرهم من العجم والكرد فانهم كانوا أيضاً في جانب الخرمية يمدونهم بالمال والنصيحة والرجال كما يشهد على ذلك أبو منصور البغدادي صاحب كتاب « الفرق بين الفرق والفرقة الناجية منها » (٣) .

فانت ترى مما ذكر ان اكثر الامم الايرانية المقهورة في أرمينيا واذربيجان من خراسان في الشمال إلى العراق العربي في الجنوب أخذت تتألب على دولة بني العباس وتعمل جهاراً على اسقاطها وقد زاد الطين بلة وجعل الخطر على حياة الدولة المذكورة

---

١ – انظر تاريخه ج ٢ ص ٥٧٧

٢ – ابو منصور البغدادي في «الفرق بين الفرق» ص ٢٦٦

٣ – ص ٣٣١ و ٣٣٤

قاب قوسين أو أدنى هو ممالئة قائد الجيش الخليفي حيدر بن قاووس الافشين لبابك وحلفائه من شيوعية العجم والاتفاق معهم سراً على تحرير الأمم الايرانية والتركية المقهورة وجعلها إمارات وسلطنات مستقلة تحت ادارة رجال منهم . هذا إذا صح ما عزي من الخيانة إلى القائد المذكور الذي طالما أقال الدولة العباسية من عثرتها وشتت شمل أعدائها في الخارج والداخل ونظم جيوشها إلا أنه يظهر من المحاكمة العلنية التي أقيمت على الافشين بعد أن وضعت حرب بابك أوزارها أن تهمة الخيانة التي أتهم بها لم تكن عارية عن الصحة فقد تبين من المحاكمة المذكورة التي أمر باجرائها المعتصم بالله (٨٣٣ — ٨٤٢) انه كان للافشين ضلع مع بابك أو مع حليفه مازيار صاحب طبرستان وانه حقيقة كان ينوي سلخ البلاد التركية أو قسم كبير منها عن الخلافة العباسية ليجعل منها امارة أو سلطنة مستقلة تحت ادارته . قال مازيار في جلسة من جلسات المحكمة العرفية المذكورة ان حيدر الافشين كتب إليه يقول : (١) «لو اتبعتني لاستطعنا أن نقضي على الاسلام ونرجع إلى ديننا الفارسي القديم» .

يؤيد ذلك ما ذكره اليعقوبي في تاريخه عن خروج منكجور على الخليفة قال : «وكان أول سبب حبس الافشين ان منكجور الفرغاني خال ولد افشين وخليفته باذربيجان خلع هناك وجمع إليه أصحاب بابك وسار إلى ورثان فقتل محمد بن عبيد الله الورثاني

---

١ — انظر « Fragmenta hist . arab » ج ١ ص ٤٠٦

وجماعة من اولياء السلطان » (١) .

إذن لا ريب في خيانة أعظم قواد جيش الخليفة لولي نعمته الذي غمره باحسانه ورفع مرتبته . ولولا ذلك ولولا أن الخليفة رأى بعينه أدلة الخيانة لما أمر بمحاكمته ولما استغنى عنه بتلك السهولة التي يذكرها المؤرخون وهو في ذلك الوقت أشد الناس احتياجاً إليه وإلى أعوانه من الترك وعليه صح ما ذكرناه قبيل ذلك عن تشعب المؤامرة ضد السلطة العربية واشتراك أكثر الأمم المغلوبة فيها وهذا يدل على خطورة العمل الذي أقدم عليه بابك وحرج موقف الدولة العباسية في ذلك الدور من حياتها . وقد زاد في حرج هذا المركز أنه كان بين المتآمرين بعض زعماء العرب ممن أعمت المصالح الشخصية أو العائلية قلوبهم وأنستهم أو جعلتهم يتناسون أن الغاية الكبرى من هذه المؤامرة هي سحق السلطة العربية في تلك البلاد والقضاء على الاسلام وأهله . وأعظم من ذلك في الغرابة وأدل على ضعف العاطفة القومية في قلوب عرب ذلك العصر وتغلب مصالح الفرد أو العشيرة على مصالح الأمة ، هو ما ذكره اليعقوبي في تاريخه من أن عمال الخليفة الكبار في أذربيجان هم الذين أوعزوا إلى بابك بالخروج على سلطانهم وولي نعمهم وحرضوه على العصيان واعدين إياه بالمساعدة ، وان بين المحرضين كان حاتم بن هرثمة زعيم تلك العائلة العربية التي عرفت في التاريخ بخدماتها العديدة للخلافة

---

١ - تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٨٣

العباسية والأمة العربية. وابن هرثمة هذا كان والياً للخليفة على أرمينيا وأذربيجان (١) حيث ترك آثاراً محمودة. قال المؤرخ المذكور: « واشتدت شوكة بابك وكان محمد بن البعيث قد شايعه وعصمة الكردي صاحب مرند في طاعته » (٢ : ٥٧٧). وقال في موضع آخر: « أن محمد بن البعيث انحاز إلى بابك » (٢ : ٥٧٧). وما مثل حاتم بن هرثمة ومحمد بن البعيث إلا كمثل غيرهما من عمال الخليفة في أرمينيا وأذربيجان ورؤساء بعض القبائل العربية هناك من حيث عدم الاخلاص لخلفاء بغداد وحكومتهم وتقديم المصلحة الخاصة على المصلحة العامة فكأنهم كلهم أصبحوا لا يفهمون أن عزهم وسعادتهم بل وجودهم في البلاد المذكورة كانت تتوقف على طاعتهم لخلفائهم وهيبة الحكومة المركزية وقوتها المادية والمعنوية. وليست هذه بالمرة الأولى التي تغلبت فيها روح العشيرة ومصالحها الجزئية على روح الأمة ومصالحها الحيوية العامة، فقد ذكر التاريخ أن نصر بن سيار عامل خلفاء بني أمية على خراسان وآسيا الوسطى أهاب قبل مئة سنة مضت على ظهور الاسلام برؤساء قيس واليمن أن القوا سلاحكم يا قوم ووحدوا كلمتكم في ديار الغربة وأمام عدو قوي عنيد يريد بكم الشر وبدولتكم الأذى. فلم يكن من يسمعه يفقه لحوادث ذلك العصر معنى فكان من أمر العرب في تلك البلاد

---

١ – كانت ارمينيا واذربيجان مقاطعة او امارة واحدة قبل خروج بابك واستفحال امره. انظر تاريخ اليعقوبي ٢ : ٥٦٥ « من طبعة ليدن ».

ومن أمر اسرتهم العربية ما هو معلوم عند الجميع (١) .

هؤلاء هم حلفاء بابك وهؤلاء هم المخلصون أو الممالئون له ولدعوته الذين كان يستطيع أن يعتمد عليهم في مقاومته لسلطة بني العباس . أماالظروف المناسبة التي رافقت هذه الحرب الطويلة أو سبقتها وربما ساعدت على الاسراع في إعلانها فكثيرة أيضاً نقتصر على ذكر بعضها فمنها اشتغال جيش الخليفة المأمون في ذلك الوقت بتدويخ الثورات التي استعرت نارها في العراق ومصر وبلاد العرب (٢) ورد هجمات جيش الروم الذي اجتاز الحدود، بعد أن فتح وهدم قلعة زبطرا سنة ٨٢١ ، وأخذ يتغلغل في دار الاسلام وبالأخص في أرمينيا الممالئة له التي كاد يحتلها كلها وصار يتصرف بها وبامرائها كما كان يتصرف ببلاده وسكانها (٣) . وأهم من ذلك أن الجيش الرومي أصبح ، بعد أن احتل أرمينيا ، مجاوراً لبلاد بابك فصار في وسعه أن يمده برجاله ونصائحه . ولعل هذا الأمر هو الذي حمل امبراطور الروم على الزحف على أرمينيا واحتلالها . وهناك فرصة أخرى لا بد أن بابك استفاد منها وهي خروج حاتم بن هرثمة على عامل الخليفة في أرمينيا وأذربيجان انتقاماً لأبيه هرثمة الذي قتله المأمون غيلة سنة ٨٢٠ ومن منا لا يعرف منزلة هرثمة بين العرب وما كان له من النفوذ بينهم على

---

١ – الدينوري – كتاب الاخبار الطوال – ص ٣٦٠ (من طبعة بطرسبرج)

٢ – انظر تأليف Weil « تاريخ الخلفاء » ج ٣ ص ٢٣٧ .

٣ – Laurent L'Armenie entre Bysance et L'islam, P. 318

سياسة الدولة ؟ أما ان بابك قد استفاد من هذه الثورة فهذا أمر طبيعي وقد أشار إليه المستشرق اليهودي (Weil) في تاريخه حيث قال : « ان بابك قد استفاد من هذه الحادثة بأن صوّر المأمون خائناً لمصالح الفرس » (١) ثم أضف إلى ذلك أن خروج غيره من العرب المرابطين في تلك البلاد أو من أهل البلاد الناقمين على حكومة بغداد والشعب العربي وبينهم بابك وأشياعه كما أشار إلى ذلك اليعقوبي في كلامه الذي ذكرناه سابقاً والذي يفهم منه أن ثورة حاتم بن هرثمة كانت من دواعي الاسراع في حركة بابك لا من أسبابها لأن استعداد بابك للخروج على بغداد وإعلان الحرب على عامل الخليفة في أذربيّجان وارّان وأرمينيا كانت قد سبقت ، كما نرجح ، ثورة حاتم (٢).

نرى مما ذكر أن حلفاء وأصدقاء بابك كانوا كثيرين وأن الظروف كانت في بادىء الأمر موافقة لحركته وأكثر الشعوب المغلوبة ، وعلى الأخص الطبقات السفلى منها ، تميل إلى دعوته وتدخل فيها راضية مملوءة آمالاً بحسن عاقبتها وكانت تحارب تحت الويته الحمر (٣) مستقلة . قال أبو منصور البغدادي (توفي ١٠٣٨) «ان عدد الخرمية الذين انضموا إلى جيش بابك في

---

١ – تاريخ الخلفاء ج ٢ ص ٢٣٧

٢ – اليعقوبي ٢ ص ٥٦٨

٣ – كانت الوية الخرمية حقيقة حمراً انظر ZDMG ج ٢٣ ص ٥٣٤.

اذربيجان والديلم فقط بلغ ثلثمائة الف نفس (١) وذكر الطبري « ان جماعة كثيرة من اهل الجبال (Médie) من همذان واصبهان وماسبذان ومهرجان قد دخلوا في دين الخرمية وانهم تجمعوا فعسكروا في همذان » (٢) ويستفاد من مصادر اخرى ان عدد البابكيين لم يكن قليلاً في ولايات ايران الجنوبية وفي العراق (٣) وان الحركة البابكية اخذت تنتشر انتشاراً سريعاً بين علوج تلك البلاد اي بين العاملين في اراضي غيرهم بالاجرة .

وهنا يجدر بنا ان نتساءل عن الاسباب التي حببت الى هذه الطبقات الدخول في الدعوة البابكية والاقبال على مساعدتها بالنفس والنفيس ؟؛ فنجيب على هذا السؤال ،وذلك استناداً على اقوال كتبة المسلمين عن حركة بابك وتعاليمه، ان اهم العوامل التي ساعدت على نشر دعوته بين الطبقات والامم المذكورة لم تكن دينية ولا سياسية بل اجتماعية واقتصادية تؤيد ذلك افعال بابك واشياعه يوم كانت القوة في ايديهم ثم برنامجهم او بروغرامهم الذي لا نجد فيه اثراً للعوامل الدينية او السياسية .

ذكر بعض مؤرخي العرب ان البابكيين كانوا يعاملون اسراهم ولا سيما العساكر منهم بالحسنى فكانوا غالباً يطلقون

---

١ — الفرق ٢٦٨

٢ — ج ١٠ ص ٣٠٥ (من طبعة القاهرة)

٣ — تاريخ الطبري ج ١٠ ص ٢٧٩

مراحهم على شرط ان لا يشتركوا مرة اخرى في قتالهم. وذكروا انهم كانوا يحسنون معاملة نساء اعدائهم واولادهم ممن كان يقع في ايديهم ايام الحرب حتى لو كانوا من طبقة الدهاقين والقواد الخ.

ذكر الطبري (١) انه لما أسر بابك وجيء به مع اخيه الى بغداد للمحاكمة او بالاحرى للتعذيب: «كانت النساء اللواتي اطلقهن قبلًا من الاسر يضربن على وجوههن ويبكين» حزناً وشفقة عليه، فلما سألهن حيدر الافشين عن سبب بكائهن أجبنه بأن بابك «كان يحسن الينا». اما عن معاملة بابك واشياعه لاصحاب الدين الاسلامي ونظرهم الى الدين نفسه فعندنا ادلة كافية تشهد بتساهلهم الديني ومجاملتهم لاصحاب الدين، فقد ذكر ابو منصور البغدادي وهو عدو البابكيين الالد، ان بابك واتباعه — واكثرهم على دين زرادشت — لم يكونوا يمنعون المسلمين المقيمين بينهم من التمسك بدينهم واقامة شعائرهم علناً بل كانوا يساعدونهم على بناء مساجدهم «حيث كانوا يؤذنون» (٢).

كل ذلك يحملنا على الاعتقاد في ان الغرض من الحركة البابكية لم يكن مقاومة الاسلام وذويه ولا مقاومة العرب

---

١ — تاريخ الطبري ج ١٠ ص ٣٣٨

٢ — الفرق ص ٢٥٢ ومقالتنا «بابك والبابكية» باكو ١٩٢١

كامة قائمة منتصبة كما كانت الحال في اكثر الثورات السابقة لحركة بابك في بلاد العجم ، بل محاربة ذلك النظام الاجتماعي الذي كانت تئن تحته الطبقات السفلى من جميع الامم التي كانت تتألف منها وقتئذٍ دولة بني العباس حتى الامة العربية نفسها وان لم تشترك ابناء هذه الامة فعلاً في الثورة البابكية . نعم ان بابك واتباعه كانوا يرمون الى هدم ذلك النظام المستند على اصحاب الاملاك (الدهاقين) ورؤساء الدين والجيوش المسخرة المأجورة وابداله بنظام جديد ليس فيه طبقات ولا نزاع مستمر بينها ولا ظالم ومظلوم ولا غني وفقير ولا سيد وعبد ولا كبير وصغير ، بنظام مبني على العدل والاخاء والمساواة .

إنا لنأسف جداً ان مؤرخي الفرس والعرب لم يحفظوا لنا برنامج بابك الاجتماعي بحرفه الواحد وان الشيء القليل الذي حفظوه لا يشفي غليلاً ولا يحل الالغاز والصعوبات التي يجدها الباحث في تاريخ الحركة البابكية وغايتها ، هذا اذا فرضنا ان اصحاب التاريخ ، وكلهم من اعداء البابكيين ومذهبهم ، لم يحرفوا بروغرامهم (١) لاغراضهم الجدلية وكرههم الديني لهم . على انه يمكننا استناداً على هذه الاخبار ومصادر اخرى غير جدلية ، ان نبرهن على صحة

---

١ – نجد خرافات وترهات عديدة عن الخرميين في كتاب « البدء والتاريخ » لمطهر بن طاهر المقدسي .

ما قلناه قبلاً وهو ان بروغرام بابك ومازيار وسائر اشتراكيي اذربيجان وطبرستان كان يحتوي على مسائل اجتماعية واقتصادية فقط يمكن حصرها في مسألتين اساسيتين وهما : (١) نزع الاراضي الواسعة من أربابها الذين اغتصبوها سابقاً من الفلاحين أو الدولة وتوزيعها مجاناً على المزارعين المحتاجين إليها و (٢) تحرير الامرأة الشرقية أو الايرانية على الأقل من عبوديتها الأبدية واعطائها أهم ما للرجل من حقوق .

إذا صح ذلك، ولا نراه إلا صحيحاً، كان بروغرام البابكيين الخرميين الاجتماعي عين بروغرام شيوعيي إيران في العصر السادس للمسيح المعروفين بالمزدكيين نسبة إلى صاحب دعوتهم ومؤسس مذهبهم مزدك وعليه يكون بابك وأصحابه تلامذة أو أتباع مزدك ولو اختلفوا ، كما سنرى ، في بعض نقط طفيفة اقتضاها الزمن والوسط الاجتماعي الجديد . وقد انتبه إلى هذه الصلة المعنوية بين شيوعيي العصر السادس والعصر التاسع معاصرو بابك وأكثر من كتب عن حركته ومبادئه من مسلمي الأعصر المتأخرة كأبي منصور البغدادي والمطهر المقدسي والغزالي وغيرهم ممن كتب في البدع الاسلامية والنحل والفلسفة .قال أبو منصور المذكور : « ان الخرميين كانوا على مذهب المزدكيين » (١) والذي يظهر لي أن ليس فقط بابك وأشياعه أخذوا مذهبهم عن اخوانهم في الجنس والغاية اصحاب مزدك بل سائر شيوعيي فارس

---

١ — الفرق ص ٢٦٧

وأذربيجان كالمازيارية والجاويدانية وغيرهم ممن عرفوا باسماء زعمائهم مع اتفاقهم في المسائل الجوهرية مما يدل على ان آراء مزدك لم تمت بموته وموت الالوف من أشياعه الذين كانت دولة ساسان تتعقبهم في كل البلاد الخاضعة لها ، بل بقيت حية في صدور كثيرين من تلاميذه الذين سلموا من القتل ولجأوا إلى جبال أذربيجان واران مصدر الحركة المزدكية وعش الشيوعية وكل الحركات الاشتراكية (١) التي ظهرت في إيران من يوم عرفها التاريخ ، بل ملجأ المضطهدين لدينهم أو مبادئهم الاجتماعية قبل مزدك وبابك ، يثبت ذلك ما ذكره صاحب معجم البلدان (٢) من أن فئة من أصحاب مزدك اختبأت بعد محنته المعروفة في جبال أذربيجان المنيعة حيث ظلت تحافظ على مبادئها إلى ايام بني سلجوق وخلفائهم الاقربين لأنها وجدت هناك وسطاً ميالاً إليها لم تلبث أن انتشرت فيه ونمت بعيدة عن عين العدو وحريصة على مذهبها الاشتراكي حرصها على نار اجدادها المقدسة وتقاليدهم وآدابهم القديمة .

بقيت آراء مزدك تنتشر خفية بين سكان أذربيجان والبلاد المجاورة لها وتستميل إليها العناصر الغير راضية عن حالتها الاجتماعية كبعض طبقات الفرس والمتطرفين من الشيعيين والباطنية الذين

---

١ – انظر Grundrissd· iranische philologie ,B.11 , S,558

٢ – معجم البلدان ج ٢ ص ٥٦٩

كانوا أشد الناس بغضاً وكراهة للاسلام والدولة العباسية وأسهلهم انقياداً لكل حركة كانوا يأملون منها شراً للدولة المذكورة ، ولقد ساعد على حفظ هذه المبادىء ونشرها بين الشعوب المستاءة أن الحركة كانت ، كما يستفاد من أقوال بعض الكتبة المتأخرين ، منظمة وفي أيدي أناس خبيرين بطرق الدعوة يتناقلها بعضهم عن بعض إلى أن وصلت الزعامة إلى رجل يدعى جاويدان بن سهل (المتوفي ٨١٦) استاذ بابك وصديقه الأعز فسلمه قبل وفاته زعامة الحزب الشيوعي في أذربيجان لما تفرس فيه من الاستعداد الطبيعي للرئاسة وقوة الارادة والاخلاص للدعوة إلى غير ذلك من الصفات التي يحتاج اليها كل زعيم كبير . وقد برهن بابك بما أدخله على حزبه من الترتيب وأبداه من حسن الادارة والثبات عند المحن مدة اثنتين وعشرين سنة أمام عدوّ أقوى منه عدداً وعدداً انه ذاك الرجل أو ذاك المهدي الذي كانت تنتظره الأمم والطبقات المظلومة المغلوبة على أمرها ليحررها من العبودية الطويلة ويحقق احلام مزدك الحلوة .

هنا سؤال آخر لا بد من الاجابة عليه بما أمكن من الايجاز وهو : ما هي الأسباب التي ساعدت على نشوء الحركة الشيوعية في بقعة من الأرض معلومة وحفظها فيها عدة أجيال ؟ ولا شك أن هناك أسباباً معقولة كما لكل حركة اجتماعية ظهرت في تاريخ الاسلام أو غيره ، وما هذه الأسباب إلا تلك الشروط

الاجتماعية أو بالاحرى الاقتصادية التي كانت متوافرة في تلك البقعة من الأرض منذ أجيال بعيدة والتي كانت تمد المبادىء الاشتراكية بالغذاءالكافي وتضطرها أحيانا إلى الانفجار . أما أهم هذه الشروط فهي ، كما يظهر لي ، حالة الفلاحين في تلك البلاد وعلاقتهم باصحاب الأراضي .

ان ما نعلمه من أمر نظام الأراضي في أذربيجان وآران يحملنا على الاعتقاد أن كل الأراضي في تلك البلاد أو أكثرها كانت تخص أشخاصاً معدودة من طبقة الدهاقين أو الأرباب والخانات كما يسمونهم اليوم ، وأن هذه الطبقة من الناس كانت تستغل أراضيها بواسطة الفلاح الفارسي أو غيره من علوج البلاد وأسرى الحرب وتراقب أعمالهم بنفسها من وراء جدران قصورها التي كانت تعد بالألوف وتغطي أكثر بلاد العجم ولا سيما المقاطعات الغربية والشمالية منها . فكان الفلاح يعتمل أراضي سيده كالرقيق لا يأخذ على تعبه مكافأة تذكر بل كان في أيام بني ساسان (١) رقيقاً بمعنى هذه الكلمة الحقيقي لا يملك شيئاً حتى حق الزواج والتمتع بامرأته إلا إذا سمح له بذلك سيده كما كانت الحال في روسيا إلى سنة ١٨٦١ وفي أوروبا في عصر الاقطاع وسلطة الملاكين . وقد رأينا أن دخول تلك البلاد تحت الحكم العربي لم يغير إلا الشيء القليل من حال الفلاح الفارسي

---

١ – انظر عن حالة الفلاح في ايام بني ساسان كتاب الاستاذ
Ar . Christensen :L'empire des Sasanides

الاقتصادية وانها — إلا في أوقات معلومة — بقيت على ما كانت عليه في ايام بني ساسان . وسبب ذلك أن السلطة العربية على الاطلاق لم يكن يهمها من أمر هؤلاء الاعاجم وغيرهم من الأمم المغلوبة إلا تأدية ما عليهم من الضرائب (١) في الوقت المعين ، وهذا ما دعاهم على ابقاء أكثر الأسر القديمة المالكة والعائلات الكبيرة في وظائفها القديمة لأنها كانت في نظر الدول العربية أقدر من غيرها من المتوظفين على جمع المال وتأديته إلى الحكومة في حينه . ثم نحن نعلم أن أذربيجان والبلاد المجاورة لها كانت من تلك المقاطعات التي حافظت أكثر من غيرها من الاقاليم الفارسية على نظامها السابق أي على النظام الساساني المبني على تقسيم الناس إلى طبقات (٢) معلومة لكل منها حقوقه وواجباته ، وأن البلاد المذكورة ظات متمسكة بهذا النظام إلى سقوط الدولة العربية بل إلى ما بعد ذلك كما يستفاد مثلاً من كلام اليعقوبي الذي زار بنفسه هذه البلاد وعرف احوالها أكثر من غيره من مؤرخي العرب فقد ورد في تاريخه أن طبقة العلوج، وهم الفلاحون الذين لا يملكون أراضي ، كانت كثيرة العدد في ذلك الاقليم وأن حالتهم كانت تسوء يوماً عن يوم مما كان يضطرهم مراراً إلى الخروج على ساداتهم وتأليف عصابات — وما كان اكثرها في ذلك العصر — للنهب والقتل . وزاد على ذلك أن

---

١ — انظر تاريخ الاسلام ل A . Müller ج اول ص ٣٠٦

٢ — طالع عن نظام بني ساسان تأليف A.Christensen المذكور

حالة الفلاحين الاحرار لم تكن بأحسن من حالة من ذكرنا من اخوانهم ولا سيما بعد ان أصبح جمع الخراج والمكوس وسائر الضرائب في أيدي ملتزمين من أصحاب الوظائف والنفوذ في البلاد يتقاضونها بجميع الطرق ولا يراعون في جمعها إلا مصالحهم وشهواتهم الشخصية .

ذكر صاحب معجم البلدان (١) ان الحجاج بن يوسف عامل الخليفة عبد الملك على الشرق ، كان يجمع من مقاطعتي فارس والاهواز ثمانيـة عشر مليوناً من الدنانير فقط فصاروا يجمعون منها بعد اربعين او خمسين سنة اثنين وثلاثين مليوناً. ثم أخذت هذه الضريبة تزداد الى ان بلغت ، حوالى النصف الاول من العصر التاسع أي قبـل ظهور بابك وأشياعه بعشرين او ثلاثين سنة ، خمسة وثلاثين مليوناً التزم جمعها وتأديتها الى بيت المال فضل بن مروان وزير الخليفة المتوكل. ومعنى ذلك ان الضرائب التي كانت تؤخـذ من تـينك المقاطعتين قد تضاعفت في مئة سنة مع بقاء الأرض على حالها فتأمل !. اما كيف وممن كانت تؤخذ الضرائب فإنا نترك الجواب على ذلك الى القارىء اللبيب .

اذا تدبرنا كل ذلك ادركنا اسباب تمركز الحركة الشيوعية في اراضي اذربيجان وأران الخصبة ولماذا كان المصلحون

---

١ - اطلب في معجم البلدان كلمتي « اهواز » و « فرس » .

الايرانيون من مزدك إلى بابك يلحون في طلب نزع الاراضي من أيدي الاقلية وتوزيعها على الفلاحين بالتقسيط ، وما ذلك إلا لانهم ادركوا ان في تحرير الاراضي تحرير الفلاح نفسه ووضع حد لاستغلال أتعابه .

هذه هي النقطة الاولى المهمة في برنامج البابكية ، اما النقطة الثانية وهي السعي وراء تحرير المرأة الايرانية فليست إلا نتيجة للنقطة الاولى ، ووجودها في بروغرام الخرمية دليل قاطع على انه لم يطرأ على حال الامرأة الايرانية تغيير يذكر من يوم ظهر مزدك وربما من يوم زرادشت الذي بدأ يدافع عن حقوقها المهضومة ويطالب بحريتها . نعم ان الكتبة المتأخرين وأكثرهم من الناقمين من مزدك وبابك وأشياعهما ، حاولوا ان يؤوّلوا هذا الطلب الصريح العادل تأويلًا لا يتفق مع غرض المصلحين المذكورين مما يدل إما على سوء نية وإما على عدم فهمهم معنى الحرية التي كان يطلبها مزدك وبابك للامرأة . فقد خيل لبعض الناس ان المصلحين المذكورين يقولان باباحة النساء وهذا غير صحيح اذا أطلقنا الكلام ولم نقيده بشروط ذكرها بعض كتبة العرب كما سنرى .

قال بلعامي المؤرخ الفارسي ومختصر تاريخ الطبري « ان مزدك فسخ الزواج (الشرعي) وملكية الاراضي وكان يقول « ان خالق المسكونة قسم الاشياء بين الناس بالقسط

فلم يعطِ احداً اكثر من غيره ، ولهذا لا بد من نظام يتساوى فيه عدد النساء ومقدار الاراضي التي يملكها كل شخص، ويكون من مقتضاه ان من يملك اراضي واسعة لا يستطيع ان يقول اني لا اعطي منها شيئاً لغيري ومثله من يملك عدة نساء لأن النساء مشاعة (بين الناس) أي ان امرأة الواحد تخص الآخر وامرأة هذا الآخر تخص من يجب ان يأخذها » (١) ونقل ابو منصور البغدادي عن غيره بلا تدقيق ولا تحقيق ان للبابكية في جبلهم ليلة عيد يجتمعون فيها على الخمر والزمر وتختلط فيهـا رجالهم ونساؤهم فإذا أطفئت سرجهم ونيرانهم افتض فيها الرجال النساء على تقدير من عزّ بزّ (٢) » وهذا يشبه ما نقله الشهرستاني (٣) وغيره من الكتبة المتأخرين الذين لم يروا ولم يسمعوا لا المزدكيين ولا البابكيين بل كانوا يرددون أقوال من سبقهم من الكتبة المتغرضين نذكر منهم أبا الفرج العبري (١٢٨٦) الذي أورد في كلامه عن سنباط بن مهل أحد بطارقة ارمينيا الذي قبض على بابك وسلمه لأفشين بعد ان خدعه وأهانه وهتـك حرمة امرأته وامه واخته « ان بابك الملعون كذا كان يفعل بالناس اذا

---

١ – A. Christensen ,le règne du roi Kawadh P. 73

٢ – الفرق ص ٢٥٢

٣ – كتاب الملل والنحل ج ١ ص ٢٩١

أسرهم مع حرمهم (١) . وهناك فئة اخرى من الكتبة، وجلهم من المتأخرين البعيدين عن زمن الحركة البابكية ، كانوا يحشرون أشياع بابك « بين اللصوص وأصحاب الفتن وقطاع الطريق والخرّاب والذعار » ويختلقون عنهم مثل هذه الاعمال، ويطلقون عليهم هذه الالقاب إما عمداً ليثيروا عليهم الرأي العام والجهلة وأهل التعصب الديني والقومي وإما لجهلهم الحقيقة وتأويلهم بعض عادات القوم تأويلًا يتفق مع ما آلفوه من النظر الى الامرأة في أعصر الجهل والانحطاط الأدبي . ومن الاسباب التي استدرجت بعض الكتبة المتأخرين الى الخطأ في الحكم على آداب البابكيين وأخلاقهم انهم نسوا أو تناسوا أن بابك وأتباعه كانوا يدينون بدين زرادشت مع تغيير ضعيف طرأ عليه تحت تأثير النصرانية والاسلام، وان هذا الدين لم يكن ليمنع الزواج بين الأخ واخته كما كانت الحال عند البطالسة في مصر مثلًا وبين الأقربين ممن حرم الاسلام الزواج بينهم . ولما كان هذا النكاح «رجساً من عمل الشيطان» في نظر المسلمين كانوا ينسبونه دائماً إلى التهتك والخلاعة والمرح حتى أن بعض كتبة العرب ومن أخذ عنهم من علماء أوروبا (٢) اشتق كلمة خرمين ــ وهو اسم أصحاب بابك المتغلب عليهم ــ من كلمة خرم وهو المرح في الفارسية ، وهذا غير صحيح لأن

---

١ ــ تاريخ مختصر الدول ص ٢٤١ و كتاب البدء والتاريخ م ٦ ص ١١٧

٢ ــ مقالة Flügel عن الخرمية في مجلة ZDMG م ٢٣ ص ٥٣٢ ــ ٥٣٣

الكلمة أخذت من خرم وهو اسم محل معروف في أذربيجان .

ثم يظهر لي أن هناك سبباً آخر لاساءة الظن في البابكيين ومبادئهم الأدبية وشدة الطعن فيهم ولا سيما من قبل بعض الكتبة البعيدين عن زمن الحركة على اختلاف اديانهم وقومياتهم(١) وهو أن جماعة من أهل الدعارة والتلصص (٢) انضمت إلى شيوعيي أذربيجان ابان الحرب وايام نجاحهم لا لأنها كانت تمت إليهم بنسب مبدئي أو لأنها كانت تدرك غاياتهم السامية بل لاغراض سافلة معلومة . والأرجح أن هذه الجماعات كانت تفرقت ـ بعد أن فشل بابك وقضي على حركته الشيوعية سنة ٨٣٨ ـ في المقاطعات الشرقية وأخذت تنهب وتقتل السابلة باسم البابكية والبابكيون منهم براء .

نحن نرجح أنه كان للبابكية ليلة عيد يجتمعون فيها في جبالهم على الخمر والزمر كما اننا لا ننكر انهم كانوا ينكحون الاخوات وبعض ما حرم الاسلام نكاحه . أما انهم كانوا يفتضون في تلك الليلة النساء على تقدير من عزّ بزّ ويأتون المنكرات والمحرمات على الاطلاق فهذا ما لا نصدقه لأنه يخالف ما نعلمه من مبادئهم الادبية ويناقض تعاليمهم الدينية

---

١ - ومنهم ميخائيل السرياني ج ٣ ص ٥٠ وصاحب البدء والتاريخ ص ١١٧

٢ - من اسمائهم الواردة عند مؤرخي العرب : اصحاب الفتن . القطاع . الخراب الذعار الخ ...

التي اخذوها عن زرادشت ومزدك وبنوا عليها آراءهم الاجتماعية فقد عرف عن أصحاب مزدك انهم كانوا في عيشتهم اليومية وعلاقاتهم مع بعضهم ومع غيرهم من الناس أقرب الى الزهاد والنساك منهم الى اصحاب الاحزاب الاشتراكية او الاجتماعية.

قال A.Christensen في كتابه المذكور سابقاً ان « أهم شيء عند المزدكيين وعند المانيين (اصحاب ماني) ان يبتعد الانسان عن كل ما يربط روحه بالمادة . ولهذا كانوا يحرمون على أنفسهم أكل لحوم الحيوانات وأشياء اخرى لا تأكلها الزهاد » (١). والمزدكيون لم يكونوا يأكلون لحوم الحيوانات لاعتبارات اخرى منها ان ذلك يضطرهم الى ذبح هذه الحيوانات، وقتل الحيوانات على الاطلاق كان ممنوعاً كما هو معروف عندهم لأنهم كانوا يعتقدون ان في قتلها مانعاً لتحرير أرواحهم من السجن المادي الذي هو الجسم ، فان مزدك حرّم عليهم العداوة والبغض والنزاع ودعاهم الى المساواة وكان يقول ان أصل البغض والاختلاف بين الناس هو التفاوت في الدرجات الاجتماعية » (٢) . وقد عرف عن ماني انه كتب الحصر على الطبقة العالية من أشياعه وهي « طبقة المؤمنين » او « المختارين » وأمرهم ان لا يذخروا من المؤونة إلا ما يكفيهم يوماً واحداً ومن اللباس ما يكفيهم

---

١ — Le Régne etc ص ١٠٣

٢ — .. Le régne etc ص ١٠٣ — ١٠٤

سنة . وكذلك عرف عن مزدك وبابك وأصحابهما انهم كانوا يميلون الى الزهو والتنسك . بناء على ذلك نستطيع ان نقول ان هذه المبادىء وهذا النظام كانت متبعة ايضاً عندهم أو على الاقل عند الطبقة الراقية المسؤولة، إلا انه لم يكن ليخفى على زعماء المذهبين المذكورين ان عامة الناس لا تقدر ان تكبح شهواتها وتتغلب على أميالها السافلة التي كانت ولا تزال تدفع الناس الى تملك الاراضي - وهي وقتئذٍ اعظم مصادر الثروة - والنساء أو على الاقل امرأة واحدة محبوبة، إلا اذا أرضوا هذه الاميال وأطلقوا لها الحرية التامة .

على مثل هذه الاعتبارات ترتكز نظرية المزدكية وخلفائهم في الدعوة الشيوعية . وعن هذه الافكار صدرت تعاليمهم الاساسية القائلة « بان الموجود الاعلى وهب الناس جميع وسائل الحياة بسخاء لكي يقتسموها بالقسط حتى لا يكون لأحد اكثر من غيره لأن عدم المساواة هو نتيجة الاغتصاب وما الاغتصاب إلا محاولة بعض الناس إرضاء شهواتهم على حساب غيرهم مع ان الطبيعة والعدل يقتضيان ان لا يكون لأحد اراضي أو عقار او نساء اكثر مما لغيره . وعلى ذلك يجب، عند اختلال هذه القاعدة، ان يؤخذ من الغني المغتصب ما يزيد على حاجته ويعطى المحتاجين ليعود الناس الى المساواة الاصلية وان يكون الملك والنساء شائعة كالماء والنار

والمراعي ... هذا هو العمل الطيب الذي يرضي الله ويجازى المرء عليه أضعافاً . ولكن هب انه لم تنزل في ذلك اوامر من الله أفليس سنّة التعاون بين الناس ومصالحهم العامة تكفي لأن يسيروا في الطريق المذكور الذي يعود عليهم بالنفع وإرضاء الله » .

لا شك في ان من آراء مزدك وخليفته بابك في المرأة الايرانية وحالتها الاجتماعية على التعميم ما كان من شأنه أن يبعث في بعض الناس وعلى الاخص في الطبقات السفلى وطبقة المتعصبين بعض الشك في آداب شيوعيي قراطاغ ويحملهم على إتهامهم بالتهتك و « تحليل المحرمات » . إلا إنا قد تبينا ما لهذه الافتراءات من الصحة وانها تناقض مبادئهم الادبية الاساسية وشهادة النساء المسلمات فيهم . ويسرنا الآن ان نقول ان بعض كتبة المسلمين والمسيحيين ، ممن لم يعمِ الغرض أبصارهم أو ممن وفقوا الى الوقوف على الحقيقة بانفسهم إما لقرب عهدهم بالحركة البابكية أو لأنهم كانوا طلاب حقائق لا ترهات ونكات ترضي ذوق الطبقات المنحطة من معاصريهم ، ذكروا عن البابكية أشياء تؤيد رأينا فيهم وتنفي اموراً كثيرة تنسب اليهم ظلماً وبهتاناً . فمن هؤلاء الكتبة المطهر المقدسي صاحب كتاب « البدء والتاريخ » الذي يشهد انه رأى بعينه « بين الخرميين في ديارهم ماسبدان ومهرجان قذف ... من يقول بإباحة النساء على الرضى منهن وإباحة

كل ما يلذ النفس وينزع اليه الطبع ما لم يعد على أحد بضرر » (١) وذكر فويق ذلك انه وجدهم « في غاية التحري للنظافة والطهارة والتقرب الى الناس بالملاطفة وبتقديم الصنيعة ».
وقال قبل ذلك ـ وفيه من الادلة على تساهلهم في المسائل الاعتقادية وإتساع صدورهم في امور الدين ما لا نكاد نجده عند أحد غيرهم من أصحاب الملل والنحل ما حرفه « ويزعمون ان الرسل كلهم على اختلاف أديانهم وشرائعهم يحصلون على روح واحد وان الوحي لا ينقطع ابداً وكل ذي دين مصيب عندهم اذا كان راجي ثواب وخاشي عقاب ولا يرون تهجينه والتخطي اليه بالمكروه ما لم يرد كيد ملتهم وخسف مذهبهم، ويتجنبون الدمـاء جداً إلا عند عقـد راية الخلاف » (٢).

اذن لم يكن بابك يدعو الى التهتك وتحليل المحرمات ولم يقصد بقوله « ان الناس شركاء في الأموال والنساء » إباحة الجماع، بل أراد ان يقول إن المرأة ما للرجل من الحقوق والواجبات العائلية فلها أن تختار من الرجال من أحبت لا من أحب ساداتها او اقاربها، ولها ان تتصرف في ما تملك كما يوحيه اليها قلبها وعقلها ومصلحتها الشخصية. وكل هذا أقرب

---

١ ـ المجلد الرابع ص ٢٤

٢ ـ المجلد الرابع ص ٢٤ وقال في اختلاف الناس في مذاهب الخرمية ما حرفه : « فكل يصف من مذاهبهم ما لا يحكيه الاخر مع انكار هذه الطائفة حكاية من ذكرنا وتركهم الاعتراف بها » ص ٣٩١

الى الحقيقة مما يعزوه اليهم خصومهم في المبدأ . أما ما ذكره بعض المتأخرين من مؤرخي العرب والسريان من انهم كانوا يتلصصون ويقتلون الناس من غير مذهبهم وانهم كانوا « يخرجون على الناس فلا يدعون رجلا ولا امرأة ولا صبياً ولا طفلا من قريب وبعيد إلا قطعوه وقتلوه ... ويقتلون من أصابوا من الناس من أي صنف كان صغيراً كان او كبيراً مسلماً او ذمياً حتى مرن الناس على القتل وانضوى اليه (الى بابك) القطاع والخراب والدعار وأصحاب الفتن وأرباب النحل الزائفة » (١) فهذا أما مختلق عنهم وإما راجع الى ايام الحرب وإما انه كان من عمل اولئك « القطاع والخراب والذعار وأصحاب الفتن » الذين انضموا لمآرب شتى الى البابكيين ولم يكونوا على مبادئهم الادبية والاجتماعية ابداً . ولولا ذاك لعجزنا عن التوفيق بين هذه الاقوال وما ذكره عنهم المطهر المقدسي وما نعلمه عن مبادىء البابكية والمزدكية مما أتينا على بعضه فوق هذه السطور .

هذه بضع شهادات في حق أصحاب بابك وأتباعه يستنتج منها ان برنامجها لم يكن يحتوي إلا على مبادىء اجتماعية بسيطة مفهومة ومطالب عادلة ترمي إلى ازالة الشروط المبني عليها انقسام الناس إلى طبقات متعادية متطاحنة وتدعو إلى المساواة في الحقوق والواجبات ولا سيا حقوق التملك بين جميع الناس على

---

١ - البدء والتاريخ ج ٦ ص ١١٦ - ١١٧

اختلاف اديانهم وتعمل على قتل عوامل العداوة والبغض وتقوية عرى المحبة والاخاء الحقيقي بينهم . واما ما زاد على هذا فلم يكن إلا من قبيل الوسائـل التي كانوا يستعينون بها على الوصول إلى غايتهم الكبرى وهي قلب الهيئة الاجتماعية في ذلك الوقت وبناؤها على أسس جديدة .

أشرنا في ما سبق إلى القوى المادية والمعنوية التي أعدها بابك في جبال قراطاغ قبل أن يعلن الحرب على خليفة بغداد أو بالاحرى على النظام الاجتماعي العباسي ،ثم ذكرنا شيئاً من العوامل التي ساعدت البابكيين على الوقوف أمام عدوهم القوي أكثر من عشرين سنة . ولقد كنا نود ـ لو سمحت لنا مصادرنا الكتابية ـ أن نبين للقارىء كم قضى زعيم Andarzgar الشيوعية في أذربيجان من الزمن في اعداد لوازم الحرب والاستعداد لعمله الكبير ، وما هي لوازم الحرب التي أعدها ، والاساليب التي اتبعها في الهجوم والدفاع ، إلى غير ذلك من الأسباب الخارجية التي رافقت هذه الحرب الطويلة . إلا أن كل ما نعلمه من شؤون هذه الحرب يكاد ينحصر في أمر واحد وهو أن أصحاب بابك كانوا يقاتلون قتال الأبطال ، قتال من كان يدافع عن مبدإ واعتقاد راسخ في النفوس وآمال حلوة له لا قتال المأجورين المرغمين ، وانه لم يسمع عن احدهم خيانة أو ضعف كل هذه المدة الطويلة بخلاف ما نعلمه عن جيش وقواد عدوهم .

ابتدأت حركة البابكيين في صيف سنة ٨١٦ أو ٨١٧ على حدود جمهورية أذربيجان الحاضرة التابعة لمجموع الجمهوريات الروسية أو بالاحرى الداخلة فيه ، أو على حدود أذربيجان واران وبيلقان القديمة حيث كانت مدينة بذ أو بذين مركز اركانهم الحربي (١) الواقعة في الغرب من نهر اراكس او الرس كما كانت تسميه العرب . ثم أخذت هذه الحركة تقوى وتمتد بسرعة نادرة حتى عمت . كما يستفاد من كلام المسعودي ، « نواحي أصبهان والبرج وكرج ابي دكث والزين زز معقل وزردلف ورستاف الدرسنجان وقسم وكوذشت من أعمال الصيمرة من مهرجان قذف وبلاد السيران واربوجان من بلاد ماسبذان وماه الكوفة وماه البصرة وأذربيجان وأرمينية وقم وقاشان والرق وخراسان وسائر أرض الاعاجم » (٢) فكان عدد من انضم تحت ألويتهم الحمر نحو ثلثمائة الف مقاتل من أذربيجان والديلم فقط (٣) . فلما شعروا بقوتهم هبطوا من الجبال وأخذوا يزحفون الى البلاد المجاورة ويضمون اليهم جميع المستائين وحكومة بغداد لاهية عنهم أو غير قادرة على إيقافهم عند حدود معلومة ،

---

١ – قال ياقوت الحموي « وفيه (اي في بذين) تعقد اعلام المحمرة لمعروفين بالخرمية » ج ٢ ص ٥٢٨

٢ – كتاب التنبيه والاشراف ص ٣٥٤

٣ – كتاب الفرق بين الفرق ص ٢٦٨

لانها كانت مشغولة وقتئذٍ باخماد الثورات التي ظهرت في مصر والعراق وبلاد العرب ورد هجمات الروم من الشمال كما ذكرنا سابقاً ، ولهذا لم تلتفت اليهم إلا في سنة ٢٠٤ (٨١٩) أي بعد ثلاث سنوات من ابتداء الحركة فأخذت تبعث عليهم الجند وهم يمزقونها ويأسرون بعضها ويقتلون قوادها الى ان دخلت سنة ٣١٢ – (= ٨٢٠) .

ذكر الطبري في كلامه عن حوادث ٨٢٠ ما حرفه : « نكب بابك بعيسى بن محمد » (١) وذكر بين حوادث ٢٠٩ « ولى المأمون صدقة بن علي المعروف بزرديق ارمينية وأذربيجان ومحاربة بابك فأسره بابك فولى ابراهيم بن الليث بن الفضل التجيبي أذربيجان ». وقال عن حوادث سنتي ٢١٢ و ٢١٤ « وجه المأمون محمد بن حميد الطوسي الى بابك لمحاربته عن طريق الموصل وقتله ... وقتل محمد بن حميد الطوسي قتله بابك بهشتاد سر يوم السبت ... وفض عسكره وقتل جمعاً كثيراً ممن كان معه » فكان لهذا الانكسار وقع شديد على المأمون وحكومته وبعض قواد الجيش الخليفي الذين ابتدأوا يترددون من ذلك اليوم في إخلاصهم لخليفتهم ويفكرون في الانضمام الى بابك ، نذكر منهم على سبيل المثال علي بن هشم الذي اطلع على خيانته عميرة بن عتبة فقبض عليه وسلمه الى الخليفة ولولا ذلك

---

١ – انظر تاريخه ج ١٠ ص ٢٥٥ و ٢٦٩

للحق ببابك وهو يومئذ صاحب الامر والنهي في اكثر الاقاليم الفارسية حتى صار الناس يخشون بأسه ويطلبون وده حتى في العراق بل في بغداد نفسها فصار يخشى منه على الدولة والدين .

قال المسعودي يصف حالة البلاد في تلك الايام العصيبة :

« ثم حمل الرأس (رأس بابك) الى مدينة السلام وحمل الى خراسان بعد ذلك يطاف به كل مدينة من مدنها وكورها لما كان في نفوس الناس من استفحال امره وعظم شأنه وكثرة جنوده واشرافه على إزالة ملك وقلب ملة وتبديلها » (ج ٢ ص ٣٥٢ طبع سنة ١٣٤٦) .

فكان من نتائج هذه الانتصارات الباهرة التي نالها بابك في السنين الماضية ان دخل اليأس قلوب عساكر الخليفة وقوادها فلم تعد تثق بنفسها ولم يعد الخليفة يثق بها ، فلم يبق لديه إلا احد أمرين : إما ن يترك البلاد لعدوه ، وإما ان يسرح جنوده القديمة التي لم تعد تصلح للقتال ويحشد جيشاً جديداً تحت قيادة أشهر قواده وأعظمهم خبرة في شؤون الحروب الجبلية ليبث فيه روحاً جديدة ويدربه على قتال اعداء الدولة ونظامها الاجتماعي في جبالهم الوعرة ، وهذا ما استقر عليه رأيه وأخذ يعمل على تحقيقه ولو لم يتوفه الله بغتة لأتمه بنفسه .

توفي المأمون وفي قلبه حسرة مما اصابه من الفشل في حروبه مع بابك ومن خوفه على زوال دولة كان من أعظم خلفائها ، فلما شعر بدنو أجله دعا اليه أخاه المعتصم وألح عليه ان يداوم على حرب البابكية « بجزامة وصرامة وجلد » ثم أشار عليه ان يمد عامل اذربيجان « بالاموال والسلاح والجنود من (١) الفرسان والرجالة » وان يتجرد له بمن معه من الانصار والاولياء وان طالت المدة (٢) . فلما تولى المعتصم زمام الملك رأى من الحكمة ان يعقد هدنة مع امبراطور الروم ثم استدعى من افريقيا حيدر الافشين بطل برقه وسلمه قيادة الجيش وتدريبه على الطرق الجديدة التي اقتضتها الحروب الجبلية ، وأمره أن يستعد للزحف على العدو ، فأخذ حيدر يهيء ما أمره به سيده وبينما هو في ذلك اذ جاءته الاخبار ان اسحاق بن ابراهيم بن مصعب احد قواد الخليفة المخلصين والمعروفين بالعزم واصابة الرأي كسر جيش بابك (٣) واضطر فلوله الى الهرب الى بلاد الروم حيث تنصروا ودخلوا في خدمة امبراطور القسطنطينية ، إلا ان هذه الضربة لم تكن بالضربة القاضية على بابك وجيشه لأن القسم الاكبر من عساكره كان مقيماً في اذربيجان او

---

١ - الطبري ج ١٠ ص ٢٩٤

٢ - الطبري ج ١٠ ص ٢٠٤ - ٢٩٥

٣ - الطبري ج ١٠ ص ٢٠٥

على الاصح في اران حيث كان مركز الجيش العام واركان الحرب ، وعليه كان في وسع بابك ان يلم شعثه ويجمع قواه قبل ان يفاجئه الافشين بجيوشه الجديدة . الا ان القائد التركي لم يمهله ذلك بل زحف عليه في ٢٨ جماد الاول (= غرة تموز سنة ٨٣٥) على رأس جيش كبير مؤلف من اتراك وبرابرة ومتطوعة البصرة والعراق وأخذ يتقرب من عاصمة بابك التي اعتصم بها هو وأكثر جيشه ويسيّر عليه كل يوم من مدينة برزند ، وهي المدينة التي بناها في الجبال بالقرب من عاصمة بابك ـ الجند تلو الجند من خيالة ورجالة وكوهبانية وكلعرية ونفاطية.

مضى على وصول حيدر الافشين الى بلاد بابك اكثر من سنتين وهو يراقب فيها خصمه ويتتبع اثاره ويتفهم طرقه الحربية حتى أدرك سر نجاحه ووقف على مواضع القوة والضعف منه فأخذ يواقعه على أمل ان يظفر به ويقضي عليه وقد كاد يتم له ذلك في موقعة ارشاق (١) من عملي اران سنة ٨٣٦ إلا ان بابك أفلت منه وانسحب الى صحراء مدغان ومنها الى هشتادسر حيث انقض في العام الآتي على مقدمة جيش الافشين التي كان يرئسها بغا الكبير ، أحد

وفيها قال ابو تمام :

يا يوم ارشق كنت رشق منية   للخرمية صائب الآجـــال

القواد المشهورين ومزقها شر ممزق . فلما بلغ الخبر افشين زحف بنفسه على بابك وأخذ يتعقبه حتى التقى به فكانت بينهما موقعة انكسر فيها بابك . ثم لحق حيدر بأحد قواده المدعو طراخان فقتله وكسر جيشه وكذلك فعل سنة ۸۳۷ بأذينه قائد بابك الثاني فكانت هذه الضربة الاخيرة أعظم الضربات على بابك وأصحابه لأنه فقد في الموقعتين الاخيرتين ميمنة جيشه وميسرته فلم يبق عنده من العساكر إلا ما كان تحت قيادته ، فاضطر ان ينسحب من ساحة الحرب ويلجأ الى قلعته في بذين حيث أقام عدة اشهر يدافع عن نفسه وأصحابه دفاع الابطال الى ان نفذت مؤونته وخارت قواه فاضطر ان يترك عاصمته ليلًا ويحاول ان يدخل مختفياً بلاد الروم ليطلب مساعدة صديقه الامبراطور ثيوفيل ، فخانته الاقدار بل اخانه أحد بطارقة الارمن سنباط بن منهل صاحب شكي الذي امتاء منه بابك فقبض عليه وعلى أخيه عبدالله ومن كان معهما من الاهل والاصدقاء وسلمهم جميعاً ، بعد ان منهم ، الى رسول الخليفة فكان من امرهم والتمثيل بهم ما هو معروف .

ذكر بعض المؤرخين (۱) انه لما انتشر خبر سقوط عاصمة بابك في أيدي المسلمين ووقع بابك في الاسر (۲)

---

۱ - انظر كتاب البدء والتاريخ ٦ : ١١٨ ومروج الذهب للمسعودي وغيرهما .

۲ - كان يوم الجمعة لاربع عشرة خلت من رمضان سنة ۲۲۳ (۷۳۸)

« ضج النـاس بالتكبير وعمهم الفرح وأظهروا السرور » وصارت سكان بغداد وسامرا تتصافح في الشوارع « فكان ذلك من اعظم الفتوح في الاسلام ويوم قبض عليه كان عيداً للمسلمين » فرفع المعتصم قدر الافشين وتوجه وألبسه وشاحين منظومين بالدر والجوهر وسوّره سوارين ووصـله بعشرين الف درهم وأمر الشعراء بمدحه وجعل صلتهم عنده » . ولا غرابة في ذلك فان بابك اراد كما يقول المسعودي « ان يزيل ملكاً ويقلب امة ويبدلها » .

ذكر المؤرخون انه لما وصل بابك الى بغداد أمر المعتصم فانزلوه في قصر الافشين بالمطيرة وهناك زاره الخليفة متنكراً (انظر تاريخ الطبري ١٠ : ٢٣٢) وعرض عليه بعض اسئلة لا أظنها إلا من مختلقات المسعودي الذي هو في تاريخـه اقرب الى جامع نكات وحكايات منه الى مؤرخ صادق لا تهمه إلا الحقائق الثابتـة ، كأني بالمعتصم اراد في زيارته لبابك ليلاً ان يرى بعينيه ذلك الرجل الذي كاد يقضي على دولته ويقيم على انقاضها دولة جديدة اساسها العدل والاخاء والمساواة .

زار المعتصم عدوه الاكبر ثم عاد إلى قصره حيث كان ينتظره وزراؤه وقائد جيشه العام ، ليفكر معهم في شر قتلة يقتلون بها اسيرهم الضعيف الذي كان يطلق اسراهم بالالوف

ويعطف على نسائهم واولادهم ، فلما جاء الصباح اخذت الناس تهرول إلى رأس الجسر ليروا « عدو الدولة والدين » مصلوباً هناك حتى إذا جن الليل انزلوه عن الصليب ثم قطعوه ارباً ارباً وارسلوا رأسه إلى سائر البلدان ثم جاؤوا باخيه وبعض اصحابه المقربين فقتلوهم صبراً بعد ان قتلوا عشرات الالوف في بذّين بصورة تقشعر منها الابدان . ثم لم يمضِ على ذلك زمن طويل حتى قبضوا على حيدر الافشين واودعوه السجن حيث مات مسموماً لخيانة ظهرت منه كما ذكرنا سابقاً أو لاسباب اخرى لم يذكرها المؤرخون .

مات بابك فماتت معه حركته الاشتراكية في أذربيجان وما يجاورها من البلاد . إلا ان الافكار التي حاول أن ينشرها بين قومه ويحققها لم تمت بل بقيت تنتشر في الخفاء ، كما كانت تنتشر قبل ذلك ، إلى اواخر الجيل الحادي عشر . فقد ذكر المقدسي ـ وهو من كتبة الجيل العاشر ـ انه زارهم في بلادهم ورأى بعينه «ان ليس في بلادهم مساجد وانهم لا يقيمون احكام الاسلام » .

وقال ابو منصور البغدادي في الجيل الحادي عشر ان البابكية « قد بنوا في جبلهم مساجد للمسلمين يؤذن فيها لهم وهم يعلمون اولادهم القرآن الكريم لكنهم (١) لا يصلون في السر

---

١ ـ انظر كتاب الاستاذ بارتولد عضو اكاديمية بطرسبرج العلمية « لمحة تاريخية وجغرافية عن ايران » ص ١٤٩

ولا يصومون في شهر رمضان ولا يرون جهاد الكفرة » (١) .

بقي علينا الآن ان نتساءل عن الاسباب التي ادّت إلى فشل هذه الحركة الاشتراكية وقد كان يظن انها سوف تتغلب على الصعوبات التي اعترضتها في طريقها .

ان اسباب الفشل كثيرة منها خارجية ومنها داخلية ترجع إلى البابكيين انفسهم وأهمها في نظري ان البابكيين حصروا دعوتهم في الامة الايرانية ولم يشركوا فيها الامة العربية ولا التركية وهما يومئذ اعظم الأمم الاسلامية .

ثم هناك سبب آخر لا يقل خطورة عن الاول وهو ان كثيرين ممن التف حول راية بابك وحارب في السنوات الاولى معه لم يكن يهمهم من هذه الحركة الفكرية إلا النكاية بالسلطة الحاكمة والانتفاع منها فلم يكونوا يفهمون الغاية الكبرى من هذه الحركة بل كان بينهم من لبى دعوة بابك طمعاً بالحصول على منافع مادية لم يكونوا لينالوها إلا من وراء الثورات والحروب الاهلية واكثر هذا الفريق كان من الكرد .

هذه وغيرها من الاسباب ساعدت على قتل الحركة البابكية وفشلها الا ان البذور التي القاها بابك واصحابه وقعت في أرض طيبة خصبة انبتت نباتا حسناً في وقته كما سنرى في الفصول الآتية .

---

١ – الفرق .. ص ٢٥٢

الفصل الرابع

الاسماعيلية

قلنا ان الباكيين غلبوا على امرهم وماتوا كحزب اشتراكي ، إلا انهم عاشوا إلى ايام سلجوق ومن ورثهم من سلاطين خوارزم كنحلة دينية لا أهمية لها كبرى ، مما جعل حكومة بغداد لا تهتم لهم ولا تخاف منهم فتركتهم وشأنهم أو وكلت بهم رؤساء الدين واصحاب المقالات الدينية يطعنون في مذهبهم ونظامهم ويفترون عليهم الاكاذيب ويحرضون عليهم احيانا أهل الجهل والتعصب ، فاضطروا ان يتستروا ويخفوا دعوتهم وأن ينشروها بطرق خفية ، شأن كل دين أو فكر اجتماعي ممنوع مضطهد ، فاصبحوا لذلك أشد خطراً على الحكومة والاسلام مما كانوا عليه قبلاً يوم كانوا يدعون الناس إلى مبادئهم علناً . ولهذا لم تذهب اتعابهم وحركتهم سدى بل قد استفاد منها ومن اغلاطهم اناس كثيرون نخص منهم بالذكر الاسماعيلية أو الباطنية وهم أقرب

الناس إلى البابكية في العقيدة والغاية وأشدهم تعلقاً بالمبادىء الاشتراكية كما يتضح ذلك لكل مفكر عاقل مما سنذكره فيما بعد عن الحركة الاسماعيلية وتعاليمها ومما كتبه كتبة الشرق والغرب عن الباطنية والاسماعيلية وما بينهما وبين شيوعيي قراطغ من القرابة المعنوية .

رأينا ان من اسباب الفشل الذي اصاب بابك واصحابه هو عدم استعداد أكثر سكان دولة بني العباس لقبول النظام الاشتراكي الذي اراد بابك أن يدخله في ذلك العصر ، وان البابكية اقتصروا في نشر دعوتهم الاشتراكية على فئة قليلة من الناس كادت تكون محصورة في قطعة من جبال آران وأذربيجان أي بين القبائل الايرانية فقط . اما العرب ـ وهم اصحاب السلطة واكثرية البلاد ـ فلم يفطن بابك أو لم يجرأ على استمالتهم إلى مذهبه ولا اعتنى ببث افكاره بينهم . ومثل ذلك يقال عن الترك والبربر وهم وقتئذ « مادة الاسلام وجيشه المنظم » كما دعاهم الجاحظ (١) بل ان قسماً كبيراً من الامة الفارسية لم يدخل في دين بابك ولا هو اهتم لدعوته أو هبّ لمساعدته بالقوة. اضف إلى ذلك ان بابك وجماعته لم يفكروا ابداً في هدم الدين الاسلامي وآدابه التي كانت تستند عليها الدولة العباسية وكانت مصدر قوتها الحقيقي فكأن بابك كان يعتقد انه يكفي لنجاح عمله الموجه إلى هدم النظام المبني على توحيد مصالح اصحاب

١ ـ انظر رسالته في محاسن الاتراك (طبع Von Floten في ليدن)

الاراضي والثروة واقامة نظام جديد محله أن يبث افكاره بين طبقة من الناس أو امة من الأمم فقط. وقد غاب عنه انه مهما كان لافكاره الجذابة من حسن التأثير على السامعين فلا يكفي هذا وحده للوصول إلى الغاية المطلوبة، وانه لا بد لذلك من تعميم الدعوة واتخاذ وسائل اقوى من التي اتخذها هو واضمن للنجاح وهذا ما انتبه إليه لأول مرة في تاريخ الاسلام جماعة عبد الله بن ميمون القداح أو الاسماعيليون على الاطلاق، فانهم قد رأوا بعد درس شؤون الدولة العباسية درساً وافياً ـ انه لا بد للقضاء عليها وعلى نظامها الاجتماعي من بث الدعوة الاشتراكية الجديدة بين جميع الامم والطبقات والاديان المؤلفة منها دولة المنصور وقتئذٍ كما لا بد من جمع كلمة جميع المستائين من حكم خلفاء بغداد واثارة عواطف البغض فيهم عليهم ثم دك تلك الاسس التي كانت قائمة عليها الدولة المذكورة واهمها الدين والأدب والعاطفة القومية أو ما كان يقوم وقتئذ مقامها. لكن كيف السبيل إلى ذلك ودونه من الصعوبات ما لا يخفى على احد؟ وهل من سبيل إلى توفيق ما لا يوفق من مصالح طبقات الناس المتباينة؟ أو هل من المستطاع ان تجتمع تحت راية واحدة احزاب واديان واقوام متباينة متطاحنة، وتوفق في بروغرام واحد بين نزعات واغراض سياسية واجتماعية متضادة؟ تلك مسألة المسائل واعظم مشكلة عرفها التاريخ ومع ذلك فان الاسماعيليين قد عالجوها، وبعد محاولات عديدة وفقوا إلى حلها حلاً لم يسبقهم إليه غيرهم لا في الشرق ولا في الغرب، وهذا

تاريخ الانسانية كله يشهد شهادة صادقة على انه لم يقم حتى اليوم وارجح انه لن يقوم في المستقبل حزب أو دين أو مذهب أو جمعية أو شركة تضم تحت لوائها الغالبين والمغلوبين واصحاب الافكار الدينية الحرة الذين ينظرون إلى الدين نظرهم إلى لجام ضروري للطبقات السفلى من الناس فقط ، والمتعصبين للدين من جميع الطوائف ، وتتخذ المؤمنين واسطة لنقل السلطة إلى الكافرين ، وتستعمل الغالبين آلة لهدم ما بنوه من الملك وتسليمه إلى غيرهم ، ثم هي تؤلف حزباً كبيراً متلاحماً مطيعاً تستند عليه لوضع تاج الملك عند سنوح الفرصة ، ان لم يكن على رأس مؤسس ذلك المذهب فعلى رأس احد خلفائه ؟

هذه كانت غاية عبد الله بن ميمون الاساسية وهذه كانت افكاره وهي كما ترى ، افكار غريبة مدهشة جريئة قد ساعده على تحقيقها دهاؤه النادر ولباقته الغريبة ومعرفته العميقة لقلوب الناس (١) .

لو فتشت صفوف الاسماعيليين لوجدت حقيقة بينها ممثلي جميع الامم الخاضعة يومئذ لخلفاء بغداد من عرب وعجم وكرد واتراك الخ وجميع الاحزاب السياسية والاجتماعية من اصحاب اليمين إلى اصحاب اليسار ، ولرأيت بينهم الفوضويين والشيوعيين على اختلاف نحلهم ومبادئهم ، وممثلي جميع الاديان والمذاهب من

---

١ – انظر B . Dozy , Histoire des musulmans d'Espagne , III,8

أهل السنة والشيعيين المعتدلين إلى الملحدين والدهريين « الذين لا يؤمنون بشيء » .

نستنتج مما ذكر ان كلمة « اسماعيليون » التي كانت في باديء الامر تدل على احدى الفرق الشيعية المعتدلة صارت مع الزمن تدل على اصحاب مذاهب دينية مختلفة واحزاب سياسية واجتماعية متعددة وآراء فلسفية وعلمية متنوعة ، إلا ان هذا الاختلاف العظيم في المبادیء والآراء وهذا التباين الظاهر في المصالح بين الاحزاب والنحل الداخلة في مذهب الاسماعيليين لم تكن لتمنع اصحاب هذا المذهب من السعي وراء تحقيق غاية واحدة والوصول الى نتائج لم يصل اليها احد قبلهم ، وهذا من غرائب الامور التي لا بد لفهمها من الوقوف على شيء من تاريخ الاسماعيلية ونظامهم الداخلي ومبادئهم الاساسية .

الاسماعيلية جمعية سرية محضة لم يكن واقفاً على أغراضها وطرقها إلا زعماؤها الاقلون وقادة افكارها المقربون إلى زعيم هذه الجمعية وهم الذين وقفوا على اسرارها بعد ان قطعوا مراتب او مراحل التكريس المطلوبة منهم واقسموا القسم الغليظ (١) ان لا يبوحوا لأحد باسرار جمعيتهم . اما سائر اعضائها وهم الاكثرية فلم يكونوا يعرفون من امر هذه الجمعية إلا الشيء القليل الذي كانت تطلعهم عليه دعاة الجمعية المتوقف عليهم اختيار

---

١ - « والباطنية لا يظهرون دينهم الا لمن كان منهم بعد احلافهم اياه على ان لا يذكر اسرارهم لغيره » (انظر كتاب الفرق بين الفرق ص ٢٧٨)

الاعضاء وابتلاؤهم واعدادهم لتسنم الرتب السبع او التسع (١) التي كانت يومئذ عند الاسماعيلية . والمعلوم عن هؤلاء الاعضاء المتدئين انه لم يكن يؤذن لهم بالانخراط في سلك الجمعية إلا بعد ان يبلوهم الدعاة ويثبت لديهم انهم ذوو ثقة ولا خوف منهم ولا خطر وانهم أصبحوا قادرين على بث الدعوة الاسماعيلية والدفاع عن الجمعية بكل ما لديهم من الوسائل ومهما كلفهم ذلك من الاتعاب والاخطار ، ولهذا لم يكن الدعاة يقبلون في الجمعية المذكورة إلا أصحاب الارادات القوية والعقول السليمة ومن كان يحسن القراءة والكتابة . وكانوا اذا قبلوا احداً في جمعيتهم علموه ودربوه ثم أطلعوه على بعض اسرار مذهبهم حتى اذا بلغ المدعو درجة معلومة سمحوا له ان يقسم قسمهم المعروف وهذه صورته كما حفظت في كتاب ابي منصور البغدادي .

قال الكاتب المذكور : « واما ايمانهم فان داعيهم يقول :

---

١ — كان عدد الرتب في اول الامر سبعة ثم اصبح تسعة وكان لكل درجة اسم يلائم العلم الذي كان يتلقاه المدعو في تلك الدرجة ، وهذه اسماء الدرجات : التفرس . التأنيس . التشكيك . التعليق . الربط . التدليس . التأسيس . (الفرق ٣٨٢) وهذه الاسماء مأخوذة على ما يظهر لي من كتاب للاسماعيلية وليست مختلفة وتأدية القسم امام الداعي حقيقة لا ريب فيها اذ ورد ذكرها في غير كتاب ابي منصور البغدادي ، انظر مثلاً تأليف المستشرق الهولندي الشهير تحت عنوان : M De Goeje
Mémoire Sur Les Carmates De Bahrein , p. 172

« جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله وما اخذ الله تعالى من النبيين من عهدٍ وميثاق ان تستر ما تسمعه مني وما تعلمه من امري، ومن أمر الامام الذي هو صاحب زمانك وأمر أشياعه وأتباعه في هذا البلد وفي سائر البلدان وأمر المطيعين له من الذكور والاناث فلا تظهر من ذلك قليلاً ولا كثيراً ولا تظهر شيئاً يدل عليه من كتابة او إشارة إلا ما أذن لك به الامام صاحب الزمان او أذن لك في اظهاره المأذون له في دعوته فتعمل في ذلك حينئذ بمقدار ما يؤذن لك فيه . وقد جعلت على نفسك الوفاء بذلك وألزمت نفسك في حالتي الرضى والغضب والرغبة والرهبة » . فيجيب العضو المحلّف « نعم » ثم يقول له الداعي : « وجعلت على نفسك ان تمنعني وجميع من اسميه لك مما تمنع منه نفسك بعهد الله تعالى عليك وميثاقه وذمته وذمة رسوله وتنصحهم نصحاً ظاهراً وباطناً وألا تخون الامام واولياءه وأهل دعوته في أنفسهم ولا في اموالهم ، وانك لا تتأول في هذه الأيمان تأويلاً ولا تعتقد ما يحلها ، وانك ان فعلت شيئاً من ذلك فأنت بريء من الله ورسوله وملائكته ومن جميع ما انزل الله من كتبه ، وانك ان خالفت في شيء مما ذكرناه لك فلله عليك ان تحج الى بيته مئة حجة ماشياً نذراً واجباً وكل ما تملكه في الوقت الذي انت فيه صدقة على الفقراء والمساكين ، وكل مملوك يكون في ملكك يوم تخالف فيه او

بعده يكون حراً ، وكل امرأة لك الآن أو يوم مخالفتك أو تتزوجها بعد ذلك تكون طالقاً منك ثلاث طلقات. والله تعالى الشاهد على نيتك وعقد ضميرك في ما حلفت به »فيقول المحلف: « نعم ». ولا يقول نعم إلا إذا صح اعتقاده في دينه الجديد وعقد النية على ان يفي به مهما كلفه ذلك . ولا عبرة بما يتهمهم به ابو منصور من « انه ليس لايمانهم مقدار ولا حرمة وانهم لا يرون فيها ولا في حلها اثماً ولا كفارة ولا عاراً ولا عقاباً في الآخرة (ص ٢٩٠) اذ المعروف عنهم عكس ما يعزوه اليهم خصومهم ... لزعمائهم وتعلقهم بتعاليم ومبادىء الحزب التي اخذوها عن الدعاة .

ذكر ابن الاثير انه « جاء انسان إلى علي بن عيسى (وزير المقتدر) واخبره ان في جيرانه رجلاً من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب ابا طاهر (زعيم القرامطة في ذلك الوقت) بالاخبار ". فاحضره وسأله فاعترف وقال ما صحبت ابا طاهر إلا لما صح عندي انه على الحق وانت وصاحبك كفار تأخذون ما ليس لكم (١) ».

لا شك في ان الايمان المذكورة وما كان يتخذه الدعاة من وسائل التأثير على ارادة الاعضاء البسطاء وسير حياتهم اليومية كان من شأنه ان يربط هؤلاء الاعضاء رباطاً متيناً برئيسهم الاعظم وبعضهم ببعض ويجعلهم في ايدي الدعاة الخبيرين آلة

١ — ج ٨ ص ١٢٧ (من طبعة ليدن سنة ١٨٦٢)

صمّاء بل اجساداً لا حراك لها perindeac Cadaver يتصرفون فيها كيف شاؤوا وشاءت اهواؤهم وغاياتهم . ومن منا لم يسمع بجماعة الفدائيين أو الحشاشين — وكلهم من الاسماعيلية — الذين ذاع صيتهم في ايام الصليبين والسلجوقيين واشتهر عنهم انهم كانوا يقدمون على اعظم الامور خطراً ويضحون نفسهم حباً بالمصلحة العامة واطاعة رؤسائهم الروحيين ومع ذلك إلا لانهم كانوا على اعتقاد تام باخلاص زعمائهم وصدق ايمانهم وانهم هم وحدهم على الصراط المستقيم فكان هذا الايمان الراسخ في قلوبهم يأتي بالمعجزات وينشر الرعب في قلوب اعدائهم . ومعلوم انهم لم يكونوا ليبلغوا هذه الدرجة من الايمان وهذه الطاعة العمياء لزعمائهم إلا بعد رياضة عقلية طويلة وبعد ان يتدرجوا من رتبة إلى رتبة اعلى منها كما هي الحال اليوم في جمعيات اليسوعيين والماسونيين (١) وغيرهم من الجمعيات السرية التي نرجح انها ظهرت تحت تأثير نظام الاسماعيلية كما سنرى في الفصل الاخير من هذا الكتاب .

ان المطلع على اساليب الاسماعيلية وطرقهم البسيكولوجية الدقيقة التي كانوا يستعملونها إما لاستمالة الناس إلى مذهبهم وإما للتسلط على ارادتهم وابقائهم تحت طاعتهم التامة ليعجب جداً من

---

١ — من جملة الادلة على ما بين الاسماعيلية والماسونية من القرابة انه كان للاسماعيلية لوجات او محاول (ج محول) تشبه محافل الماسونية (انظر خطط المقريزي . و Encyl. Musulmane . livr,32,p. 812

مهارة هؤلاء الناس ومعرفتهم الكاملة للنفس الانسانية . ولولا خوفي من الملل لذكرت شيئاً كثيراً من تلك الاساليب التي نحسبها صحيحة ولو لم يرد ذكرها إلا في كتب اعداء الاسماعيلية كأبي منصور البغدادي والغزالي وغيرهما ، وانما يكفي لغرضنا ان نقول ان الغاية القصوى من هذه الاساليب والطرق الجهنمية ان يثير الداعي الشك في نفس المدعو وفي عقائده الاصلية ومبادئه السياسية والادبية والاجتماعية ويحمله على الدخول في سلك الجمعية السرية صاحبة العلم **الصحيح** وكنز المعارف الحقيقية على زعمهم .

والذي نعرفه عن اعمال هؤلاء الدعاة ان طرقهم كانت تؤدي الى الغرض المطلوب إلا في ما ندر من الاحايين ، وان « بذورهم » كانت — كما كانوا هم يعبرون — تقع تقريباً دائماً « في اراضي طيبة » (١) وانه لم يكن ليضرهم ان وقعت في « أرض سبخة » ، لأنهم كانوا دائماً على حذر مما يقولون ويفعلون وممن كانوا يخاطبون حتى اذا رأوا منهم اعراضاً عن كلامهم أو تفرسوا فيهم الخيانة وعدم الاخلاص للدعوة كانوا يحجمون عن الكلام او يغيرون موضوعه ويدخلون في

---

١ — وقالوا ايضاً لدعاتهم لا تطرحوا بذركم في ارض سبخة ، وارادوا بذلك منع دعاتهم عن اظهار بدعتهم عند من لا تؤثر فيهم بدعتهم كما لا يؤثر البذر في الارض السبخة ايضاً » [انظر الفرق ... : ص ٢٨٣] .

موضوع جديد لا علاقة له بالدعوى ولا خطر عليهم منه . وهذا لم يكن بالأمر الصعب على الداعي الخبير لأنه لم يكن بعد ادلى الى مخاطبه بامور مهمة ولا كشف له عن سر من أسرار جمعيته يكون من وراءه ضرر عليها ، وذلك لأن الدعاة لم يكونوا يطرقون في أحاديثهم الاولى مع المبتدئين إلا المواضيع العامة التي كان يقصد بها التعرف بنفسية وعقلية المقبلين على الدعوة وإثارة الرغبة فيهم الى الدخول في دين جديد حتى اذا دخلوه وأقاموا فيه سنين أطلعوهم على تعاليم جمعيتهم وغاياتها الاجتماعية والأدبية ، وهكذا الى ان يبلغ المدعو الرتبة السابعة – وقليل من كان يبلغها – ويقف بنفسه على غاية الجمعية القصوى وطرق الوصول اليها . أما الدعاة أنفسهم فلم يكونوا يبلغون إلا الدرجة الخامسة وهي الدرجة التي كان يقف الداعي فيها على بعض اسرار الجمعية بعد ان يكون حلف الايمان المذكورة في الرتبة الرابعة . ومن لم يكن يبلغ هذه الدرجة كان يبقى عضواً بسيطاً مربوطاً بارادة غيره وبالاخص بارادة إمام الزمان الذي هو أعرف الناس بغايات الجمعية واسرارها وأقدرهم على استخدام هؤلاء البسطاء .

يستفاد من أقوال بعض الكتبة المتقدمين ان اعضاء الجمعية الاسماعيلية الذين بلغوا الدرجة الرابعة فقط ولم يقسموا بعد

الايمان المطلوبة منهم لم يكونوا يعرفون من بروغرام الجمعية إلا مبادئها الدينية ولادبية ، أما تعاليمها السياسية والاجتماعية فلم يكن يكشف لهم عنها إلا بعد الدرجة الرابعة وتأدية القسم المعلوم .

ولا شك عندي في ان هذا وغيره من وسائل التستر جعل الهيئة الاجتماعية الاسلامية في ذلك الوقت تظن في الاسماعيلية الظنون وتنسب اليهم ما لا يتفق إلا في النادر مع الحقيقة . وأغرب من ذلك ان اكثر الترهات عن الاسماعيلية والتباين في الحكم عن تعاليمهم وردت ليس فقط في كتب المتأخرين بل في كتب معاصريهم من مسلمين ومسيحيين فمنهم من زج الاسماعيلية بين الماديين ، ومنهم من حسبهم زنادقة يقولون بأزلية العالم ويكفرون بالشرائع والانبياء ، ومنهم من كان يحشرهم بين أصحاب زرادشت والمجوس الذين كانوا لا يزالون يحلمون بإحياء دين الفرس القديم ، ومنهم اخيراً من كان ينسبهم الى السابئيين أو أصحاب الفلسفة اليونانية القديمة على اختلاف نحلها وطرقها فكانوا ـ استناداً على ذلك ـ يعزون اليهم من الاقوال والافعال ما هم في الحقيقة براء منه ، خذ مثالاً على ذلك رسالة تعزى كذباً (١) الى بعض الاسماعيلية تجد فيها من

---

١ ـ انظر مقالة المستشرق Massignon في دائرة المعارف الاسلامية ع ٣٠ ص ٨١٦

التهم القبيحة والاقوال الفظيعة الموجهة الى الاسماعيلية ما لو صح جزء منها لكانت الاسماعيلية من أحط الناس أدباً وأخس من عرفهم التاريخ . فقد جاء عنهم في تلك الرسالة انهم « ملحدون دهريون إباحيون يستحلون المحرمات ويرتكبون اكبر الجرائم » ويسوغون استعمال جميع الوسائل ان هي أدت الى الغاية المنشودة . وذكر ابو منصور البغدادي ان صاحب الرسالة المذكورة قال فيها ما يأتي :

« وما العجب من شيء كالعجب من رجل يدعي العقل ثم يكون له اخت أو بنت حسناء وليست له زوجة في حسنها فيحرمها على نفسه وينكحها من أجنبي . ولو عقل الجاهل لعلم انه احق بأخته وبنته من الاجنبي (الفرق ٢٨١) وما وجه ذلك إلا لأن صاحبهم (النبي) حرم عليهم الطيبات وخوّفهم بغائب لا يعقل وهو الاله الذي يزعمونه واخبرهم بما لا يرونه ابداً من البعث من القبور والحساب والجنة والنار حتى استعبدهم بذلك عاجلاً وجعلهم له في حياته ولذريته بعد وفاته خولا واستباح بذلك اموالهم بقوله « لا اسألكم عليه اجرا إلا المودة في القربى » (الشورى ٢٣) فكان امره معهم نقداً وامرهم معه نسيئة وقد استعجل منهم بذل ارواحهم واموالهم على انتظار موعود لا يكون . وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلوة

والصيام والجهاد والحج »؟ (١) .

وجاء فيها أيضاً ، وذلك لأول مرة في التاريخ ، ذكر المضللين الثلاثة trois imposteurs الذين ملأ حديثهم الاجيال الوسطى إلى غير ذلك من الاقوال التي تنسب إلى الاسماعيلية تحليل المحرمات ونسخ الآداب المتبعة في ذلك العصر . فقد ذكروا عنهم « انهم قد اباحوا لاتباعهم نكاح البنات والاخوات واباحوا شرب الخمر وجميع اللذات،ويؤكد ذلك ان الغلام الذي ظهر منهم في البحرين والاحساء .. سن لاتباعه اللواط واوجب قتل الغلام الذي يمتنع على من يريد الفجور به » (ص ٢٧٠) فلو اضفنا إلى ذلك ما كانوا يعزونه إلى الاسماعيلية من الكذب والنفاق وطرق التضليل لاستوعبنا ما قاله خصومهم فيهم وفي مبادئهم الأدبية والدينية . اما معلومات اعداء الاسماعيلية عن مبادئهم السياسية والاجتماعية فأقل جداً من معلوماتهم عن مبادئهم التي ذكرناها قبل ذلك كما يتضح لكل من طالع كتاب ابي منصور وغيره من الكتبة وغاية ما يمكننا ان نستخلصه من اقوال هؤلاء الكتبة المبعثرة المتباينة هو ان زعماء الاسماعيلية وقادة سياستهم كانوا كلهم أو أكثرهم من الفرس المتعصبين لقوميتهم والعاملين بكل الوسائل على احياء ملكهم الدارس أو ممن يقولون باللاقومية Internationalistes وممن

---

١ ــ الفرق بين الفرق ص ٢٩٠

كان غرضهم دك اركان الدولة العباسية المؤسسة على العصبية القومية والاسلام ، وبناء دولة أممية شيوعية على انقاضها تكون مؤسسة على مساواة جميع الأمم في الحقوق وعلى دين العقل السليم ، أو من الفوضويين الذين لم يكن يعنيهم إلا تقويض الدولة المكروهة عندهم وهدم انظمتها الممقوتة . ومما ذكره كتبة المسلمين عن اغراض الاسماعيلية انهم كانوا يسعون إلى نزع الملك من ايدي خلفاء بني العباس وتسليمه إلى العلويين الذين كانوا يرجون منهم خيراً لانفسهم .

هذه خلاصة ما ذكره كتبة الاسلام عن تعاليم الاسماعيلية واغراضهم السياسية والاجتماعية ، فإذا نحن قابلنا هذه الاخبار بما جاء في كتب الاسماعيلية النادرة وما حفظته الايام من كتب واخبار الجماعات الدينية والاجتماعية التي خرجت من احضان الاسماعيلية كالقرامطة والفاطميين والحشاشين والدروز والزيدية في اليمن واسماعيلية هذا اليوم الخ ، وجدنا ان كثيراً مما نسبه اليهم كتبة الاعصر السالفة لا يتفق مع الحقيقة خصوصاً ما قيل عن آدابهم واخلاقهم بل قد يكون أقرب إلى الحقيقة عكس ما نسب اليهم في كتب اصحاب المقالات الدينية ، فقد عرف مثلًا عن بعض الخلفاء الفاطميين انهم كانوا يميلون إلى التزوج بامرأة واحدة وانهم كانوا يدعون رعيتهم إلى اتخاذ هذا النظام العائلي .

ذكروا ان الخليفة المعز (٩٥٣ ـ ٩٧٥) دعا رؤساء قبائل

افريقيا الشمالية إلى الزواج الفردي « لان بذلك تزيد سعادة الحياة ويحفظ نشاط الروح ولأنا في حاجة إلى كل قواكم وعقولكم » (١) ومثل ذلك يحكى عن القرامطة وهم — كما سنرى في الفصل الآتي — أقرب الناس الى الاسماعيلية بل هم فرع كبير منهم فقد جاء عنهم في « سفرنامه » للسائح والكاتب الفارسي ناصر خسرو الذي زار عاصمتهم سنة ٤٤٢ ﻫ (١٠٥٠ م) « انهم لا يشربون خمراً » لا لأنه كان ممنوعاً عندهم بل لانهم كانوا يحافظون على حسن سمعتهم وآدابهم العمومية محافظة شديدة تنافي ما قاله فيهم احد خصومهم في قصيدة ذكر فيها عن لسانهم :

وما الخمر إلا كماء السماء حلال فقدّست من مذهب(٢)

فانت ترى مما ذكر ومن وقوفك على حالة الجماعات المذكورة الأدبية في الوقت الحاضر ان اخلاق الاسماعيلية على الاطلاق لم تكن من السقوط في الدرجة التي يصورهم فيها خصومهم وانهم لم يكونوا يدعون الى العدمية الادبية (nihilisme moral) كما يظن البعض . ومثل هذا يقال في تعاليمهم الاجتماعية والسياسية فلا بد اذن من التحفظ والتروي عند الحكم عليهم

---

١ — انظر كتاب De Goeje المذكور آنفاً ص ١٧٧

٢ — انظر كتاب M De Goeje ص ٢٢٦ — ٢٢٧ . البيت المذكور مأخوذ من قصيدة ذكرها الخزرجي في «تاريخ اليمن» الذي لا يزال خطا وهذه هي القصيدة :

واصلاح ما نسبه اليهم اعداؤهم من الاغلاط والمبالغات لما نعرفه الآن عن تكتم الاسماعيلية واخفائهم عن النـاس اسرارهم واختلاف عناصرهم ونزعاتهم . ثم لا يجب ان يغيب عن بالنا ان كثيراً من تعاليم الاسماعيلية الاساسية قد تطور مع الزمن وان دعاتهم كانوا يراعون في اقوالهم درجة سامعيهم العقلية والادبية وعلاقتهم بالدين عامة وبالاسلام خاصة وينظرون إلى قومياتهم واميالهم السياسية والاشتراكية فكانوا يخاطبون كلا منهم بلسانه وبما يوافق امياله وعواطفه ودرجة نموه العقلي (١) فربما كانوا

خذي الدف يا هذه واضربي	وغني هزاريك ثم اطربي
تولى نبي بني هاشم	وهذا نبي بني يعرب
لكل نبي مضى شرعة	و « هذي » شريعة هذا النبي
فقد حط عنا فروض الصلاة	وحط الصيام ولم يتعب
اذا الناس صلوا فلا تنهضي	وان صوموا فكلي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفا	ولا زورة القبر في يثرب
ولا تمنعي النفس من معرسين	من الاقربين او الاجنبي
فلم ذا حللت لهذا القريب	وصرت محرمـــة للاب
اليس الغراس لمن ربه	واسقاه في الزمن المجدب

١ – قال ابو منصور البغدادي « ان من شرط الداعي الى مذهبهم ان يكون عارفاً بالوجوه التي تدعي بها الاصناف فليست دعوة الاصناف من وجه واحد بل لكل صنف من الناس وجه يدعي منه الى مذهب الباطن فمن رآه الداعي مائلا الى العبادات حمله على الزهد والعبادة ثم سأله عن معاني العبادات وعلل الفرائض وشككه فيها ،ومن رآه ذا مجون وخلاعة قال له العبادة بله

يخاطبون الفارسي بغير ما كانوا يخاطبون به العربي ويصطادون المسلم بخلاف ما كانوا يصطادون به غير المسلم ، ويكاشفون الفلاسفة وأهل العلم والطبقة الراقية من الناس بغير ما كانوا يدعون به الطبقة السفلى وهلم جرّاً مما ينتج عنه انه كان للاسماعيلية برنامجان (اعلى وادنى) Maximum et minimum فان صح ذلك ـ واظنه صحيحاً لأن بعض الكتبة اشار اليه ـ سهل علينا والحالة هذه ان نفهم سبب ذلك التباين الظاهر في اقوال بعض كتبة المسلمين عن الاسماعيلية وتعاليمهم . على انه لا يستنتج من هــــذا انه لم يكن للاسماعيلية برنامج معلوم

وحماقة وانما الفطنة في نيل اللذات وتمثل له بقول الشاعر :

من راقب الناس مات هماً   وفــــاز باللذة الجسور

ومن راه شاكاً في دينه او في المعاد والثواب والعقاب صرّح له بنفي ذلك وحمله على استباحة المحرمات واستروح معه الى قول الشاعر الماجن :

أأترك لذة الصهباء صرفاً   لما وعدوه من لحم وخمر

حياة ثم موت ثم نشر   حديث خرافة يا ام عمرو

ومن رآه من غلاة الرافضة كالسبابية الخ ، لم يحتج معهم الى تأويل الايات والاخبار لانهم يتأولونها معهم على وفق ضلالتهم . ومن راه من الرافضة زيدياً او امامياً مائلا الى الطعن في اخبار الصحابة دخل عليه من جهة شتم الصحابة وزين له بغض بني تيم لان ابا بكر منهم وبغض بني عدي لان عمر بن الخطاب منهم وحثه على بغض بني امية لانه كان منهم عثمان ومعاوية وربما استروح الباطني في عصرنا هذا الى قول اسماعيل بن عباد :

دخول النار في حب الوصي   وفي تفضيل ابناء النبي

احب اليّ من جنات عدن   اخلدها بتيم او عدي

متفق عليه عند أكثريتهم يمكن ان نطلق عليه اسم البرنامج الاصغر ، وهو ذلك البرنامج الذي ذكرت فيه مبادئهم الاصلية التي لم يطرأ عليها تغيير ظاهر والتي كانت تميزهم عن غيرهم من أصحاب النحل والاحزاب العديدة في ذلك الوقت .

لا ريب في وجود هذا البرنامج الاصغر لأنا نستطيع اليوم ان نجمع بنوده ونعرضها على القارىء مستندين في ذلك على شهادات اعداء الاسماعيلية وما حفظ من كتب الاسماعيلية أنفسهم او من يمت اليهم بقرابة روحية من الجماعات المذكورة آنفاً . فان نحن قابلنا بين هذه الاخبار كلها ونقدناها نقداً علمياً محضاً منزهاً عن الاميال والغايات أمكننا ان نستخرج منها الصورة الآتية للاسماعيلية :

من المعلوم ن منشأ الحركة الاسماعيلية وأكثر الحركات الاشتراكية والسياسية والأدبية التي هزت العالم الاسلامي هزات عنيفة وزلزلت أرضه وسماءه هي الشيعة العلوية . والذي نعرفه من أمر هذه الشيعة المعتدلة انها انشقت الى فرعين : فرع يعرف بالاثنا عشرية ، وفرع آخر يعرف

... ثم ذكر له على التدريج بعض التأويلات فان قبلها منه اظهر له الباقي وان لم يقبل منه التأويل الاول ربطه في الباقي وكتمه عنه وشكى الغر في اركان الشريعة . . . فهذا بيان درجة التفرس منهم » (الفرق ص ٢٨٣) .

بالسبعية سمي أصحابه بهذا الاسم لانهم وقفوا عند الامام السابع وهو اسماعيل بن جعفر الصديق لاكبر الامـام الامام السادس من ائمة هذا الفرع . ومعلوم ايضـاً ان جعفر الصديق رفض ان يقيم ابنه اسماعيل خلفاً وإماماً من بعده نظراً لسوء سيرته ولأنه كان يدمن الخمر ، إلا ان حزب اسماعيل – وهم الاكثرية في الفرع المذكور – اعترض على ذلك وأيد اسماعيل واعترف بإمامته فعرف باسمه الى هذا اليوم .

توفي اسماعيل سنة ١٤٥هـ ، أي قبل أبيه ، ودفن في المدينة حيث بقيت تقيم عائلته الى اواخر الجيل الثامن حين اضطر عضاؤها الى مهاجرة بلدهم لاشتراكهم فعلًا في حوادث ذلك الوقت السياسية ، او لأنه خيل لأصحاب السلطة يومئذ انهم اشتركوا فيها ، فتفرق اولاد اسماعيل وأحفاده في البلاد فهبطوا شمال فارس (١) والعراق وسوريا ثم نزحوا الى بلاد الهند وشمال أفريقيا الخ . الا ان عيون بني العباس كانت تتبعهم أينما حلوا وأين رحلوا لانهم كانوا يخافون نفوذهم ويحسبونهم اعظم الناس عليهم خطراً ، فاضطر ذلك بني اسماعيل الى التخفي وسكنى البيوت البعيدة والمدن الصغيرة من حيث

---

١ – قال عماد الدين الاصفهاني صاحب كتاب « مختصر تاريخ آل سلجوق » ان خراسان كانت عش الباطنية وملجأهم » ص ٨٨

بدأوا يرسلون دعاتهم الى اطراف الخلافة العباسية لبث دعوتهم السياسية ونشر تعاليمهم الدينية والاجتماعية التي أخذت تختلف رويداً رويداً عن الدين الاسلامي بل عن الدين كله لما أخذ يتسرب اليها من العناصر الغريبة والاراء الفلسفية حتى أصبحت بعد زمن قليل مذهباً بل ديناً قائماً بذاته نستطيع ان نلخصه في الاسطر الآتية :

قلنا ان الاسماعيلية جمعية سرية يترأسها زعيم يعرف بالامام أو صاحب الزمان له سلطة مطلقة على جميع اعضاء الجمعية أي على حياتهم ، وكلمته مطاعة عندهم كحكم من احكام الشريعة بل أقوى لأن الامام عندهم وفي نظرهم معصوم عن الخطأ ، كخليفة الله في أرضه ، وارادته لا تردّ اذ ليست خدمة الله الا تتميم ارادته والاخلاص له . فمن عرف إمام الزمان وأقسم باسمه واعتمد عليه في كل شيء ثم عرف اوامره وتمسك بها وأعطى لكل ذي حق حقه ولم يحد عن الحقيقة ، فقد عرف الله حق معرفته » (١) . فمن قبل هذه العقيدة اضطر ان يقبل ايضاً ان إمام الزمان أعلى درجة او درجات من النبي لأن ليس للحدود التي وضعها الانبياء إلا اهمية نسبية قد لا تتعدى زمانهم ، اما حدود إمام الزمان او تأويله لحدود غيره فلها اهمية مطلقة لا يحصرها زمان ولا

---

١ – كتاب M. de Goeje ص ١٧٠

مكان . وقد عرف عن الاسماعيلية انهم كانوا يؤولون الشرائع الدينية وشعائرها تأويلاً باطنياً – ومنه عرفوا بالباطنية – يخالف ظواهرها ولكن لا يخالف العقل السليم ، وانهم أخذوا تأويلهم هذا عن فلاسفة اليونان وخصوصاً الافلاطونيين الاحداث ، فكان من نتائج هذا التأويل انهم قضوا على الشرائع المنزلة وبذلك رفعوا شأن « إمام الزمان » وحصروا السلطة في يديه .

نحن لا ننكر ان الاسماعيلية لم تنبذ في الظاهر الشرائع المنزلة عامة والقرآن خاصة وذلك لأنهم كانوا يرون فيها فائدة لطبقات الشعب الدنيا ، طبقات « العميان والحمير » كما كانت الاسماعيلية تسميها ، أما الطبقات العالية التي « فتح الله بصائرها وأبصارها » فادركت الحقيقة فهي في نظر الاسماعيلية وحسب اعتقادهم – في غنى عن هذه الشرائع وشعائرها الخارجية مما ينتج عنه ان زعماء الاسماعيلية كانوا يكفرون بالاديان الموحاة وعقائدها الاصلية ، وهو ما ذكره كتبة المسلمين مراراً وما لا يمكن ان ينكره أحد .

قال ابو منصور البغدادي ان القيرواني كتب في رسالته التي وضعها لسليمان بن الحسن القرمطي ما حرفه : اني اوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والانجيل وبدعوتهم الى إبطال الشرائع والى إبطال المعاد والنشور من القبور وإبطال الملائكة في السماء وإبطال الجن في الارض (الفرق

٢٨٠) . وقال في موضع آخر : « والذي يصبح عندي من دين الباطنية انهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلهم الى استباحة ما يميل اليه الطبع » (الفرق ٢٧٨) . وجاء في رسالة (١) لهم محفوظة الى اليوم خطأً ما معناه « ان القول بالبعث مهزأة لأن المراد من قولنا « الحيوة الخالدة » و « خلود النفس » هو رجوع النفس الى مصدرها الاصلي » . وعلى هذه الطريقة اوّلوا عقيدة الدينونة في اليوم الآخر وغيرها من العقائد الدينية الأساسية وقالوا ان المؤمن الحقيقي هو من يؤول الوحي الالهي على طريقتهم ، وأما من يتبع الشرائع المنزلة وأحكامها على ظواهرها فليس هو إلا كافراً وحماراً (٢) » .

فأنت ترى ان الاسماعيلية كانوا يكرهون التفسير الظاهري وكانوا يحاولون ان يؤولوا آيات الشرائع وأحكامها تأويلاً باطنياً مبنياً على العقل (Ratio) فقط ، فهم اذن اول بدعة في الاسلام يجوز ان نطلق على أصحابها اسم (العقليين) او اهل العقل (Rationalistes) بمعنى هذه الكلمة العصري ، فالفرق بينهم وبين المعتزلة أن الاسماعيلية كانوا يؤولون الديانات وأحكامها وشعائرها تأويلاً يؤدي الى نفيها على حين ان المعتزلة كانوا يحاولون ان يوفقوا بين الدين والعقل

---

١ – انظر تأليف M. de Goeje ص. ١٧١

٢ – انظر تأليف M. de Goeje ص . ١٧١

بدون ان يضحوا احدهما للآخر .

ان هذا المذهب الجديد الذي اراد الاسماعيلية ان ينشروه بين المسلمين وغير المسلمين ليس هو إلا احدى نتائج تعليمهم الاساسي عن الدين ومكانه في نظامهم الفلسفي ، وما الدين الحقيقي في نظرهم (١) إلا « ان يتوصل الانسان بالتمرين المستمر والترقي من درجة إلى درجة إلى معرفة منازل الكون التي قطعتها العوالم (المسكونة) بعد ان انفصلت عن الله » . اي « عن الفكر الواحد المطلق » (الغير المجسم) أو « العقل الأول » أو « النور الاعلى » المشع من نفسه في المنزلة الثانية العقل العام والنفس العالمية وهما اللذان يحدثان - بعد ان يتغيرا - العقول الانسانية وعقول الانبياء والائمة وخيرة الناس » . اما سائر الناس فليس لهم عقول بل « اشباه العدم » إلا إذا انتقلوا إلى المنزلة الثانية بواسطة التنوير والتعليم » (٢) ولهذا التعليم درجات عديدة تقابل درجات التكريس التي تكلمنا عنها سابقاً إذا سار الانسان فيها بلغ الدرجة القصوى من الكمال العقلي والأدبي اللذين هما الغرض الأكبر من حياة الانسان الدنيا .

اما السبيل إلى بلوغ هذه الغاية فهو - على رأيهم - انماء القوى

---

١ - انظر Encyclop . Musulmane ج ٣٠ ص ٨١٥

٢ - من هنا تسميتهم «بالتعليمية» على ما ذكره الشهرستاني والغزالي وغيرهما

العقلية ثم السيرة الحسنة والحياة الأدبية الموافقة لمطالب العقل السليم . وهذا يؤيد ما ذكرناه سابقاً من علو آداب الاسماعيلية على الاطلاق وينافي ما كان يتهمهم به بعض اعدائهم .

هذه خلاصة تعاليم الاسماعيلية عن الأدب والدين اما مبادئهم السياسية والاجتماعية فيمكن ان يقال عنها إنها كانت مرتبطة ارتباطاً متيناً بآرائهم الفلسفية والأدبية بل هي نتيجة منطقية لها تقوم عليها وتسقط معها . هذا من جهة ومن جهة أخرى لا بد من التنبيه إلى ان مبادئهم السياسية والمسائل الاجتماعية التي كانت تحوم حولها افكارهم لم تظهر في يوم واحد ولم تبق على حالها مدة طويلة بل انها كانت تتطور تبعاً لمطالب الزمن وظروفه ولتطور زعماء الحركة الاسماعيلية العقلي والأدبي . فهي والحالة هذه قد قطعت كسائر انظمتهم ادواراً عديدة واجتازت مراحل كثيرة وهي تنمو وتتكيف إلى أن اتخذت لنفسها صورة نهائية هي الصورة التي يعرفها بها أكثر الكتبة المتأخرين .

نحن لا ننكر انه يصعب على المؤرخ الاجتماعي أن يتتبع سير الحركات الاسماعيلية وادوار تطورها ويبين ما طرأ على برنامجها الأصلي من التغير ولكن لا بدّ من ذلك لكل من يبحث عن تاريخ الحركات الفكرية في الشرق الاسلامي ، ولهذا ترانا مضطرين أن نبين ذلك على قدر ما تسمح لنا به معارفنا والنصوص التي توفقنا إلى جمعها ودرسها .

يظهر أن مطالب الاسماعيلية السياسية في الدور الأول لم تكن لتختلف كثيراً عن مطالب غيرهم من الشيعة أي انها كانت ترمي إلى نزع السلطة من ايدي بني العباس ونقلها إلى خلفاء علي وابنائه الذين اختطفت منهم كما يزعم اشياعهم ، والمعروف ان هذه المطالب كانت في بادىء الأمر علانية يشترك في تأييدها بعض اعضاء العائلة المغتصبة حقوقها واتباعهم من العرب والفرس ، فكانت هذه الحركات تؤدي احيانا إلى ثورات شيعية كانت تضع الدولة العباسية في مراكز خطرة تضطرها إلى استعمال القوة لمعاقبة القائمين بها معاقبة شديدة تشمل البريء والمجرم ، إلا ان هذه الوسائل لم تكن لتثني اصحاب تلك الحركات الفكرية عن عزمهم أو تحملهم على الاستسلام لأنهم كانوا يعتقدون ان الحق في جانبهم وانهم لا بدّ ان يبلغوا غايتهم المنشودة .

وقد تحول هذا الاعتقاد ، تحت تأثير عوامل وافكار غريبة عن الاسلام ، إلى إيمان قوي في قرب ظهور رجل ـ مهدي ـ يتغلب على دولة بني العباس ويسترد منهم الملك ليسلمه إلى اصحابه . فلما ظهر هذا المهدي أو امام الزمان أخذوا يعلقون عليه ـ وذلك تحت تأثير العوامل المذكورة وما اصاب العلويين من الفشل والمحن وما دخل على دولة بني العباس من التغيرات الاجتماعية والسياسة ـ آمالاً جديدة غير آمالهم السياسية

المعلومة ، فصاروا ينتظرون من مهديهم او إمامهم الاكبر ان يعمم العدل بين الناس ويشفي الارض من امراضها الاجتماعية الى غير ذلك من الاعمال التي تنطوي تحت كلمة عدل ، وان يحقق كثيراً من المبادىء والافكار التي اخذت تتسرب في هذا الوقت الى عقول زعماء الاسماعيلية من الخارج أي من كتب فلاسفة اليونان وتلاميذهم في الشرق أو من الاحزاب الشيوعية والنحل الدينية والعناصر الاجنبية الماقتة لدولة بني العباس .

على كل حال لا ريب في ان المطالب الاجتماعية دخلت في برنامج لاسماعيلية بعد مدة قليلة مضت على ظهورهم لأسباب عديدة أهمها استمالة الناس الى حزبهم لا لتقويته عدداً كما يتهمهم في ذلك خصومهم بل لأن لهذه المطاليب صلة بتعاليمهم الاصلية ولأنها تتمة طيبة لها .

أما المطالب الاجتماعية التي أدخلها الاسماعيليون على بروغرامهم فأهمها (١) المساواة بين الجنسين (١) وإبطال (٢) ملكية الاراضي وتوزيعها على المحتاجين اليها مجاناً وهو ـ كما رأينا ـ ما كانت تسعى الى تحقيقه الاحزاب الشيوعية قبل

---

١ ـ من الغريب ان الدروز الذين هم احد فروع الاسماعيلية لا يقولون بمساواة الامرأة للرجل (انظر Encycl. Musulm ج ٣٠ ص ٨١٧)

ظهور الاسماعيلية ، وانما الفرق بين هؤلاء والشيوعيين هو ان الاسماعيلية بنوا طلبهم هذا على مبادىء فلسفية علمية لا على مبادىء أدبية محضة كما فعل من سبقهم من الشيوعيين ، مما لا يستنتج منه مع ذلك إلا ان الاسماعيلية كانوا يرفضون مبدئياً تلك المبادىء الادبية . ثم هناك فرق آخر بين المذهبين وهو ان الباطنيـة لم تقتصر على مد اساس جديد تحت المبادىء الشيوعية القديمة بل وسعت ايضاً القسم الاجتماعي في برنامجها وتوفقت في بعض الاقاليم الى تحقيق نظامهـا الشيوعي كما سترى في الفصل الآتي .

أضف الى ذلك ان الإسماعيلية هم اول من قاوم في الاسلام العصبية القومية ودافع عن فكرة الاخـاء الحقيقي (Internationalisme) لا بين المسلمين فقط بل بين جميع الناس على اختلاف قوميـاتهم وطبقاتهم وأديانهم أي عن الاخاء المبني لا على وحدة الدين كما كانت الحال في الاسلام والكثلكة في الاجيال الوسطى ، بل على مطالب العقل السليم . فهم اذن لم يحصروا دعوتهم وسعيهم في طائفة من النـاس معلومة كالمازيارية او البابكية وغيرهم من شيوعيي ايران ، بل وجهوها الى جميع البلاد وجميع الامم . ولهذا نرجح ان تعريف بعض الكتبة للاسماعيلية بانهم شيوعيو ايران ونبذهم إياهم بالتعصب لهذه الامة صادر أما عن رغبة هؤلاء الكتبة في اثارة الرأي العربي على زعماء هذه الحركة ، وأما عن

جهلهم لمبادىء الاسماعيليـة الاساسي ، وإما عن ان زمام الحركة كان في بادىء الامر في ايدي جماعة من الفرس ، وإما اخيراً لأنه كانت بين الاسماعيلية – وما الاسماعيلية كما بيّنا إلا اخوية مؤلفة من جميع الامم والنحل – فئة صغيرة من الفرس تعمل في السر على إحياء مملكة العجم وإعادة مجد بني ساسان . إلا ان هذا الامر – اذا صح – لا يقدح في مذهب الاسماعيليـة على الاطلاق لانه كان امياً مبنياً على اوليات فلسفية معلومة ، وما على المرتاب إلا ان ينعم النظر في العناصر القوميـة المؤلفة منها أخوية الاسماعيلية فيرى هناك الفارسي والعربي والكردي والنبطي والهندي والتركي والبربري الخ .

قال ابو منصور البغدادي ، وقوله في هذه المسائل ثقة ، « والذي يروج عليهم مذهب الباطنية أصناف احدها العامة الذين قلت بصائرهم باصول العلم والنظر كالقبط والاكراد واولاد المجوس ، والصنف الثاني الشعوبية الذين يرون تفضيل العجم على العرب ... والصنف الثالث اغنام (اغتام ?) بني ربيعة من أجل غيظهم من مضر لخروج النبي منهم » (الفرق ٢٨٥ – ٢٨٦) .

نرى من هذه العبارة ومن غيرها مما لا حاجة الى ذكره هنا ان الاسماعيلية هم حقيقة اول من تغلب في الاسلام على

العصبية القومية التي لم يقوَ عليها بنو أمية ولا بنو العباس. وعلة ذلك ان الاسماعيلية أعلنوا من يوم ان ظهروا ان المسائل القومية لا تهمهم لأن الغرض الذي يرمون اليه ويسعون الى تحقيقه ليس بغرض قومي، ولان الاوهام القومية التي كانت تمزق في تلك الاعصر جسم الدولة العباسية لا تتفق مع مبادئهم الفلسفية، فهم والشعوبية من هذا القبيل على طرفي نقيض بل ربما كان ظهورهم رد فعل ضد الشعوبية، فاذا جاز ان نسمي الشعوبية حزب العصبية القومية Chauvinistes المتطرف كانت الاسماعيلية حزب اللاقومية أو الاصح البينقومية international على انه لا يجب ان يفهم من كلامنا هـذا ان الاسماعيلية كانوا اعداء الشعوبية او ظهروا لمقاومتهم فقط، كلا! لان كلًا من هذين الحزبين كان مستقلًا عن الثاني يرمي الى غايات متباينة كان يتخذ للوصول اليها اساليب ووسائط مختلفة. بل يجوز أن يقال انهما تلاقيا في طريقهما التي قطعاها مستقلين وسارا زمنـاً معلوماً جنباً الى جنب بدون ان يتصادما او يقتتلا ولو اختلفت مبادئهما. وما ذلك إلا لانه كانت هناك نقطة تجمع بينهما وهي بغضهما للدولة الحاكمة والعصبية العربية، وهـذا ما لاحظه وأشار اليه ابو منصور بقوله: «ان الشعوبية كانت تدخل في دين الاسماعيلية وتؤيده» (الفرق ٢٨٥).

وهنا يجدر بنا ان نلفت نظر القارىء مرة أخرى إلى أن دعاة الاسماعيلية كانوا ينشرون دعوتهم بين جميع الأمم الخاضعة

للدولة العباسية وبين جميع الاحزاب والنحل الدينية لا يفرقون بين دين ودين أو حزب وحزب لأن غرضهم الأكبر كان ان يدخلوا في جمعيتهم عقلاء الناس ولهذا كنت ترى بينهم ممثلي جميع الأمم والطبقات والأديان والآراء المتباينة المتضادة حتى اصبحت اخويتهم أشبه شيء بصندوق بندورا (Pandora) الخرافي الذي كانوا يخرجون منه ما شاؤوا .

لم تكن الاسماعيلية تقدم على هذا العمل الغريب وتبدي هذه الجرأة النادرة في تاريخ الانسانية إلا لأنها كانت تشعر بقوتها المعنوية الروحية وتأثير ما كانت تدعو اليه من المبادىء ، ولانها كانت ذات ثقة بنفسها تعتقد انها قادرة بعد مدة من الزمن وقليل من التعب ان تجعل من اعضائها المختلفي النزعات والغايات كتلة واحدة تربط اجزاءها وحدة النظر إلى هذا العالم ووحدة الغاية والوسائل المؤدية اليها ، وهو ما كان حقيقة .

نحن لا ننكر ان التأليف بين قلوب وعقول تلك الجماعات المختلفة المؤلفة لجمعية الاسماعيلية ليس بالأمر السهل ، وان محاولة ذلك كان يكلف زعماءها ودعاتها اتعابا لا يعرفها إلا من عانى مثل هذه المشقة ، وانه خير ان يكون اعضاء الحزب الواحد على مبدإ واحد قبل ان ينضموا الى ذلك الحزب وان يكونوا مستعدين لتلقي مبادئه واتباع سياسته قبل الانخراط في سلكه ، كما هو معلوم ، فكل حزب يريد ان يحقق أحلامه السياسية او الاجتماعية في هذه الحياة الدنيا لا بد ان يتعب

في جمع كلمة من يحتاج الى مساعدتهم من الناس وتثقيفهم وتمرينهم على العمل وإلا كان سعيه باطلاً .

هذا ما انتبه اليه زعماء الاسماعيلية بعد ان أصبح حزبهم السياسي مذهباً اشتراكياً او اخوية فلسفية شيوعية . والى ذلك أشار عبيد بن الحسن القيرواني أحد كتبة الاسماعيلية في رسالته الى احد دعاة المذهب المبرزين سليمان بن الحسن ابي سعيد الجنابي حيث **يقول** : « واذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به فعلى الفلاسفة معوّلنا وإنا واياهم مجمعون على ان نواميس الانبياء على القول بعدم العالم لولا يخالفنا فيه بعضهم من ان للعالم مدبراً لا يعرفه » (١) .

وقال قبيل ذلك : « ادعُ الناس بان تتقرب اليهم بما يميلون اليه ، وأوهم كل واحد منهم بانك منهم فمن آنست منه رشداً فاكشف له الغطاء » (الفرق ٢٧٨ - ٢٧٩) .

هذا شيء قليل من تلك الطرق التي كان يستعملها الاسماعيليون لاصطياد الناس وتأليف كتلة قوية موحدة الكلمة . والحق اولى ان يقال انهم توفقوا بهذه الاساليب الى استمالة مئات الالوف بل الوف الالوف الى مذهبهم وإشرابهم مبادئهم

---

١ - لا حاجة الى ذكر الاغلاط التي وقعت في الطبعة المصرية لكتاب ابي منصور البغدادي وقد اصلحنا بعضها في ما استشهدنا به منه وانما يسوؤنا ان يتولى طبع هذا الكتاب النفيس رجل ليس له اطلاع لا على تاريخ الاديان ولا على التاريخ عموماً .

الجديدة وجعلهم آلة صماء في ايدي صاحب الزمان واعوانه يقذفون بهم اينما شاؤوا ويسخرونهم لقضاء اغراضهم . والذي نعلمه عن هؤلاء الأعضاء انهم كانوا يلبون دعوة زعيمهم راضين فرحين مخلصين كأنهم كانوا يقدمون على عمل فيه حياتهم . وهذا تاريخهم يشهد لهم انهم كانوا يقتحمون غمرات الموت افراداً وجماعات ويبدون من البسالة وتضحية المصالح الشخصية بل حياتهم ما لا يعرفه تاريخ غيرهم من الاحزاب السياسية والهيئات الاجتماعية في ذلك الوقت . فلا عجب إذا كانت هذه الجرأة تؤدي غالباً إلى نتائج كبيرة ، كما لا عجب ايضاً إذا ملأت حركة هؤلاء الناس الاجتماعية ثلاثة اعصر وادّت في آخر الأمر إلى بناء دولة ضخمة في مصر وشمال أفريقيا وأبقت من الآثار ما خلد اسمها ثم خلفت من الجماعات كالحشاشين والقرامطة والدروز وغيرهم من لا يزال اكثرهم حياً عاملاً إلى هذا اليوم .

لو اردنا ان نتتبع بالتفصيل تاريخ الحركات التي احدثتها الاسماعيلية وكانت دائماً تحت تأثيرها لوجب ان نضع لذلك مؤلفات عديدة تفي بالغرض . وكذلك لو اردنا ان نبحث بالتدقيق عن تأثير الأفكار الاسماعيلية على الآداب والفلسفة الاسلامية وحياة المجتمع الاسلامي في الاعصر المذكورة . ولهذا نكتفي بالاشارة إلى ان الافكار التي بثها دعاة الاسماعيلية بين طبقات المسلمين وغير المسلمين كان من شأنها ان قلبت حياتهم رأساً على عقب وأحدثت بينهم من التغيير ما لا تزال آثاره باقية

إلى هذا اليوم . فالفلسفة مديونة لهم برسائل « اخوان الصفا » وهي أول دائرة للعلوم والمعارف ظهرت في العالم وقد حاولوا ان يبثوا فيها مبادئهم العلمية ونظرهم الخاص إلى الطبيعة والانسان وينشروا فيها آراء فلاسفة اليونان الذين كانوا في نظرهم من درجة الانبياء أو أعلى ، فمهدوا بذلك السبيل لفلاسفة الاسلام كالفارابي وابن سينا وغيرهم ، اذ لا شك في ان كثيراً من نظريات هؤلاء الفلاسفة وافكارهم السامية مأخوذة عن كتب الاسماعيلية ، نذكر من ذلك نظرية الفلاسفة المذكورين إلى ما يعرف بالاستعداد للنبوة أو بعبارة اخرى « بالامام الكامل » أو « الحكيم الكامل » فانها ولا شك من بنات افكار الاسماعيلية (١) ومثلها النظريات المبتكرة التي نجدها في رواية حي بن يقظان لابن طفيل . ثم ان لهم آثاراً بينة عميقة في علم التفسير حيث ساعدوا على نشر مبدأ التأويل ، وفي فلسفة التصوف حيث شعر بتأثيرهم في كتب ابن العربي والغزالي والحلاج وغيرهم ، ناهيك عن متصوفي الفرس الذين كانوا ولا يزالون اكثر ميلاً إلى المبادىء الاسماعيلية من اخوانهم العرب . وأهم من ذلك في نظري ان الحركة الاسماعيلية مهدت السبيل لنشر الافكار الحرة في العالم الاسلامي وجرّأت الناس على المجاهرة بها بعد ان كانوا يخافون من البحث في ما هو أقل

---

١ – انظر مقالة Massignon عن القرامطة في دائرة المعارف الاسلامية.

منها خطراً ، ولولا ذلك لما تجاسر ابن العربي ان يقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي   إذا لم يكن ديني إلى دينه داني - الخ

ولولاها لما رأينا عشرات من الكتبة والشعراء يحملون حملاتهم الشعواء على الاوهام والخرافات الدينية والعداوات القومية واصحابها ويحتجون بلا خوف ولا حذر على الضغط على الحرية الشخصية من قبل اصحاب السلطة المدنية والدينية . فهذا ابو العلاء المعري إمام الناقمين من الظالمين وزعيم المفكرين الاحرار هل كان يستطيع ان يقول :

ان الشرائع ألقت بيننا إحناً   وأودعتنا افانين العداوات

او ان يقول :

والدين قد خس حتى صار اشرفه   بازاً لبازين أو كلباً لكلاب

ما الركن في قول ناس لست اذكرهم   الا بقية اوثان وانصاب

قد ترامت إلى الفساد البرايا   واستوت في الضلالة الاديان

ولست اقول ان الشهب يوما   لبعث محمد جعلت رجوما

وليس اعتقادي خلود النجوم   ولا مذهبي قدم العالم

والعقل يعجب والشرائع كلها   خبر يقلد لم يقسه قائس

متمجسون ومسلمون ومعشر   متنصرون وهائدون رسائس

وبيوت نيران تزار تعبداً   ومساجد معمورة وكنائس

والصائبون يعظمون كواكباً   وطباع كل في الشرور حبائس

إذا سألوا عن مذهبي فهو بيّن   وهل انا إلا مثل غيري أبلهُ

خلقت من الدنيا وعشت كأهلها   أجدّ كما جدوا وألهو كما لهوا
وأشهد اني بالقضاء حللتها   وارحل عنها خائفاً اتألـّه

أو ان يقول اخيراً :

اما الجسوم فللتراب مآلها   وعييت بالارواح أنى تسلك

وما دان الفتى بحجى ولكن   يعلمه التـدين اقربوه
اطاعوا ذا الخداع وصدقوه   وكم نصح النصيح فكذبوه
وجاءتنا شرائع كل قوم   على آثار شيءٍ رتبوه
وغيّر بعضهم اقوال بعض   وابطلت النهى ما اوجبوه
فلا تفرح اذا رُجّبت فيهم   فقد وفعوا الدنيّ ورجّبوه

أو هل كان في وسع ابي العلاء وغيره ان ينشروا افكارهم المدامة علانية ويدعوا الناس إلى الكفر بالدين والخروج على اهل السلطة الظالمين الفاسقين لو لم تمهد الاسماعيلية امامهم الطريق وتعوّد الناس الاصغاء إلى مثل هذه الاقوال والاقبال عليها ؟

وهذا ابن هاني (٩٧٣) شاعر اسبانيا الطبيعي لم يخف ان يتشيع للاسماعيلية ويدخل في مذهبهم جهاراً . ومثله ومثل ابي العلاء كثيرون بين كتبة العرب والفرس وشعرائهم ، حبّذا لو اعتنى احد بالبحث عنهم وجمع اشعارهم واقوالهم وتحليلها من الوجه الذي نتكلم عنه ، وحبذا أيضاً لو اهتم علماؤنا بالبحث عن تأثير آراء الاسماعيلية على كتبة الاجيال الوسطى المسيحيين وعلى ظهور اخوية الجزويت ونظامها الغريب المخالف لسائر

انظمة الجمعيات الرهبانية في الغاية التي يرمي اليها ، أو في روحه الغريبة المتجلية في سلطة رئيس الجمعية المطلقة ، ووجود تلك الدرجات التي يقطعها السالك قبل ان يصل إلى الدرجة العليا ، إلى غير ذلك من المميزات التي لا نجدها إلا في نظام الاخوية المذكورة مما اوحى إلى بعض الكتبة في اوروبا ان يعزوا ظهور الجزويت ونظامهم إلى تأثير الاخوية الاسماعيلية أو إلى من تأثر بتعاليمها ونظامها الداخلي من اصحاب الطرق الصوفية . ثم حبذا لو اعتنى أحد علمائنا بالبحث عن تأثير نظام الاسماعيلية وتعاليمهم على نظام وتعاليم الماسونية وسائر الهيئات والجمعيات السرية والاخويات الرهبانية والاصناف أو نقابات المحترفين وطرق لدر ويش الخ .

نعم ، قد ظهرت في السنوات الاخيرة بعض ابحاث في هذه المواضيع حاولت ان تلقي اشعة من نور على بعض هذه المسائل الغامضة ، إلا انها جاءت ضعيفة لا تفي بالغرض ولا اصحابها من أهل العلم ولا لهم معرفة باللغات والفلسفة الشرقية . ولهذا لا تزال هذه الابحاث في مهد الطفولة . ونحن وان توافرت لدينا المواد المتعلقة بالمواضيع المذكورة وبما كان للاسماعيلية من التأثير على الهيئات الاجتماعية في ذلك الوقت وبعده ونتائج مبادئهم العملية ، فإنا لا نقدر لسوء الحظ أن نأتي عليها هنا والا اضطررنا ان نذكر تاريخ الجماعات التي ولدتها الحركة الاسماعيلية كالفاطميين والحشاشين والقرامطة والاسماعيلية المتفرقة اليوم

في كثير من البلاد . ولهذا نرانا مجبرين ان نقتصر على ذكر جماعة واحدة فقط تجلت فيها روح الاسماعيلية في اكمل صورة وتحققت بينها احلامهم الاجتماعية ونظامهم الاشتراكي ، وهذه الجماعة هم القرامطة أو اسماعيلية البحرين كما يدعوهم بعض المؤرخين . ولكني احب قبل ان اتكلم عن هذه الجماعة ان ابحث عن تهمة طالما اتهم بها الاسماعيلية خصومهم .

يقول خصوم الاسماعيلية ان زعماء هذا المذهب اظهروا قساوة شديدة في حروبهم ومعاملاتهم مع اعدائهم في المبدأ ، وانهم افرطوا في قتل الأفراد والجماعات من اصحاب النفوذ والسلطة ، وانهم كانوا يستعملون كل الوسائل لابادة اعدائهم والوصول إلى غاياتهم مهما كانت هذه الغايات . وحجة القائلين بذلك اعمال القرامطة والحشاشين وغيرهم من جماعات الاسماعيلية الذين دخلوا فيما بعد في خدمة بعض السلاطين والامراء (١) واصبحوا آلة صماء في ايديهم يستعملونها للانتقام من اعدائهم الشخصيين .

كل هذا صحيح لا ينكره أحد ، لكن تفسيره غير صحيح .

لا ريب في ان الاسماعيلية حزب شديد البأس يكاد يكون حزباً حربياً خطته اقرب إلى الهجوم منها إلى الدفاع ، حزب حاول من يوم ظهر ان يقضي على دولة بني العباس ويبني على

---

١ ــ ذكر ابن بطوطة (ج اول ص ١٦٦ ــ ١٦٧) ان اسماعيلية سوريا كانت تخدم عند مماليك مصر كقتلة سريين . وهذا اذا صح لا يقدح في الاسماعيلية لانهم في ايام ابن بطوطة كانوا قد تشتتوا ولم يكونوا يؤلفون حزباً واحداً .

انقاضها دولة جديدة ذات نظام اشتراكي . إلا ان هذا الحزب لم يكن يعمد في بادىء الأمر إلا إلى الوسائل السلمية وهي الحجة والاقناع ، إلى ان اضطره خصمه إلى الخروج عليه بالسلاح كما حدث سنة ٩٠٩ يوم دعته إلى ذلك ظروف الحال ومصالحه الحيوية .

اما اغتيال الافراد وقتلهم على غرة فلم يكن معروفاً إلا عن فئة صغيرة من جماعة الحشاشين وهي فئة – وان كان لها صلة قرابة بالاسماعيليين – عرفت بينهم بالتطرف وكان لها برنامج وغايات تختلف عما لغيرها من جماعات الاسماعيلية كما كان لها وسائط خصوصية تستعملها للوصول إلى غايتها القصوى ونظام قائم بذاته لم يكن يعرفه خصومهم مما نتج عنه ان اكثر الناس صاروا ينسبون لجميع الهيئات الاسماعيلية ما هو خاص بفريق منهم فقط ويعاملونهم جميعاً معاملة واحدة ، فكان من ذلك انهم صاروا يكرهون الاسماعيلية على الاطلاق ، وقد بلغ بغضهم لأصحاب هذا المذهب درجة حملتهم على اخراجهم من الامة الاسلامية ، أي على تحليل دمائهم ومعاملتهم معاملة الكفرة ، مع علمهم بان الاسماعيلية يحرمون القتل إلا في ساحات الحرب وعند الدفاع عن النفس في حالات معروفة كان يوجدها لهم اعداؤهم ليقضوا عليهم لا لذنب اقترفوه بل لانهم كانوا على غير رأيهم ، فكم وكم من الاسماعيلية ذهبوا ضحايا هذا التعصب الاعمى وذلك البغض الفظيع ؟

ذكر عماد الدين الهمذاني ان احد امراء خراسان قتل في مدة قليلة « اكثر من مئة الف من الباطنية وبنى من رؤوسهم بالري مناراً اذّن عليه المؤذنون » (١) وورد في كتاب ابي منصور البغدادي « ان محمود بن سبكتكين سلطان غزنا المشهور « قتل في مدينة ملطان من أرض الهند الالوف وقطع ايدي الف منهم» (الفرق ٢٧٧) .

فكأن خصوم الاسماعيلية قرروا ان لا يبقوا على وجه الأرض احداً منهم لانه رسخ في عقولهم « ان ضرر الاسماعيلية على الاسلام أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر اصناف الكفرة عليهم بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان .. ولأنّ فضائح الباطنية اكثر من عدد الرمل والقطر » (الفرق ٢٦٥ – ٢٦٦) فلا ريب إذاً في ان حالة الاسماعيلية في هذه الحرب العامة كانت حرجة جداً . ولما كان عددهم أقل من عدد اعدائهم كانوا والحالة هذه مضطرين إلى الدفاع عن انفسهم اكثر من الهجوم إلا حيث كانت الاكثرية أو الظروف في جانبهم فكانوا يستفيدون منها للانتقام من اعدائهم انتقاماً يذكرنا بقساوة الحروب الاهلية أو حروب الطبقات الناتجة عن تضارب المصالح والمبادىء وهي الحروب التي يعمد فيها الطرفان إلى وسائل واساليب قد لا يعمد اليها أحد في الحروب الاعتيادية والتي

---

١ – انظر تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٧٤

يصعب عندها الحكم في أي من الطرفين هو أشد همجية وقساوة وأقرب إلى الحيوانية .

على كل ، لا ريب في ان الحروب الاهلية أشد همجية من غيرها وان فوز أحد الطرفين المتطاحنين على مبدإ أو نظام جديد يكلف الانسانية ضحايا اكثر مما تكلفها الحروب السياسية أو غيرها .

إلا انه مع كل الاضطهادات والمحن التي احتملها الاسماعيلية ومع الصعوبات التي اعترضتهم في طريقهم إلى غايتهم الكبرى ، فإن دعوتهم كانت تنتشر في البلادبسرعة غريبة حتى لم يبق عمل أو مقاطعة في خلافة بني العباس إلا دخلتها دعاة الباطنية واسست فيها خلايا عديدة كانت تعمل في السر على نشر المبادىء الاشتراكية وتمهد الطريق للنظام الاجتماعي الجديد وهدم النظام القديم الذي لم يعد يصلح للحياة .

كاد أصحاب المبدأ الجديد يبلغون اربهم ويقضون على دولة بني العباس لو لم تأتها مساعدة قوية من أمة حديثة مملوءة حماسة ونشاطاً وهمجية نادرة في تلك العصور وذلك الوسط الراقي ، وهذه الأمة هي الأمة التركية التي اصبحت من اواسط العصر التاسع صاحبة الأمر والنهي في بغداد وصار اليها أمر الدفاع عن هذه الدولة وانظمتها الدينية والمدنية فقامت بما عهد اليها حق القيام وقاومت اعداء الدولة والدين بما عرف عنها من الحزم

والقساوة والتعصب ، فأصاب الاسماعيلية منها ما أصابها مما لا حاجة إلى ذكره هنا فاضطروا إلى الانسحاب من كثير من ميادين القتال والالتجاء إلى الجبال والبلاد البعيدة حيث استطاعوا ان يحافظوا على مطلبهم الأكبر idéal ومذهبهم الاشتراكي وكثير من انظمتهم الاجتماعية إلى هذا اليوم . وقد زاد في ضعفهم وتشتيت شملهم انهم لم يكادوا ينتهون من قتال الترك حتى دهمهم عدو جديد من الغرب لا يقل تعصباً وهمجية عن خصمهم الطوراني الذي جاءهم من صحارى منغوليا وآسيا الوسطى ونعني بهذا العدو الجديد الصليبيين الذين جاؤوا بلاد العرب يحملون في قلوبهم البغض لأهلها وفي عقولهم افكاراً ومبادىء أكل الدهر عليها وشرب . فكان لا بدّ من أن يشتبكوا في هذا الوسط الجديد في قتال مع اصحاب الأفكار الجديدة كان انتهى بفشلهم واخلائهم البلاد التي عاشوا فيها اكثر من جيل فعادوا إلى بلادهم يحملون مع البغض والتعصب الأعمى جراثيم افكار جديدة وعالم جديد ظلت تختمر وتنمو حتى ظهرت بعد عصرين أو اكثر في صور مختلفة تتجلى فيها أو في بعضها تلك الافكار والانظمة التي أخذها اجدادهم عن الشرق عامة الاسماعيليين خاصة .

الفصل الخامس

القرامطة

القرامطة هم عظم من عظام الاسماعيلية ولحم من لحمهم لا يختلفون عن غيرهم من فرق هذه الاخوية المتشتتة في جميع اطراف الخلافة العباسية إلا بأنهم كانوا يشتغلون بين العرب واخوانهم انباط العراق وسوريا وجزيرة العرب، أو بامور ثانوية قد يكون لها مساس بأساليب الدعوة فقط لا بالمسائل الاساسية المبدئية . فان صحّ هذا الظن يكون سبب هذا الاختلاف تباين الحقل الذي كانت تعمل فيه القرامطة ودرجة العمران بين سكان تلك البلاد ، كلهم أو اكثرهم كما نعلم من الاعراب ، ولهذا يظهر لي ان القرامطة العرب كانوا أقل تطرفاً في المسائل الدينية والأدبية من اسماعيلية الفرس ، وان بعض العادات الفارسية كالتزوج بالاخوات والقريبات ممن حرّم القرآن التزوج بهن لم يكن معروفاً عندهم كما لم تكن شائعة بينهم « ليلة الامام » وغير

ذلك من المحرمات وافعال الفسق والتهتك التي كانوا يتهمونهم بها كذبا وبهتانا مستندين في ذلك كما يظهر لي على تأويل فاسد لعبارة وردت في كتاب لابن الجوزي المؤرخ حيث قيل عنهم انه « لا يجوز لاحدهم أن يحجب امرأته عن اخوانه » فأوّل خصومهم كلمة « حجب » بمعنى منع أو بما شاءت اهواؤهم من مترادفاتها . ويظهر لي أيضاً ان زعماء القرامطة الذين اسسوا هذا الفرع بين العرب والسريان لم يكونوا مطلعين على اغراض رؤساء الحركة السرية (١) اما لأنهم لم يبلغوا الدرجة الاخيرة من التكريس أو لأنه لم يكن يسمح لهم بالوصول اليها - إذ لم يكن يصل اليها إلا القليلون . على انه من المحقق اليوم ان قرامطة البحرين والعراق العربي لم يكونوا يختلفون عن سائر الاسماعيلية في المسائل الاساسية المبني عليها برنامجهم وانهم كانوا يتبعون في جميع حركاتهم وسكناتهم الأوامر التي كانت تصدر اليهم من امام الزمان . ولهذا يجوز لنا ان نعد القرامطة فرعاً من فروع الشجرة الاسماعيلية الكبرى نيط بـه نشر الدعوة الشيوعية بين العرب والنبط خاصة » .

كان مركز هذا الفرع - وهو المكان الذي كان يقيم فيه داعيهم في أول الحركة - مدينة واسط بين الكوفة والبصرة

---

١ - يرى M . De Goeje ان القرامطة لم يكونوا مطلعين على اعظم اسرار الاسماعيلية اي على تأويلهم رجوع محمد بن اسماعيل تأويلاً فلسفياً (انظر كتابه المذكور ص ١٦٥)

والقرى المجاورة لهما وكان اكثر سكان هذه البلاد خليطاً من العرب والنبط والسودان الذين كان اصحاب الاراضي الواسعة يجلبونهم من أفريقيا لاعمال اراضهم واستغلالها على شروط تذكرنا بشروط الأشغال في الولايات الجنوبية من اميركا الشمالية قبل تحرير العبيد فيها ، فلا عجب والحالة هذه إذا كان اكثر سكان تلك البلاد مستائين من حالتهم الاجتماعية وميالين « إلى كل دعوة من شأنها ان تخفف عنهم حملهم الثقيل وتدعو إلى الرحمة والرأفة بهم ، وهذا سبب نجاح الدعوة القرمطية في تلك البلاد وتهافت الناس عليها اعتقاداً منهم ان « صاحب الزمان » ودعاته سوف يحررونهم من نير العبودية وظلم الدولة واصحاب الاملاك .

انا لا نعلم بالتدقيق من اسس المركز المذكور ولا متى أسس وشرع في العمل فيه إلا انه يغلب على ظننا انه أسس قبل حمدان القرمطي الذي عرفت الدعوة باسمه أو بالاصح ان بعض دعاة الاسماعيلية كانوا زاروا هذه البلاد قبل ان يزورها حماد إلا انهم لم يتركوا فيها اثراً بيّناً يدل على اقامتهم فيها مدة طويلة ولهذا لا مانع يمنعنا من أن نعد حماداً المذكور أول داع لهذا القطر وأول منظم لشؤون المركز الاسماعيلي الجديد .

ذكر المؤرخون ان حمدان ـ وقد كان قبلاً اكاراً بسيطاً يعتمل الأرض لغيره ـ جاء تلك البلاد مبعوثاً من داع أكبر

منه وانه بنى قرب الكوفة مركزاً جديداً للدعوة الاسماعيلية سماه « دار الهجرة » حيث كان يجتمع في اوقات معلومة كل من كان يدخل في دعوته من أهل القرى لاستماع مواعظه والنظر في احوال من قبل الدعوة الاقتصادية والاجتماعية ، ولتبليغهم ما كان حماد يتلقاه من « إمام الزمان » واعوانه من الأوامر والاخبار ثم لاقامة بعض شعائر رمزية لم تكن معروفة ومستعملة بين الاسماعيلية إلا في هذه القرى التي كان سكانها من النبط والعرب المستعربة ، فلما رأى حماد اقبال الناس على دعوته ودخولهم في المذهب الجديد افواجاً رتب لهم نظاماً يضمن نجاح الحركة وسيرها سيراً حثيثاً ويكون لهم دستوراً يرجعون اليه عند الحاجة ، فكان من شروط هذا النظام ان يؤدي كل عضو من اعضاء المذهب الجديد ديناراً في كل سنة للامام المحبوب زعيم الاسماعيلية ثم ضريبة كانت تعرف عندهم « بالفطر » وهي درهم كان يؤديه جميع الاسماعيليين بدون استثناء ، وضريبة اخرى تعرف « بالهجرة » وهي دينار كان يؤديه كل بالغ وبالغة لينفق في محله على حاجات « دار الهجرة » فكانوا يؤدونها عن طيبة خاطر حتى اذا عجز أحدهم عن تأديتها أداها عنه غيره راضياً مسروراً .

ذكر احد المؤرخين الصغار (١) ان حماداً بعد ان بنى

(١ – هو اخو محسن وحديثه مذكور في كتاب النويري ٠ انظر Chrestomathie arabe ج اول ص ١٨٢

« دار الهجرة » ورتب امورها عرض على من أحب ممن دخل في دعوته ان يؤدي ضريبة اخرى سماها « البلغة » وهي ضريبة خاصة كان يؤديها كل من اراد ان يشترك في « عشاء المحبة » (Agâpi) أي ان يأكل من « خبز الجنة » او كما سماه حماد نفسه « غذاء اهل الجنة » الذي كان يأتيه من إمام الزمان تواً . وزاد بعض الكتبة ان حماداً بعد ان وضع على اصحابه « البلغة » دعاهم ان يؤدوا لدار الهجرة خمس ما كانوا يملكون او يكتسبون فلبوا دعوته راضين ثم قدروا املاكهم ودفعوا عنها الخمس فرحين حتى كنت ترى المرأة تقدم للداعي خمس غزلها والفاعل خمس اجرته فكانت هذه الضريبة قسطاً يدفعه الشخص الى صندوق الاخوية ، إلا ان حماداً لم يكتف بهذه الضرائب بل أمر اهل القرى التي دخلت في دينه ان يحملوا الى محل واحد كل ما يملكون ، فلما جمعوه جعله مشاعاً بين الاعضاء يتولى توزيعه رجل منهم ذو ثقة فكان يجمع ما كان يحضره الاعضاء من أثاث وحلى وثياب ومأكولات ومال ثم يوزعه على المحتاجين من القرامطة حتى لم يبق بينهم فقير ، فكنت ترى الرجال منهم يشتغلون برغبة ونشاط والنساء يحملن الى «بيت الجماعة» ما كنّ يكسبنه من المال حتى ان الاولاد الصغار انفسهم كانوا يقدمون الى مدير البيت ما كانوا يأخذونه من الجعالة من أصحاب البساتين « التي كانوا يحرسونها

في النهار ويطيرون الطير عن أشجارها وبقولها ، حتى لم يعد أحد يملك لنفسه إلا «سيفه وسلاحه ».

هذا جل ما ذكره الكاتب المذكور عن النظام الجديد الذي سنه حماد القرمطي لاصحابه في العراق وقد أغفلنا ما عزاه الى زعيم القرامطة من الافعال والسنن المغايرة للآداب العمومية لاننا لم نتحقق صحتها .

فلما اتم داعي العراق مهمته في واسط انتقل الى محل آخر يعرف بكلوزة بالقرب من بغداد فاقام فيه مدة طويلة يعمل على نشر الدعوة الاسماعيلية ويكاتب فرع خراسان الذي كان ارسله الى الكوفة و « صاحب الزمان » الذي كان يقيم في عسكر مكرم ، وحماد يراقب في كل هذا الوقت مجرى السياسة في عاصمة بني العباس ليستفيد من اغلاطها ويطبق عليها سير الحركة الاسماعيلية عامة وسير الاعمال في المركز الذي أسسه خاصة وقد كان يساعده في ادارة اعمال فرع العراق ويقوم بجميع مكاتباته مع « صاحب الزمان » والخلايا الباطنية الاخرى نسيبه (اخو امرأته) عبدان صاحب بعض كتب القرامطة المقدسة . وعبدان هذا هو الذي عين زكرويه داعياً في العراق العربي وأبا سعيد الجنّابي في جنوب العجم والبحرين .

أخذت دعوة القرامطة تنتشر من واسط الى سائر البلدان العربية المجاورة لها والبعيدة عنها حتى بلغت جنوب جزيرة

العرب حيث تكونت خليـة او نواة اسماعيلية قوية اصبحت تناوىء بعد قليل من الزمن عمال السلطة المركزية وتستدعي انتباه خلفاء بغداد . ثم تكونت بمساعي ابي سعيد الجنابي خلية ثانية في الاحسا من بلاد البحرين صار لها بعد مدة قليلة شأن يذكر واصبحت من أهم مراكز الاسماعيلية على الاطلاق لان أبا سعيد المذكور عرف كيف يتقرب من عرب البحرين ويستميلهم الى دعوته التي وقعت بذورهـا في « ارض خصبة » فنمت سريعاً وانبتت نباتاً حسناً .

أخذت هذه الخلايا تنمو وتتسع حتى عمت اكثر البلاد العربية وسوريا والعراق وكانت كلها ترمي الى غرض واحد وتعمل تحت مراقبة دعاة محنكين مدربين كأبي سعيد الجنّابي المذكور وزكرويه الدنداني وغيرهما ممن كانوا يستمدون قواهم الروحية من دعاة اعظم منهم كصاحب الناقة (ابي عبدالله محمد) واخيه صاحب الخال (ابي عبدالله احمد) فلا عجب اذا عظم امر هذه الدعوة وأقبل الناس عليها من كل جانب حتى من عاصمة الخلافة حيث دخل فيها جماعة كبيرة من اصحاب الطبقات العالية كانت القرامطة تعتمد عليهم عند الملمات وكانوا لهم عيوناً على حكومة بغداد التي لم تكن تعرف من امر هؤلاء الخوارج إلا الشيء القليل فلم تكن تشعر بالخطر الذي أخذ يحدق بها ويتهدد كيانها الى ان دخلت سنة ٢٧٨ (=٨٩١)

فخرجت الاسماعيلية فيها من خفائها وأخذت تستعدلمهاجمة عدوها الأكبر .

ثم جاءت سنة ٢٨٤ (= ٨٩٧) وهي السنة التي حاولت فيها لأول مرة جماعةمن القرامطة ان تحقق برنامجها الاشتراكي بالفعل فلم توفق إلى ذلك فاضطرت ان ترجىء عملها إلى فرصة أخرى فأخذت تراقب خصمها وتبث عليه العيون ثم تخرج عليه كلما سنحت لها فرصة (سنة ٢٨٧ ، ٨٩٠ ، ٢٨٨ ، ٨٩١ ، ٢٨٩ ، ٨٩٢)وتقاوم عماله في الاقاليم البعيدة عن العاصمة لكنها لم تنجح في معركة من المعارك لأن عدوها كان لم يزل أقوى منها وكان يترأسه صنديد من صناديد بني العباس النادرين في هذه الاسرة ولا سيما في العصر المذكور وهو الخليفة المعتضد الذي بقي يقاوم الحركة الاسماعيلية ويرد شرها عن دولة اجداده إلى ان توفي سنة ٢٨٩ = ٨٩٢ فخلفه رجل ضعيف الهمة والارادة غير موفق في اعماله فلم يلبث زعماء الحركة الشيوعية ان استفادوا من ضعفه فاعادوا الكرة على خصمهم وانصبوا عليه من كل جانب حتى لم يعد في وسع السلطة المركزية أن تراقب حركات الاسماعيلية في كل الجهات وتخمد ثوراتها في الاقاليم البعيدة فصارت هذه الاقاليم تنفصل عن خلفاء بغداد وتؤلف كتلاً مستقلة .

نحن لا نرى من الضرورة ان نأتي هنا على ذكر الثورات العديدة التي قام بها القرامطة في السنين المذكورة ولا ان نتوغل في تاريخ الدول التي انسلخت عن الخلافة العباسية وأنشأت

امارات وممالك مستقلة لأن هذا ليس من شأننا الآن إلا انه لا بد ـ للاسباب التي بيناها سابقاً ـ من ذكر شيء من تاريخ احدى تلك الامارات وهي الامارة التي قامت على شواطيء خليج العجم وعرفت بامارة أو الاصح بجمهورية القرامطة .

ذكرنا ان من الدعاة الذين كانوا يعملون في العراق تحت مراقبة حماد القرمطي ابا سعيد الجنابي من قرية جناب في جنوب بلاد العجم (١) وان حماداً ارسله داعياً إلى البحرين . ونزيد على ذلك الآن ان أبا سعيد لم يكد يطأ أرض البحرين ويشرع في عمله حتى أخذ يلتف حوله سكان تلك المقاطعة على اختلاف طبقاتهم وعناصرهم من أهل المدن الناقمين من الدولة العباسية ونظامها السياسي والاجتماعي الذي لم يخلق لهم ولم يخلقوا له، ومن اعراب البادية الذين عرف عنهم من يوم ظهر الاسلام انهم كانوا يكرهونه ويكرهون شعائره واحكامه ولا سيما ما له علاقة بالزكاة والاعشار التي لم يتعودها البدو واظنهم لن يتعودوها (٢) فلا عجب والحالة هذه إذا رأيناهم يلبون دعوة أبي سعيد ويؤيدونه في بلادهم وقد دعاهم إلى ترك الشعائر الدينية واكثر

---

١ – نرجح ان ابا سعيد كان من طبقة العمال فقد ذكر عنه انه كان يشتغل بترقيع اكياس الطحين بأجرة بخسة جداً .

٢ – يعلم القارىء ان سكان البحرين كانوا في طليعة اهل الردة ومن خرج على الاسلام بعد وفاة النبي . (انظر مقالة الاستاذ بارتولد عن مسيلمة الكذاب .

حدود الدين التي لم يألفوها إلى ذلك الوقت . ثم إلى مؤاخاة الناس على اختلاف اجناسهم ودياناتهم ووعدهم بالسعادة على هذه ولأرض وفي هذه الدنيا لا في عالم آخر يكادون لا يتصورونه لا يعرفون عنه شيئاً ، فكان ممن قبل دعوة أبي سعيد وأخذ، يشد ازره ويساعده في نشر مبادئه في البحرين حسن بن سنبر (١) اوكان رجلاً وجيهاً محترماً في قبيلته وذا نفوذ كبير في البحرين فلما دخل في دين أبي سعيد وزوجه بنته قويت منزلة أبي سعيد في تلك البلاد وكثر اقبال الناس عليه فلم تمض على اقامته هناك مدة طويلة حتى أصبح ذلك الاقليم في يده ولم يبق في طاعة الخليفة إلا عاصمة البلاد وبعض القرى المجاورة لها . لكن أبا سعيد تمكن بعد زمن قصير من الاستيلاء عليها (سنة ٢٨٧ – ٩٠٠) وضمها إلى جمهوريته الشيوعية ثم أخذ يزحف منها على البصرة . فبلغ هذا الخبر الخليفة المعتضد فقلق له فأمر ان يمدوا عامله هناك ، وهو يومئذ عباس الغنوي ، بالمال والرجال فأمدوه بعشرة آلاف رجل فزحف على رأسهم لملاقاة القرامطة الذين كان يقودهم أبو سعيد نفسه . فلما التقى الجمعان قرب البصرة انكسر جيش الخليفة واسر قائده وتبددت عساكره تطلب النجاة في الفلاة فلم ينج منهم إلا القليل . اما من وقع في الاسر فانه قتل بأمر من أبي سعيد انتقاماً للقرامطة الذين قتلوا قبل هذه الوقعة

---

١ – وهو الذي عناه ابو العلاء المعري في بيته :

عكس الانام بحكمة من ربه فتحكم الهجري فيه وسنبر

في بغداد بأمر من خليفتها (١) ولم يبق أبو سعيد إلا على قائد جيش الخليفة عباس الغنوي المذكور فانه امر بالمحافظة عليه ثم اطلق سراحه وارسله إلى أمير المؤمنين ليبلغه ما كان من أمر جيشه وبأس القرامطة وليسلمه الكتاب الآتي (٢) الوحيد من نوعه .

قال ابو سعيد في كتابه هذا إلى امير المؤمنين وخليفة المسلمين:

« ما هذا ؟ أتخرق هيبتك وتقتل رجالك وتطمع اعداءك في نفسك بانفاذ الجيوش الي وإنما انا رجل في فلاة ولا زرع عندي ولا ضرع ولا لي بلد وقد رضيت بخشونة العيش والامن على المهجة والعز باطراف الرماح! وانظر فاني ما اغتصبتك بلداً كان في يدك ولا ازلت سلطانك عن عمل جليل ومع هذا فوالله لو نفذت جيشك كله ما جاز ان تظفر بي ولا تنالني لاني رجل نشأت في هذا القشف فتعودته انا ورجالي فلا مشقة علينا فيه ونحن في اوطاننا مستريحون وأنت تنفذ جيشك من الحرير والثلج والرياحين والند ثم يجيئون من مسافة بعيدة وطريق شاق فيصلون الينا وقد قتلهم السفر قبل قتالنا وانما غرضهم ان يبلوا عذراً في قتالنا ومواقعتنا ثم يهربون فان

---

١ – انظر التاريخ الكامل لابن الاثير ج ٥ ص ١٨٢ و ١٨٩ (من الطبعة المصرية) .

٢ – انظر « تجارب الامم » لابن مسكويه ج ٧ ص ٥ (طبع Memorial E . J . W · Gibb)

حقوا مع ما قد لحق بهم من وعثاء السفر وشدة الجهد كان اكبر اعواني عليهم فما هو إلا ان حققت عليهم حتى ينهزموا . واكثر ما يقدرون عليه ان يجيئوا فيستريحوا ثم تكون عدتهم كثيرة وبصيرتهم قويةفحينئذٍ لا يكون لي بهم قبل فأنهزم فلا يقدر جيشك ان يتبعني إلا مسافة قريبة فما هو ان ابعد عشرين فرسخاً او ثلاثين وأجول في الصحراء شهراً او شهرين ثم أكبسهم على غرة حتى أقتل جميعهم ، وان لم يتم لي هذا وكانوا متحوزين فيما يمكنهم ان يطوفوا حولي وخلفي في البراري ولا يتبعني الطلب في البوادي ثم لا يحملهم البلد في المقام ولا الزاد ان كانوا كثيرين فلا بد ان ينصرف الجمهور ويبقى منهم قتلى سيوفي اول يوم نلتقي فيه هذا ان سلموا من وباء هذه الناحية ورداءة مائها وهوائها الذي لا طاقة لهم به لأنهم نشأوا في ضده وربوا مع غيره ولا عادة لاجسامهم بالصبر عليه .

« ففكر في هذا ونحوه وانظر هل يعني تعبك وتغريرك بعسكرك وجيشك وانفاقك الاموال وتجهيزك الرجال وتكلفك هذه الاخطار وتحملك المشاق بطلبي وانا مع هذا خالي الذرع منها سليم النفس والاصحاب جميعاً . واما هيبتك فتخرق واما الاطراف فتنتقض واما الملوك من الاعداء فتتجاسر كلما جرى عليك من هذا شيء ،ثم لا تظفر من بلدي بطائل ولا تصل مني الى حال ولا مال . فان اخترت

بعد هذا محاربتي فاستخر الله تعالى واقدم على بصيرة وانفذ من شئت واضطرب كيف احببت وان امسكت فذلك اليك » .

فلما قرأ الخليفة كتاب أبي سعيد امتعض جداً واراد ان يزحف عليه بنفسه إلا ان حالة الخلافة في ذلك الوقت وعلى الاخص حالة الجيش الخليفي وبيت المال اضطرته إلى قبول نصيحة خصمه فتركه وشأنه ، وهذا كل ما كان يرجوه أبي سعيد فانه انتهز هذه الفرصة النادرة واستولى على مدينة حجر عاصمة البحرين بعد حصار طويل ثم استولى على غيرها من البلاد والأراضي التي كانت لم تزل تحت سلطة الخليفة أو شيوخ وأمراء مستقلين حتى صار كل اقليم البحرين في يده (سنة ٢٩٠ - ٩٠٣) لا يزاحمه فيه مزاحم ، لكنه لم يكتف بذلك بل اخذ يستعد للاستيلاء على البلاد المجاورة للبحرين وبث دعوته فيها فزحف الى اليامة وضمها الى بلاده ثم اتى عمان فاستولى على قسم كبير منها ومن الجزائر التابعة لها . ولولا ان يتوفاه الله (قتل في الحمام سنة ٩١٤) لضمها كلها الى جمهوريته بل كان ضم غيرها من البلاد العربية والعراق وألف منها جمهورية كبيرة مبنية على اسس اشتراكية جديدة .

توفي ابو سعيد عن ابناء كثيرين لم يشتهر منهم بعلو الهمة وبعد النظر والثبات في القتال إلا ابو طاهر سليمان وهو

الذي خلف اباه في وظيفته وأخذ يعمل على تحقيق أمانيه فلم يكد يتولى الحكم وقيادة الجيش القرمطي حتى أخذ يزحف تارة على البصرة وبغداد وطوراً الى الغرب أي الى الحجاز والحرمين . وهو في كل غزواته موفق ومعقود له الظفر حتى صار الخليفة يخشى بأسه وصارت العاصمة وسكانها يرتعدون عند ذكر اسمه او اسم القرامطة فاصبحت كلمة « قرمطي » مرادفة لكلمة جندي مخيف لا يقهر يخوفون به اولاد بغداد . وقد ساعد على انتشار هذا الخوف ظهور قرامطة الشام وقطعهم الطرق على الناس ونهبهم السابلة الى غير ذلك من النكبات التي أصابت الخلافة العباسية في الربع الاول من العصر العاشر فأحرجت مركزها وجعلت سقوطها قاب قوسين او اقرب . وان اعظم نكبة أصابتها في هذا الوقت وكادت تقضي على هيبتها ونفوذها الادبي هي ولا شك دخول ابي طاهر مكة عنوة (في ١٢ كانون الثاني من سنة ٩٣٠) وسلبه بيتها المقدس وقتله حجاجها وسكانها الى غير ذلك من الفظائع التي اقترفها هو وجيوشه في بيت الله والمدينة مما لا بد من ذكر بعضه هنا للوقوف على قسم من برنامج القرامطة له علاقة بالدين والادب .

يظهر ان الغرض من الزحف على مكة والاستيلاء عليها كان اولاً الانتقام لأحد دعاة القرامطة الكبار وهو زكرويه ولجنوده الذين أسرهم امير الامراء سنة ٩٢٩ وأمر الخليفة

بقتلهم ، وثانياً الحط من قدر خليفة بغداد وهيبته في عيون المسلمين ، وثالثاً إشغال الخليفة وجيشه عما كان يجري في هذا الوقت من الحوادث المهمة في افريقيا الشمالية حيث بدأ « إمام الزمان » وزعيم الاسماعيلية الاكبر عبيد الله يمهد السبيل لنزع تلك البلاد من أيدي عمال خلفاء بغداد او حلفائهم وتأسيس دولة مستقلة عرفت بعيد ذلك بالدولة الفاطمية .

فاذا صح ذلك كان الباعث على هذه الغزوة ليس حب السلب والقتل فقط بل أسباب سياسية وحربية مهمة تخفف ولو قليلاً من ذنب ابي طاهر وأصحابه لما فعلوه في البيت الحرام من الفظائع . ومع ذلك ومهما كانت أسباب تلك الغزوة الحقيقية فان أبا طاهر لم يكن يدع فرصة تسنح او سنة تمر إلا واستفاد منها ، فكان يتعرض للحجاج في طريقهم الى الحرمين او منها ويحاول ان يمنعهم من تأدية الحج وإقامة شعائره التي كان يحسبها من شعائر الجاهلية ومن قبيل عبادة الاصنام حتى كاد يقضي على الحج وشعائره (١) وينسي المسلمين طريقهم الى الحرمين إلا في ما ندر من السنين . وكان يقتصر في هذه الغزوات على نهب الحجاج ومنعهم من زيارة البيت الحرام إلى ان دخلت سنة ٣١٢ - ٩٢٤ وهي السنة التي نكب

---

١ - ومنها ان في سنة اربع عشرة وثلثمائة وفي سنة خمس عشرة وثلثمائة وفي سنة ٣١٦ لم يحج الى مكة من العراق على ما ذكر العقيقي ... للخوف من القرمطي » (انظر اخبار مكة طبع Wûstenfeld ج ٢ ص ٢٤٥) .

فيها الحجاج أعظم نكبة من يوم ابتدأ العرب والمسلمون يحجون إلى الكعبة .

ذكر مؤرخو العرب ان عدد الذين قتلهم القرامطة في تلك السنة من حجاج المسلمين وفي بيت الله وشوارع مكة وضواحيها بلغ ثلاثة آلاف ما عدا الذين ماتوا من الجوع في الفلاة والذين اسرهم العدو وبينهم جماعة كبيرة من اهل العلم واصحاب المقامات العالية كالازهري (توفي ٣٧٠) وعبدالله بن حمدان ابي الامير سيف الدولة وغيرهم. وذكروا ايضاً ان ما غنمه القرامطة في تلك الغزوة من الاموال فقط بلغ بضعة ملايين من الدنانير ارسل قسم منهـا الى « الامام » وانفق الباقي على حاجات « المؤمنـين » اي القرامطة .

بلغت اخبار هذه النكبة العظيمة وتفاصيلها الفظيعة عاصمة الخلافة وسائر الاقطار الاسلامية فضج الناس لها وأخذوا يهجرون العاصمة او ينقلون الى الشاطىء الآخر ويعتصمون بجدران بيوتهم والعدو لا يزال بعيداً عنهم .

حاول ابن الفرات وزير الخليفة يومئذ ان يخفف من ألم المصاب ويسكن روع سكان العاصمة ويتلافى الخطر الذي أخذ يهدد الاسلام وعاصمته بالطرق الدبلوماسية القديمة أي بالتهديد تارة وبالوعود والهدايا مرة اخرى فلم يوفق الى

ذلك لأن هذه الوسائل لم تعد تجدي نفعاً ولم يكن طاهر لينخدع بها لأنه كان واقفاً بواسطة اعوانه في بغداد على حالة الدولة الحقيقية وقوة خلفاء بغداد المادية والادبية ، فصار يطمع بتوسيع املاكه وضم البلاد العربية كلها الى جمهوريته الصغيرة . ولهذا طلب الى الوزير المذكور ان يتنازل له باسم الخليفة عن البصرة والاهواز . ولما لم يجب الى طلبه زحف على الكوفة واحتلها وقتل اكثر سكانها ودنس مسجدها الاكبر بان حوّله الى اصطبل لخيله . ثم اخذ يفكر في الزحف على العاصمة نفسها لكنه لم يقدم على ذلك لاسباب نجهلها فخافه الناس وبطل الحج بضع سنين .

اما حكومة بغداد فانها كانت عاجزة عن مقاومة القرامطة بالقوة المسلحة فكانت تكتفي بالقبض على بعض اشخاص ينتمون اليهم او هي تظنهم منهم فتوقع بهم ، او يهدم مسجد(١) من مساجد بغداد كان يجتمع فيه بعض القرامطة المتكتمين . فقد ذكر ابن الجوزي انه كان للقرامطة « خواتيم من طين ابيض يختمها لهم الكعكي (٢) وعليها « محمد بن اسماعيل الامام المهدي ولي الله » (٣) فكانت حكومة بغداد تعرفهم

---

١ – كان يعرف بمسجد براثا « حيث كانت تجتمع الروافض فتشتم الصحابة » .

٢ – هو رئيس الروافض وكان يدعو الى مذهب القرامطة .

٣ – انظر المتن في تأليف M. De Goeje المذكور ص ٢١٦

بهذه الخواتيم فتقبض عليهم وتقتص منهم حين كانت تعجز عن محاربة اخوانهم خارج اسوار العاصمة . نعم انها جرّبت ان تجرد عليهم جنود اذربيجان تحت رئاسة الامير يوسف ابن الساج عامل الخليفة هناك ، إلا ان هذا العمل لم يؤدِ الى نتيجة حسنة او الاصح كان يؤدي الى نتائج سيئة وذلك انه كان العامل المذكور ضلع مع القرامطة فكان يطلعهم على اسرار حكومة بغداد واسرار جيشها ، لانه كان ينتظر قرب سقوط الدولة العباسية او يعمل مع غيره على ذلك راجياً ان يقيم على انقاضها دولة مستقلة في اذربيجان يجعلها اوثاً في ولده ، وهذا ما كان يحلم به قبله رجل آخر من اسرته يدعى محمداً ، هذا اذا صحت وشاية الامير يوسف ، محمد بن خلق اليزاماني ، التي ادلى بها الى نصر صاحب الخليفة وقد ذكر فيها « ان يوسف كان يستر عنه (عن كاتبه) مذهبه في الدين وانه لما سار الى واسط أنس به وانبسط اليه فكشف له ان يتدين بان لا طاعة (للخليفة) المقتدر عليه، ولا لبني العباس على الناس طاعة ، وان الامام المنتظر هو العلوي الذي بالقيروان، وان أبا طاهر الهجري صاحب ذلك الامام ، وانه قد صح عنده انه يتدين بدين القرامطة . . وانه (اي يوسف) يرى انتقاص المقتدر وسائر ولد العباس الغاصبين أهل الحق فرضاً لله عز وجل عليه وان طاعته

طاغية الروم اصلح من طاعته للخليفة (١) » .

فان صحت هذه الوشاية نتج عنها انه لم يبق عند بني العباس رجال مخلصون يعتمدون عليهم عند الحاجة وان أقرب الناس اليهم كوزرائهم وحجابهم وعمالهم على البلاد وأمراء جنودهم أصبحوا يميلون إلى خصومهم ويتجسسون لهم ويدسون لدولتهم الدسائس أو على الأقل صار يرتاب في اخلاصهم لولي نعمهم وللدولة التي اقسموا لها المحبة والاخلاص . وأبعد من ذلك في الدلالة على سوء الحال ان الداء لم يقتصر على الطبقة العالية بل تناول سائر الطبقات بل العائلات والأفراد حتى كنت ترى في العائلة الواحدة نزعات سياسية واجتماعية متباينة كانت تفرق بين الزوج والزوج والابن وأبيه والأخ وأخيه والصديق وصديقه « فصار الناس فيهم (في القرامطة) فريقين فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة فمن عاداهم خاف من بطشهم ومن سالمهم نسب إلى شركهم . وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين » (٢) . وها نحن موردون من تاريخ ابن الاثير حكاية وحيدة من نوعها تجلت فيها روح ذلك العصر ودرجة انحلال الهيئة الاجتماعية الأدبي وتأثير الحركة الاسماعيلية على عقول الناس وحياتهم الاجتماعية

---

١ - التأليف المذكور ص ٩١

٢ - انظر تاريخ آل سلجوق المذكور ص ٦٣

وخلاصة هذه الواقعة ان شاباً من التحق بالاسماعيلية واشترك في غزوة أبي طاهر التي انتهت كما ذكرنا بقتل بعض الحجاج وسبي البعض الآخر ، رأى بين السبايا اللواتي اخذهن القرامطة امرأة فتفرس فيها فإذا هي أمه فسألها عن حالها ودينها فلما عرف انها لا تزال مسلمة على مذهب أهل السنة والجماعة أعرض عنها وأبى أن يساعدها .

ثم لما عرف انها حصلت على رخصة من زعيم القرامطة للرجوع إلى بناتها اللواتي بقين وحدهن في بغداد لحقها وضربها بالسيف .

قالت « فجرحني ومنعه القوم وساروا بي إلى القوم الذي سماه لهم صاحبهم وتركوني وجئت إلى ها هنا .

قالت ولما قدم الأمير بالقرامطة وبالاسارى رأيت ابني فيهم على جمل عليه برنس وهو يبكي فقلت له :

لا خفف الله عنك ولا خلصك » (١) .

فهل من بغض أشد من هذا البغض ، وهل ذكر التاريخ الاسلامي عداوة أشد من هذه العداوة ، بل هل مرّ تاريخ الاسلام بدور بلغ فيه التفكك الاجتماعي والتنافر بين طبقات الناس هذا المبلغ ؟

ووالله ان أمة انقسم ابناؤها قسمين أقسم كل منهما ان يموت أو يقهر عدوه لا بد ان يؤول أمرها إلى الزوال أو أن

---

١ - ج ٧ ص ٣٦٢ (من الطبعة الاوروبية)

يتغلب فريق منها على فريق آخر فيفنيه أو يبتلعه ، وويل يومئذ للمغلوب في هذه الحرب المبدئية التي لا تعرف رحمة ولا شفقة .

أخذ الفريقان يستعدان للنزول الأخير ويهيئان له أسبابه فلما حان الوقت وظن كل منهما انه هو الأقوى وان الظفر معقود له ، اشتبكا في حروب عديدة كانت حتى سنة ٣١٢ — ٩٢٤ سجالاً بينهما . ثم أخذ الحظ يخون جيوش الخليفة ويبتسم للقرامطة فاستولوا سنة ٣١٥ — ٩٢٧ مرة أخرى على البصرة ونهبوها ثم كسروا عساكر يوسف بن ساج عامل أذربيجان الذي ارسله الخليفة مدداً لعامل المدينة المذكورة وبددوا شملهم . وكذلك فعلوا بسائر الجيوش التي كان يرسلها خليفة بغداد ضد القرامطة حتى ضج الناس وشملهم الرعب فصاروا يختلقون الأحاديث الغريبة عن جيوش أبي طاهر وعدده ويعتقدون أن نجاحه في ساحات الحرب يرجع إلى مخاريق واعمال سحرية يقوم بها هو وأصحابه في معمعان القتال ، وان قوى غير بشرية تساعده إلى غير ذلك من الترهات التي كان يمليها عليهم الخوف ، في حين ان انتصار القرامطة في اكثر المواقع لم يكن إلا نتيجة اجتماع كلمتهم وطاعتهم العمياء لزعيمهم وثقتهم التامة به وثباتهم في القتال المتوقف على اعتقادهم الراسخ في صحة ما يقاتلون عليه ، فضلاً عن انهم كانوا اشد بأساً وأثبت جنانا وأقوى على احتمال مشقات الحرب من جنود الخليفة الذين كان اكثرهم من سكان

المدن المعتادين الراحة « والثلج والرياحين والنديم » كما قال رئيس القرامطة في رسالته السابقة إلى الخليفة المقتدر .

ذكر ابن الجوزي » (١) ان احدهم سأل يوماً قرمطياً عن اسباب انتصارات أصحابه مع قلة عدد جيوشهم فاجابه القرمطي :

« لأنا نطلب نجاتنا في الثبات وأنتم تطلبونه في الهرب » (٢)

ولعل هناك اسباباً أخرى لا حاجة هنا إلى البحث عنها نذكر منها جواز خيانة رئيس الجيش الخليفي وهو يوسف بن ساج المذكور ان صح ما ذكره عنه كاتبه .

كان لانتصار القرامطة الاخير وسقوط البصرة في أيديهم ضجة كبيرة في بغداد وتأثير قوي على سكانها الذين اخذوا يفرون (٣) منها إلى ما جاورها من البلاد لأن الطريق اليها أصبحت مفتوحة ولأنه لم يعد لدى الخليفة جيش يعتمد عليه ويرد به غارات القرامطة ان هم ارادوا ان يفتحوا دار الخلافة أو

---

١ – انظر ملحق كتاب M . de Goeje ص ٢١٥

٢ – « ولما علم المقتدر بعدد عسكره وعسكر القرامطة قال : لعن الله نيفاً وثمانين الفاً يعجزون عن الفين وسبعمائة » (ابن الاثير ٨ ص ١٢٧)

٣ – « وورد الخبر الى بغداد فخاف الخاص والعام من القرامطة خوفاً شديداً وعزموا على الهرب الى حلوان وهمذان ودخل المنهزمون بغداد واكثرهم رجالة حفاة عراة » وجاء في موضع اخر : « ولما اشرفوا (القرامطة) على عسكر الخليفة هرب منهم خلق كثير الى بغداد من غير ان يلقوهم » (الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ١٢٥)

يحتلوها احتلالاً دائماً ، إلا أن أبا طاهر لم يكن يفكر - لاسباب لا نعلمها - في الزحف مع جيشه الصغير على عاصمة الخلافة فلوى راجعاً إلى بلاده مكتفياً بما أصابه من الغنائم وبما وضعه من الضرائب على المدن والقبائل التي كان يمر بها في طريقه إلى عاصمته البحرين . فلما ترك البصرة أرسل إلى مونس قائد جيش الخليفة قصيدة تهكمية يقول فيها :

قولوا لمونسكم بالراح كن أنساً واستتبع الراح مرقايا ومزمارا
وقد تمثلت عن شوق تقاذف بي بيتا من الشعر للماضين قد سارا
نزوركم لا نؤاخذكم (كذا) بجفوتكم ان الكريم إذا لم يستزر زارا
ولا نكون كأنتم (كذا) في تخلفكم من عالج الشوق لم يستبعد الدارا

لم يكد سليمان أبو طاهر يدخل عاصمة بلاده ويستريح حتى أخذ يستعد بأمر ، كما يظهر لنا ، من « صاحب الزمان » لغزوة بعيدة لم يقدم عليها قبله أحد ممن دخل في دين النبي العربي فلم يطلع على عزمه وغايته أحداً إلى أن تمت معدات السفر فترك عاصمة بلاده وخرج يريد بيت الله الحرام ليضرب الاسلام في صميم قلبه ويقضي عليه في منشأه ان استطاع إلى ذلك سبيلا. ولعل قصده من هذه الغارة كان ان يقضي أيضاً على هيبة خلفاء بغداد ونفوذهم السياسي والأدبي في دار الاسلام .

دخلت سنة ٣١٧ - ٩٣٠ وليس فيها ما يدعو إلى القلق فأخذت الوف الحجاج ترد إلى بيت الله آمنة لا هم لهم إلا قضاء

شعائر الحج والعود إلى بلادهم سالمين مطمئنين . لكنهم لم يكادوا يتمون هذه الشعائر وبعضهم لم يبدأ بها حتى جاءتهم الأخبار ان أبا طاهر زاحف على مكة في جيش مؤلف من ٦٠٠ فارس و ٩٠٠ رجل . ولم يمض على شيوع هذه الاخبار بضعة ايام إلا وكان أبو طاهر وأصحابه على ابواب مكة ، واميرها (١) وجماعة كبيرة من أعيانها يستعطفونه ويحاولون أن يقنعوه بالرجوع إلى بلاده مزوداً بالمال والهدايا الثمينة فلم يوفقوا إلى ذلك فدخل أبو طاهر وأصحابه مكة وأخذوا يقتلون أهاليها ومن كان فيها من الحجاج من رجال ونساء « وهم متعلقون بالكعبة ، وردم بهم زمزم وفرش بهم المسجد وما يليه وقتل في سكة مكة وشعابها من أهل خراسان والمغاربة وغيرهم زهاء ثلاثين الفاً وسبى من النساء والصبيان مثل ذلك . وأقام بمكة ستة ايام ولم يقف أحد تلك السنة بعرفة ولا وفى نسكاً » . وكان أشد الناس قساوة وأقلهم رحمة أبو طاهر نفسه فكان ينتقل من مكان إلى مكان آخر في الكعبة والمدينة ومن جماعة إلى جماعة أخرى وهو يدعو أصحابه ، وقد ثملوا بسورة الفتح وما غنموه من المال والحلى ، ان اجهزوا « على الكفار وعبدة الاحجار » ودكوا أركان الكعبة واقلعوا الحجر الاسود حتى لا يبقى منه أثر (٢)

---

١ — وهو محمد بن اسماعيل المعروف بابن مخلب (او محلب او محارب)

٢ — وطلع ابو طاهر الى باب الكعبة وقلع بابها الشريف وصار يقول :

انا بالله وبالله انا يخلق الخلق وافنيهم انا

حدث أحد الذين كانوا في الكعبة يوم دخلها أبو طاهر يصف حالة مكة والحرم وما أصاب الحجيج في تلك السنة قال :

« رأيت رجلاً قد صعد البيت ليقلع الميزاب ولم يقلع ثم سكنت النائرة (١) بعد يوم أو يومين . قال فكنت أطوف بالبيت فإذا بقرمطي سكران وقد دخل المسجد بفرسه فصفر له حتى بال في الطواف وجرد سيفه ليضرب به من لحق وكنت قريباً منه فعدوت فلحق رجلاً كان إلى جانبي فضربه فقتله ثم وقف وصاح يا حمير ! ألستم قلتم في هذا البيت من دخله كان آمناً وكيف يكون آمناً وقد قتلته الساعة بحضرتكم » (٢)

وحدث آخر ممن أسرهم القرامطة قال : « تملكني رجل منهم كان يسومني سوء العذاب ويستخدمني أعظم خدمة ويعربد علي اذ سكر ، فسكر ليلة وأقامني حياله وقال :

ما تقول في محمد هذا صاحبكم ؟

قلت : لا أدري ولكن ما تعلمني ايها المؤمن اقوله .

فقال : كان رجلاً سائساً ، فما تقول في أبي بكر ؟

فقلت : لا أدري .

فقال : كان ضعيفاً مهيناً ، فما تقول في عمر ؟

---

١ - النائرة هي العداوة والشحناء .

٢ - انظر Chroniken D . Gtadt Mekka III 162 اخبار مكة «مجموعة اخبار نشرها المستشرق Wüstenfeld ج ٣ ص ١٦٢

قلت : لا أدري .

قال : كان والله فظاً غليظاً ، فما تقول في عثمان ؟

قلت : لا أدري .

قال : كان جاهلًا أحمق ، فما تقول في علي :

قلت : لا أدري .

قال : كان ممخرقا ..

فإذا القوم زنادقة لا يفكرون في أحد من الصحابة » (١)

وحدث ابن الجزار (٣٩٥) عن رجل ثقة ان « أحد اصحاب أبي طاهر دخل الحرم وأنا بين القتلى جريح مطروح لا أبدي حراكاً إلى أن داسني بحافر فرسه فلما رآني تحركت تقدم إليّ وسألني أتعرف سورة الفيل ؟

فقلت : نعم اعرفها .

فقال : أين الابابيل ؟

فقلت : حيث شاء ربك .

فصاح بي ، ايها الحمير انكم تسجدون للحجارة وتطوفون حولها وترقصون اكراماً لها وتمسحون وجوهكم بها وفقهاؤكم الذين تتفقهون عليهم لا يعلمونكم شيئاً خيراً من هذا فلم يبق لمحو هذه الخرافات إلا هذه السيوف والسلام (٢) .

---

١ — M . De Goeje كتابه المذكور ص ٢٣٠

٢ — الكتاب نفسه « نظراً لعدم وجود الاصل بين يدينا عربنا العبارات المذكورة عن الترجمة الفرنساوية » .

أقام أبو طاهر وأصحابه في مكة اثني عشر يوماً وهم يعملون السيوف باهاليها وبحجاج بيت الله وينهبون اموالهم ويأتون من الافعال ما تقشعر له الابدان وقد اخذوا كل ما وصلت اليه ايديهم من الحلى الثمينة والتحف القديمة التي كانت معلقة على جدران الكعبة أو محفوظة في خزائنها كالدرة الثمينة ذات الاربعة عشر مثقالا وقرطي مريم وقرن ابراهيم وعصا موسى المرصعة بالذهب الخالص والاحجار الثمينة إلى غير ذلك من المثمنات النادرة والاواني الغالية التي نقلها أبو طاهر إلى عاصمة بلاده أو كسرها ثم ذراها في الهواء حتى لا يبقى منها أثر . وقد بالغ أحد الناقلين في مقدار ما أخذه معه إلى عاصمة البحرين فقال انه سخر خمسين جملًا لنقل ما نهبه من الكعبة فقط ومئة الف جمل لما غنمه في المدينة وضواحيها ونقل السبايا اللاتي بلغ عددهن مقداراً كبيراً إلا ان اكثرهن عاد إلى مكة أو بلادهن البعيدة بمساعدة بني هذيل الذين كمنو للقرامطة في الطريق واضطروهم إلى اخلاء سبيل اكثر السبايا .

كان في جملة ما نهبه القرامطة في مكة الحجر الاسود المعروف وهو الحجر الذي كانت ولا تزال الحجاج تطوف حوله وتتبرك به فبقي هذا الحجر في الاحسا ملقى في احدى زوايا المدينه ومهجوراً الى سنة ٣٣٩ ـ ٩٥٠ حين رده القرامطة بأمر من المنصور أحد الخلفاء الفاطميين (٩٤٩ ـ ٩٥٣) الذين كانت القرامطة تأتمر بأمرهم في بادىء الامر كما سنرى بعيد ذلك

خرج ابو طاهر وجماعته من مكة وهم ينشدون :

فلو كان هذا البيت لله ربنا لصبّ علينا النار من فوقنا صبّا
لأنا حججنا حجة جاهلية محللة لم تبق شرقاً ولا غربا
وإنا تركنا بين زمزم والصفا جنائز لا تبقي سوى ربها ربا

كان ينتظر ان يكون لهذه المصيبة العظمى التي أصابت الاسلام (١) وقع شديد على جميع المسلمين وخليفتهم في بغداد وتكون من وراء ذلك حركة طيبة تؤدي الى جمع قوى المسلمين المادية والروحية ووضع حد لغزوات القرامطة وفظائعهم وتهكمهم على الدين وأهله ، ولكن أنى ذلك « ولم يبق لخلفاء بني العباس في هذا الوقت إلا الاسم » ولم يبق من عزهم السابق إلا الالقاب الطويلة العريضة ؟.

خليفة مات لم يأسف له أحد وقام آخر لم يفرح به أحد
فمرّ ذاك ومر الشؤم يتبعه وقام هذا فقام النحس والنكد

وقال آخر :

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

فالسلطة الحقيقية في هذا العصر كانت في الحقيقة في

١ - « وتلك مصيبة ما اصيب الاسلام بمثلها » انظر مجموعة Chron.D. Stadt Mecca ج ٣ ص ١٦

ايدي امراء الجيش واكثرهم من الاتراك (١) ، ثم في ايدي اصحاب الدوواوين والوظائف العالية Burocratie واكثرهم من الفرس وغير العرب الذين لم تكن تهمهم إلا مصالح دواوينهم او منافعهم الشخصية ، ومن شذ عن هذه القاعدة ، التي كادت تكون عامة ، كرئيس الحكومة الوزير العاقل الفاضل علي بن عيسى ، كان عاجزاً عن بث روح جديدة في جسم الدولة المريض وحفظها من الانحلال السريع فكأنه هو ايضاً كان يشعر بدنو اجل دولة المنصور فلم تكن له قدرة على تنجيتها او رغبة في توثيق عراها ، ولهذا لم تحدث واقعة مكة في بغداد إلا ضجيجاً لم يخف امره على القرامطة الذين كانوا يعرفون حقيقة الحال في عاصمة بني العباس بواسطة أتباعهم هناك الذين كانوا يرسلون لهم الاخبار مع الحمام (٢)

مضى على نكبة حجاج مكة ما يزيد عن سنة وحكومة بغداد لم تبدِ حركة يستدل منها على انها تنوي تعقب

---

١ – قال المسعودي في الاشراف « ولم نعرض لوصف اخلاق المتقي والمستكفي والمطيع اذ كانوا كالمولى عليهم لا امر ينفذ لهم ... متفرد بالامور غيرهم فصاروا مقهورين خائفين قد قنعوا باسم الخلافة ورضوا بالسلامة » ص ٣٩٦ وهكذا قل عن اكثر خلفاء هذا العصر (انظر كتاب تاريخ الوزراء لابن طباطبا) .

٢ – انظر تحفة الامراء في تاريخ الوزراء لهلال الصابي (بيروت ١٩٠٤) ص ٣١٥

القرامطة للاقتصاص منهم او وضع حد لغاراتهم في المستقبل ، فلما رأى القرامطة ضعف الحكومة وأيقنوا انها عاجزة عن قتالهم قرروا ان يستفيدوا من هذه الحالة فزحفوا على عمان واحتلوها سنة ٣١٨ – ٩٣٠ فكان احتلالهم لها احتلالاً لجزيرة العرب كلها لما لعمان من الاهمية الاقتصادية والحربية ولأن في الاستيلاء على البلاد المذكورة تأميناً على الجيش القرمطي من الخلف ، وهذا مكّن ابا طاهر من الزحف في السنة الآتية على الكوفة واحتلالها ، والكوفة كما يعلم القارىء مفتاح بغداد وحصنها الحصين فلو اراد أبو طاهر أن يدخل في تلك السنة بغداد ويجهز بذلك على سلطة بني العباس لاستطاع ، إلا انه اكتفى بأخذ الكوفة ونهبها حسب عادته ثم تركها وعاد إلى عاصمته وهو ينشد :

اغركم مني رجوعي إلى هجر فعما قليل سوف يأتيكم الخبر
إذا طلع المريخ من أرض بابل وقارنه النجمان فالحذر الحذر
ألست أنا المذكور في الكتب كلها ألست انا المنعوت في سورة الزُمر
سأملك أهل الأرض شرقاً ومغرباً إلى قيروان الروم والترك والخزر [1]

وكان رجوعه إما لاسباب داخلية أو بأمر من خليفة مصر

---

١ – انظر مختصر كتاب الفرق بين الفرق لعبد الرزاق الرسعني (طبع الاستاذ فيليب حتي مصر ١٩٢٤) ص ١٧٧

الفاطمي أو لاعتبارات فلكية (١) كانت القرامطة تثق بها وتبني عليها أموراً كثيرة في حياتها الاجتماعية والفردية . على كل حال يظهر ان رجوع أبي طاهر إلى عاصمة بلاده وتأجيله فتح عاصمة خصمه الأكبر لم يكونا عن ضعف أو تردد في وجوب فتح بغداد بل عن أسباب عرضية اضطرته إلى ارجاء ضربته الأخيرة لدولة بني العباس إلى فرصة اخرى كما يستفاد من بعض الابيات المذكورة فوق ذلك . إلا ان الظروف لم تسمح لأبي طاهر ان يقوم بوعده في القريب العاجل .وهذه الظروف هو ما وقع بين القرامطة من الفتن الداخلية التي احدثها بينهم أحد مشعوذي خراسان فألهاهم بها عن متابعة حروبهم مع جيوش الخليفة واضعف قواهم المادية والمعنوية فاضطروا ان يتربصوا حتى إذا دخل عام ٣٢٥ = ٩٣٧ زحف أبو طاهر مرة أخرى على الكوفة فإحتلها واضطر الخليفة أن يعقد معه هدنة ويؤدي له مئة وعشرين الف دينار كل سنة ويعطي عن كل حاج ضريبة معلومة ثم هو لم يكتف بذلك بل أخذ يتدخل من السنة المذكورة في سياسة بغداد ويؤثر على سير الاعمال فيها .

بقيت الامور على هذه الحالة نحو نصف قرن لم تؤثر فيها

---

١ يظهر ان القرامطة كانوا يستدلون بالمراقبات الفلكية على سقوط الدولة العباسية في سنة ٣٢٠ - ٩٣٢

وفاة (١) أبي طاهر (٣٣٢ = ٩٤٣) لأن خلفاءه ، واكثرهم من ابنائه وانسبائه الأقربين ، ورثوا عنه كثيراً من صفاته الايجابية كالشجاعة وحسن الادارة والميل إلى تضحية المصالح الشخصية في سبيل المصلحة العامة والاهتمام بما يعود على الزراع والعملة بالخير والاخلاص للنظام الجديد الذي سنه مؤسس مذهب القرامطة في البحرين وحافظ عليه أبو طاهر إلى آخر يوم من حياته . أضف إلى ذلك ان خلفاء أبي طاهر كانوا قد اكتفوا بما فتحه من البلاد ولم يعودوا يتطلعون إلى فتوحات جديدة لا سيما وان دولة بني العباس كانت قد سقطت بعد سنة من وفاة أبي طاهر وقامت محلها دولة جديدة قوية تعرف بدولة بني بويه الشيعية التي أخذ خلفاء أبي طاهر يطلبون ودها ويتقربون منها لما بينها وبينهم من القرابة المعنوية وذلك بعد ان كادت تتوتر بينهما العلائق وتؤدي إلى ما لا تحمد عقباه ولهذا . لم نعد نسمع شيئاً عن غزوات القرامطة وحركاتهم إلى سنة ٣٥٣ = ٩٦٤ فكأنهم عدلوا للاسباب التي ذكرناها عن الغزو والنهب واشتغلوا بالمتاجرة مع جيرانهم الاقربين واصلاح احوالهم الداخلية وتعزيز نظامهم الاجتماعي الجديد وتطبيق عيشتهم عليه ، وبالحقيقة ان ما نعرفه عن جمهورية البحرين في ذلك العصر لا يدع محلًا للشك في في انها بلغت من الرقي في اقتصادياتها ومعداتها الحربية واخلاقها

---

١ ـ الاصح انه قتل بامر من خليفة مصر الفاطمي حسداً وخوفاً على سلطته في سوريا .

وآدابها شأواً بعيداً جعل اكثر البلاد الاسلامية تحسدها عليه وتتمنى لو يتاح لها أن تبلغ هذا الرقي الذي لم تبلغه جمهورية القرامطة إلا بنظامها الجديد الذي ادخلوه على حياتهم لأول مرة في تاريخ الاسلام .

هذا ما يتعلق بتاريخ الحركة القرمطية في البحرين . اما ما يتعلق بنظامهم الداخلي فيمكننا ان نلخصه ، استناداً على ما عندنا من أخبار القدماء عنه ، في العبارات الآتية :

ذكرنا في ما سبق ان مؤسسي الجمهورية القرمطية أو الاسماعيلية في البحرين كانوا من عامة الناس وانهم كانوا يدعونهم إلى الدخول في المذهب الجديد باسم « امام الزمان المحجوب » ثم باسم الخلفاء الفاطميين من يوم ظهرت هذه الدولة ، وهذا يدل على ان القرامطة كانوا في بادىء الأمر يقرون برئاسة الخلفاء المذكورين الروحية والسياسية ، فكانوا يجمعون الضرائب والزكاة باسمهم ويؤدون اليهم قسما كبيراً منها وكانوا يساعدونهم بالمال والرجال في حروبهم مع خلفاء بغداد ويأتمرون بامرهم في في كل شيء حتى انهم لم يحجموا عن ارجاع الحجر الأسود إلى مكة لما أمرهم بذلك الخليفة المنصور (سنة ٣٣٩ = ٩٥٠) ارضاء لرعاياه السنيين في مصر وتزلفاً منهم ، مما يستدل منه على ان أبا طاهر وأبا سعيد وخلفاءهما لم يكونوا في الحقيقة إلا عمالا « لامام الزمان » في البحرين يحكمون البلاد باسمه ويؤدون له الطاعة . إلا انه يظهر من بعض أفعال القرامطة

هناك ان بعد المسافة بينهم وبين إمامهم واسباباً اخرى نذكرها بعد ذلك جعلت صلة القرامطة بالفاطميين ضعيفة وأدت الى نوع من الاستقلال الداخلي او الحكم الذاتي في البحرين وهو أقرب الى الحكم الجمهوري او الشوري منه الى حكم الفرد .

نحن لا ننكر انه كان يراس حكومة القرامطة افراد من أسرة ابي طاهر الجنابي او المقربين اليها مما قد يحمل البعض على الظن ان حكومة البحرين كانت أقرب الى حكومة الاقلية المستبدة Oligarchie منه الى الجمهورية الحقة ، إلا ان هؤلاء الافراد لم يكونوا ليمتازوا عن غيرهم من الوزراء او اعضاء المجلس الاداري المعروف عندهم « بالعقدانية » إلا في امور معلومة كقيادة الجيش ورئاسة مجلس الوزراء والاشراف على بعض الاعمال الثانوية ، فهم والحالة هذه أقرب الى رؤساء جمهوريات اميركا الجنوبية (١) في هذا العصر منهم الى امراء العرب والعجم في ذلك الوقت أي انهم كانوا Primi inter pares (الاولين بين الاسواء) كما تقول العبارة اللاتينية ، أما القوة الحقيقية أي قوة التشريع والتنفيذ فانها كانت محصورة في أيدي اعضاء المجلس المؤلف من ستة اشخاص

---

١ – لم يكن هذا النوع من الحكم مألوفاً عند العرب ولهذا ترى كتبتهم يخبطون في الكلام عنه خبط عشواء .

او وزراء يختارهم الشعب من أسرة ابي طاهر وأعوانه المقربين او من غيرهم ممن كان يثق بهم ومن أصحاب الدرجات العالية في الحزب وكان لهؤلاء الوزراء ستة وكلاء يجلسون وراءهم على تخت عال او على مقاعد الوزراء ان هم تغيبوا لسبب ما عن حضور الجلسة .

والذي نعلمه من امر هذا المجلس المعروف « بالعقدانية » انه كان يسوس البلاد ويحل ما يعرض عليه من المسائل بالاجماع وان جلساته كانت غالباً تحت رئاسة ابي طاهر او نسيبه (اخي امرأته) ابي محمد سنبر أحد رجال البحرين المعروفين بكرمهم وعدالتهم وتعلق الشعب بهم .

جاء في « سفرنامه » لناصر خسرو الذي زار بلاد القرامطة سنة ١٠٥٢ أي بعد ابن حوقل بسنين عديدة ما يثبت قول هذا الكاتب ويدل على ان عرى المحبة والوفاق بين «المؤمنين» ما زالت موثقة حتى تلك السنة ، فقد ذكر في سياحته المذكورة ما تعريبه : « واحفاد ابي سعيد يقيمون الآن في قصر واسع يعرف « بدار الهجرة » وهذا القصر هو دار الحكومة ايضاً حيث يوجد التخت الذي يجلس عليه الوزراء الستة الذين يضعون الاحكام بعد ان يبحثوا فيها ويتفقوا على رأي واحد ، ولهؤلاء الوزراء ستة مساعدين يقعدون

على تخت آخر وراءهم ولا يقرر المجلس امراً إلا بالشورى (١) والفضل في هذا الوفاق يرجع لا الى الشرطة أو قوة حربية اخرى لا نعلم عنها شيئاً ، بل الى النظام الاشتراكي الجديد وثقة الشعب به وبزعمائه .

والغريب في كلام ناصر خسرو انه لم يذكر شيئاً عن رئيس مجلس العقدانية مما يستنتج منه إما انه لم يكن وقتئذٍ رئيس لهم وإما انهم اتفقوا ان لا يكون لهم رئيس بعد ابي سعيد وابي طاهر واولادهما وذلك اكراماً لمؤسسي الجمهورية الشيوعية وتعظيماً لقدرهم او خوفاً من استبداد خلفائهم ونبذهم للمبادىء الاشتراكية التي اسست عليها دولتهم وأسباب اخرى لم يذكرها الكاتب المذكور ولم نقف نحن عليها عند غيره .

نعم ان احفاد ابي طاهر واقرباءه ظلوا محافظين على نفوذهم وبعض امتيازاتهم الى ايام خسرو وربما الى ما بعد ذلك ، إلا انهم لم يكونوا ينتخبون لرئاسة مجلس العقدانية إلا نادراً فكانت السلطة محصورة في ايدي الوزراء وأعوانهم واكثرهم كما رأينا من أسرة مؤسس الجمهورية القرمطية وأقربائه ، فاذا

---

١ – انظر « سفرنامه » ص ٢٢٦ و ٢٢٨ (طبعة C· Schefer في باريس .

صح ذلك كانت هيئة الحكم في البحرين أقرب الى حكم الجمهورية الروسية في الوقت الحاضر أي حكومة شوروية (صوفيت) يرئسها مؤسس الجمهورية ما دام حياً ثم اعوانه الاقربون بعد وفاته .

وعليه نستطيع ان نقول ان لكل نظام اجتماعي هيئة ادارية خاصة به هي وليدته كما يظهر لكل من قابل بين نظام القرامطة في العصر العاشر ونظام روسيا الشيوعي في هذا اليوم . ولولا ضيق المقام لأتينا على مقارنات عديدة بين النظامين لا تدع محلاً للشك في صحة الفكر الذي ذكرناه قبل ذلك ، ولا غرابة في ذلك لأن مصدر القوة عند الفريقين واحد وهو الطبقة السفلى من الشعب او طبقة العمال والمزارعين وهم الاكثرية المتغلبة عند القرامطة كما يستنتج من كلام ابن الاثير عن أهل العراق (السواد) (١) .

استقلت البحرين وما جاورها من البلاد التي فتحها القرامطة في ايام ابي طاهر واولاده عن الدولة العباسية واصبح امرها اليها تسير في حياتها الداخلية والخارجية على نظام جديد سنته هي لنفسها لا يعارضها في تطبيقه معارض ، فكانت اول خطوة خطتها العقدانية نحو اصلاح البلاد وسعادة اهلها أنها ألغت

---

١ — « .... وقتل منهم مقتلة ثم تركهم خوفاً ان تخرب السواد وكانوا فلاحيها » ج ٧ ص ١٧٨ (الطبعة المصرية) .

الضرائب التي على الاراضي ثم ألغت او أنقصت بعض الرسوم التي كان يئن تحتها الزارع والعامل وأخذت تبحث عن موارد اخرى تقوم باحتياجات الدولة ولا يشعر السكان بثقلها ،فكان من جملة تلك الضرائب الجديدة ضريبة على المراكب التي كانت تمخر في خليج العجم ثم ضريبة على مقاطعة عمان وعلى الحجاج الذين كانوا يؤمون الحرمين كل سنة ، فضريبة اخرى على صيادي اللؤلؤ في مياه البحرين وخليج العجم .

فاذا أضفنا الى هذه الضرائب الغرامة التي كانت تؤديها كل سنة بعض مدن وقرى العراق والكوفة وغيرهما كان لنا من كل ذلك نحو مليون ومئتي الف دينار في السنة أي نحو خمسين او ستين الف جنيه مصري ليس منها إلا ثلاثون الف كانت تؤخذ عن الاراضي بصورة اعشار أو خراج ومقدار طفيف يكاد لا يستحق الذكر لا سيما اذا تذكرنا ان اراضي البحرين وعمان كانت ولا تزال من أخصب اراضي جزيرة العرب وقد عرفت بجودة ثمرها الذي كان ولا يزال يحمل منها الى البلاد البعيدة وكان من البضائع التي كانت حكومة القرامطة تتاجر بها مع جيرانها الاقربين كبلاد العجم والعراق وسوريا الخ ، وعليه يجوز ان يقال ان مالية البحرين بلغت في عهد القرامطة درجة لم تبلغها على ما أظن في دور آخر من ادوار تاريخها .

فلو طرحنا من الميزانية المذكورة قسماً كانت القرامطة

ترسله سنوياً الى صندوق «الامام» أو الى «خزينة الامام» كما كانوا يعبرون في ذلك الوقت، وقسماً آخر اكبر منه كان ينفق على «دار الهجرة» او دار الحكومة وأسرة أبي طاهر، لبقيت قيمة كبيرة كانت تنفقها الحكومة على الاشغال والمنافع العمومية أي على تحسين أحوال المزارعين والعمال وابتياع الاراضي لتوزيعها على المحتاجين اليها.

اننا نأسف ان ما لدينا من الاخبار عن النظام الجديد في البحرين لا يكفي لحل أهم مسألة تتعلق بهذا النظام وهي ملكية الاراضي أو عدمها، أي هل بقيت الاراضي في ايدي أشخاص معلومين يتصرفون فيها كيف يشاؤون ام اصبحت شائعة في يد الحكومة تعطيها لمن تريد ويقدر ان يعتملها بيده على انه يظهر من بعض أقوال الكاتب الفارسي التي سنأتي عليها فيما بعد ان الحكومة لم تتعرض لنزع الاراضي من أيدي أصحابها إما لأن اكثرها كان مشاعاً بين المزارعين كما هي الحال عند البدو على الاطلاق وإما لأنه لم تكن هناك مسألة تعرف بمسألة الاراضي أي لم يكن في البحرين ازمة ارضية او فلاحون لا اراضي لهم كما هي الحال اليوم في اكثر البلاد الاوروبية، او لأن الحكومة كانت تبتاع على حسابها ما تحتاج اليه من الاراضي لتوزعه على الفلاحين الذين لم تكن لهم اراضي يعتملونها بأيديهم. هذا ما يتعلق

بالاراضي أما ما عدا ذلك من اركان الحياة الاجتماعية وظواهرها والحياة الفردية ومعالمها فان الصبغة الشيوعية كانت ظاهرة عليها والحكومة القرمطية عاملة على نشرها وتأييدها بكل ما لديها من الوسائل .

ذكر الكاتب الفارسي الذي استشهدنا به مراراً انه رأى يوم كان في الاحسا « ثلاثين الفاً من السودان يشتغلون في الحقول والبساتين على حساب العقدانية وهي الحقول التي اشترتها بمال الامة ، وان الشعب هناك لم يكن يؤدي لحكومته ضرائب ولا اعشاراً ، وانه اذا كان يصيب أحدهم فقر أو كان يقع تحت دين لا سبيل الى وفائه كانت العقدانية تسلفه ما يحتاج اليه من الدراهم الى ان يصلح حاله ، وكان اذا استدان من احد دراهم لا يدفع له عند حلول الاجل إلا ما استدانه فقط أي بلا ربا » (١)

وقال في مكان آخر من سياحته : « ان كل غريب يدخل الاحسا ويعرف حرفة ما كانت الحكومة - إذا اراد - تقدم له مبلغاً من النقود لينفقه على اشتراء ادوات حرفته ويبقى تحت تصرفه إلى ان يجمع من المال ما يكفيه ويكفي اسرته فان هو اشتغل وكسب رد ما استلفه إلى الحكومة بدون ربا » (٢)

وقال ايضاً : « إذا اصابت صاحب بيت أو طاحون مصيبة

---

١ - انظر «سفرنامه» طبع C . Schefer باريز ١٨٨١ ص ٢٢٧ - ٢٢٨

٢ - انظر « سفرنامه » الصفحة المذكورة سابقاً .

وكان عاجزاً عن ردها والتخلص منها بنفسه أمدته العقدانية بعدد معلوم من الفعلة السود ليصلحوا ما تصدع من بيته أو طاحونه بلا عوض » .

وزاد الكاتب المذكور على ذلك « ان في الاحسا طواحين تخص الحكومة وهي تطحن للناس قمحهم مجاناً أي بدون اجرة لأن الحكومة نفسها تنقد الفعلة اجورهم وتقوم بجميع نفقات الطواحين » (١)

إذا عارضنا هذه الاخبار على ما عندنا من أقوال بعض كتبة العرب عن القرامطة كقول أحدهم « ان كل شيء كان عندهم شائعاً إلا السيوف والاسلحة » استطعنا ان نستنتج منها ان حياة القرامطة الاجتماعية والفردية كانت مبنية على مبادىء شيوعية وهي تلك المبادىء التي كانت تبثها وتسعى إلى تحقيقها أئمة الحركة الاسماعيلية ووكلاؤهم في البحرين .

نحن لا ننكر انه قد يكون طرأ على حياة القرامطة ونظامهم الداخلي بعض التغيير في ايام ناصر خسرو إلا ان الصبغة الشيوعية على الاطلاق ما زالت ظاهرة على حياة البلاد وسكانها إلى الجيل الخامس عشر أو إلى ما بعد ذلك . وكان من اهم ظواهرها انه «لم يبق في البلاد فقير (٢) وان مجلس العقدانية ضرب

---

١ – انظر « صفرنامه » الصفحة المذكورة سابقاً
٢ – » » » »

نقوداً جديدة لم تكن متداولة إلا في البحرين والبلاد المتاخمة لها وكان غرضه من ذلك ان تبقى النقود في البلاد ،ولهذا سكها من رصاص فكانت لذلك رخيصة جداً حتى ان من اراد ان يبتاع شيئاً في السوق كان مضطراً ان يملأ من تلك النقود زنابيل يضع في كل منها ستة آلاف درهم » (١)

ومن ظواهر النظام الشيوعي في البحرين ان التجارة ولا سيما الخارجية منها كانت في يد الحكومة ، وان ارباحها كانت تنفق على الاعمال العمومية وتحسين أعمال المزارعين والعملة ، فلا عجب والحالة هذه إذا كان سكان البلاد المذكورة راضين عن حكومتهم ونظامها وعاملين على تأييدها عند الحاجة ، كما لا عجب أيضاً إذا كنا لم نسمع ولم نقرأ شيئاً يستفاد منه وجود طبقة من الناس تعمل على قتل النظام الجديد أو اسقاط الحكومة التي اوجدته ومشت عليه .

هذا جل ما عثرنا عليه عند كتبة العرب والفرس من الاخبار المتعلقة بالقسم الاجتماعي والاقتصادي من برنامج القرامطة . وها نحن الآن نأتي على ما وجدناه عندهم من المعلومات التي لها مساس بمبادئهم الادبية والدينية مما لم نذكره عند كلامنا عن الاسماعيلية أو ذكرناه بصورة عامة موجزة .

ان قيام الجمهورية العربية الاشتراكية في البحرين كل هذه

---

١ — انظر « سفرنامه » الصفحة المذكورة سابقاً

السنين الطوال وحفظ نظامها الغريب وتأثيره اكثر من خمسة اجيال ثم بلوغها ذلك النجاح الاقتصادي الذي اشرنا اليه سابقاً وذلك مع ما كان يحيط بها من الصعوبات وتعدد الخصوم المتشوقين إلى هدمها والاستيلاء على ثروتها ، لأكبر دليل على ان الجمهورية المذكورة كانت قائمة ليس فقط على دعائم اقتصادية واجتماعية قوية بل على اسس ادبية قويمة ومبادىء أخلاقية صحيحة كانت تتجلى في حياة المجموع والافراد على السواء . فقد رأينا حين تكلمنا عن مجلس العقدانية ما كان عليه اعضاؤه من الاتفاق في القول والعمل ، وهناك شواهد اخرى على ذلك لا بأس من ذكر بعضها تثبيتاً لما قلناه قبلاً وتعميماً للفائدة :

ان ابن حوقل الكاتب والسائح الشهير كان أقام بين القرامطة أشهراً عديدة ودرس نظامهم وحياتهم اليومية عن كثب فذكر عنهم اموراً كثيرة تخالف ما يتهمونهم به من الافعال البذيئة والمبادىء السافلة وتدل على احترامه لهم واعترافه بفضلهم وأدبهم وحسن سيرتهم . ثم زارهم بعده المقدسي وكتب عنهم فصلاً في رحلته لم يذكر فيه ما يمس كرامتهم ويشوه سمعتهم . وجاء بعده الكاتب والشاعر الفارسي ناصر خسرو فأقام بينهم اشهراً (١) يراقب فيها حياتهم الاجتماعية والفردية ويتعرف بكبيرهم وصغيرهم ويتردد إلى مجتمعاتهم ليقف على افكارهم

---

١ — اقام خسرو بين البدو تسعة اشهر لا نعلم كم قضى منها بين القرامطة (انظر ص ٢٣٣)

واخلاقهم ويطلع عليها قراءه وابناء وطنه ، فلو رأى منهم ما يخالف المبادىء الأدبية العامة لأشار إلى ذلك في « سفرنامته » ولأنحى عليهم باللائمة وصورهم بغير الصورة التي نراها في كتابه حيث جاء : « ان أبا سعيد اوصى خلفاءه واتباعه ان يعاملوا الشعب بالعدل والشرف » وقال في محل آخر : « إنه إذا دخل انسان على عضو من اعضاء العقدانية وحياه أو سأله شيئاً اجابه ذلك العضو بكل رقة وتواضع » . وقال عن سكان الاحسا « انهم لا يشربون خمراً لا لأنه كان محرماً عندهم بل محافظة على النظام » (١) ثم اننا نستنتج من كلام خسرو وأقوال غيره ان الزنا لم يكن معروفاً أو شائعاً عند القرامطة بل لم يكن شائعاً عندهم ـ كما ارجح ـ تعدد الزوجات بدليل ان جميع ابناء أبي سعيد كانوا من أم واحدة . وليس هذا من الغرابة في شيء لان الامتناع عن المسكرات والفسق نتيجة منطقية لتعليم القرامطة عن الغرض من وجود الانسان على هذه الارض وغاية هذا العالم القصوى .

من التهم التي اتهم بها القرامطة خصومهم والاكاذيب التي كانوا يخلقونها عنهم لاغراض مفهومة هو وصفهم اياهم بالرياء وعدم الاخلاص في النية ، وقد استدلوا على ذلك بان القرامطة كانوا يتظاهرون بحب علي وبيته ويتشيعون له ولأصحابه لا حباً به وبشيعته كما يقولون بل لقضاء حاجتهم ومنافعهم الشخصية أو

---

١ ـ ص ٢٢٨

الحزبية وبلوغ مآربهم السياسية . وقد استدلوا على ذلك بأن أبا طاهر لم يزر ولا مرة قبر علي أو ابنه الحسين مع انه كان في القرب منهما مرات عديدة وانهم بعد ان حاربوا في جانب الخلفاء الفاطميين وساعدوهم مراراً على اعدائهم خذلوهم بعد ذلك بل خرجوا عليهم سنة ٣٩٠ = ٩٧١ وانضموا إلى عدوهم الاكبر الخليفة العباسي وصاروا يساعدونه عليهم .

نحن لا ننكر الحوادث إلا اننا نعللها بغير ما يعللها خصوم القرامطة ، فتوقف أبي طاهر عن زيارة قبري علي وابنه الحسين لا يدل على بغضه أو عدم حبه لهذين الشخصين اللذين كانت الاسماعيلية على الاطلاق تحترمهما ،بل على ان القرامطة كانت تحرم زيارة القبور وتقبيلها كما هو الحال عند الوهابيين اليوم اما الدليل الثاني فمبني إما على جهل لتاريخ الحركة القرمطية في البحرين واما على تجاهل يراد به اخفاء الحقائق التاريخية أو اظهارها في غير صورتها الحقيقية واليك بيان ذلك :

من المحقق ان علاقة القرامطة بالفاطميين كانت علاقة ودية ملؤها الاخلاص والطاعة ، وانهم كانوا في أول الحركة الفاطمية يساعدونهم بالمال والرجال ويظهرون لهم الطاعة والمحبة لا لأنهم كانوا يخشون بأسهم بل لانهم كانوا يعتقدون ان مؤسس الدولة الفاطمية عبيد الله هو حقيقة « امام الزمان » و « المهدي » المنتظر وآخر انسان تجسم فيه العقل الاعلى ، أي هو ذلك الانسان الذي كانت القرامطة وسائر فرق الاسماعيلية تنتظره

وتعوّل عليه في دك دولة الظلم واقامة دولة العدل والمساواة ومملكة « السلم والمحبة » إلى غير ذلك من الآمال التي كان ولا يزال اصحاب الامام المحجوب يعلقونها على ظهوره. إلا ان أبا طاهر واصحابه أخذوا يدركون مع الزمن وبعد ان تعرفوا بالفاطميين في سوريا ومصر وشاهدوا عيشتهم واعمالهم هناك وما ادخلوه من الانظمة الجديدة في مصر وشمال أفريقيا ان مؤسس هذه الدولة أفّاق كاذب ومخرق محتال كبير لا صلة بينه وبين الامام السابع اسماعيل بن جعفر ولا نسب ، وان هذا الامام الكاذب خدعهم واستخدمهم آلة للوصول إلى غاياته الشخصية ، فلما صح عند القرامطة هذا الخبر كان له وقع شديد على هؤلاء الاعراب الدين عرفوا دائماً بسذاجتهم وصفاء قلوبهم ، فثار غضبهم على مؤسس الدولة المذكورة واولاده فقطعوا علاقاتهم بهم واخذوا يتقربون من اعدائهم الذين أصبحوا في نظرهم خيراً من حلفائهم السابقين الكاذبين فنتجت عن ذلك حروب كلفت الفاطميين ضحايا لا تحصى وخسائر مادية لا تعد لأن القوة كانت في اغلب الاحيان في جانب القرامطة ، فاضطر خلفاء القاهرة ان يلجأوا إلى سياسة الدفاع بعد ان كانوا قبل ذلك يفضلون عليها سياسة الهجوم . ولعل هذا هو الذي اضطرهم بين ٣٧١ و ٣٨٥ إلى بناء قلعة القاهرة ، عاصمة مصر اليوم ، للدفاع عن عاصمتها

القديمة المعروفة سابقاً بالفسطاط (١) . ولم يقف القرامطة عند هذا الحد بل أخذوا يتقربون من حكومة بغداد ويعقدون معها المعاهدات السياسية والتجارية ويكاتبون خلفاء بني العباس ويهدون اليهم الهدايا وهم مع كل هذا محافظون على حقوقهم ومصالحهم غير متساهلين في شيء مما له مساس بعقائدهم الدينية والادبية ونظامهم الاشتراكي ، فهل في ذلك رجوع عن المبدأ او شيء من الرياء والمداهنة ؟ إذن فحكومة روسيا الثوروية خائنة ومرائية وكاذبة لانها ، كما يعلم القارىء ، عقدت مع اعدائها في المبدأ والغاية معاهدات تجارية وسياسية .

بناء على ذلك لا صحة لما يتهم به القرامطة اعداؤهم من الصفات السلبية المذكورة بل انا اعتقد ان كل من وقف على تاريخ القرامطة في البحرين وطالع ما حفظ من أخبارهم مترفعاً عن الغرض وغير منفعل بانفعالات شخصية ، يشعر باخلاص هذه الاخوية وصدقها وصفاء قلوب أعضائها . وهذا المستشرق الهولندي الشهير M. de goeje الذي جمع اخبارهم المبعثرة ونظر فيها نظرة عالم لا يطلب غير الحقيقة المجردة ثم وضع فيهم كتابه الذي طالما استشهدنا به في هذا الفصل يقول فيهم « اني مع ما أعرفه عن تلك السنن الشيطانية التي سنها حسن بن القداح للاسماعيلية أعتقد اعتقاداً قوياً ان القرامطة وعلى الاخص

١- من Fossatum اللاتينية ومعناها الحفير او الخندق (من الفارسية خنده - محفور)

قرامطة البحرين كانوا يعملون على اعتقاد راسخ فيهم بانهم انما يخدمون عملاً طيباً » (١) . ومعلوم ان الايمان القوي في صحة ما يكرس له الانسان او الجماعة حياته او حياتهم هو الذي يتغلب على جميع الصعوبات ويأتي بالمعجزات . واني والحق أولى ما يقال ، أشعر بهذا الايمان في اقوال القرامطة وأفعالهم ولو خالطها أحياناً شيء من القساوة وغلاظة البداوة .

حدث ابن الاثير في «كامله» عن رجل من القرامطة كان يسكن في بغداد قال :

« جاء انسان الى علي بن عيسى (وزير الخليفة المقتدر) وأخبره ان في جيرانه رجلاً من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر بالاخبار ، فأحضره وسأله واعترف وقال : ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندي انه على الحق وأنت وصاحبك كفار تأخذون ما ليس لكم ... فقال له علي بن عيسى : قد خالطت عسكرنا وعرفتهم فمن منهم على مذهبك ؟ فقال : وأنت بهذا العقل تريد الوزارة كيف تطمع مني انني اسلم قوماً مؤمنين الى قوم كافرين يقتلونهم ؟ لا افعل ذلك » (٢)

هذا في ما يختص بآداب قرامطة البحرين ، أما عقائدهم

---

١ – انظر كتابه المذكور ص ١٦٢

٢ – ج ٨ ص ١٢٧ (من طبعة Tornberg في ليدن)

وشعائرهم الدينية فلا نطيل الشرح فيها خوفاً من الملل ولأنا ذكرنا قسما منها في الفصل السابق ولهذا نكتفي بما يأتي :

إذا عنينا بالدين وشعائره ما يفهم منها اليوم أو ما ألفه الشعب البسيط من معنى هذه الكلمة فيصبح ان نقول انه لم يكن للقرامطة دين أو شعائر دينية تذكر ولو استعمل احياناً زعماؤهم وكتبتهم من المفردات والاصطلاحات المتداولة بين اصحاب الدين ما قد يوهم السامع الغير الواقف على مذهب القرامطة ان لهم ديناً وشعائر دينية كغيرهم من معاصريهم من المسلمين وغير المسلمين . إلا ان القرامطة ، كأعراب من جهة وكاسماعيلية من جهة أخرى ، كانوا بعيدين عن الدين وشعائره الخارجية بعد اكثر شيوعيي هذا العصر عنها إذ ان دينهم الحقيقي هو مطلبهم الكبير الاجتماعي الذي كانوا يعبدونه ويؤمنون بوجوب تحقيقه إيماناً قوياً يحيون لأجله ويموتون عليه . نحن لا ننكر ان للقرامطة بعض عقائد دينية بمعنى هذه الكلمة المعروف كاعتقادهم مثلًا بتجسد الله الدوري أو بتجسم العقل الأول في أئمتهم أو المهديين أو الرجال العظام والحكماء الذين وكل اليهم أمر تحقيق المطلب الأكبر (idéal) الاشتراكي .

قال القرمطي الشيرازي المذكور آنفاً « انه لا بد لله من حجة في أرضه وان امامنا المهدي هو محمد حفيد محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق » . إلا ان هذه العقيدة هي أقرب إلى فكر سياسي أو فلسفي منها إلى عقيدة دينية محضة .

ثم لا يغرنا ان القرامطة كانوا يبنون تحقيق أحلامهم الاشتراكية على رجل من نسل علي لا من بيت آخر لأن حبهم لبيت علي لم يكن منهم إلا خطة سياسية وسبباً متيناً يربطهم بغيرهم من الشيعة ويستميل اليهم قلوب الناقمين من بني العباس وإلا فسواء عندهم أكان الامام، مخلص هذا العالم ومهديه، من ابناء علي او من بيت آخر لأنه لم يكن يهم القرامطة إلا مبدأهم الاساسي وهو إيمانهم بامكان تحقيق مطلبهم الأكبر الاشتراكي في هذه الحيوة الدنيا. اما من يحقق هذا المطلب فهذا في نظرهم أمر ثانوي وفي نظر زعماء الحركة أمر لا أهمية له البتة لأنهم كانوا يعتقدون ان تحقيق آمالهم وأحلامهم السياسية أمر منوط بأي شخص تجسمت فيه الحكمة العالية والعقل الاعلى الذي هو الله.

ترى مما ذكر ان ديانة القرامطة لم تكن في الحقيقة إلا عبارة عن عبادة العقل السليم أو العقل الاعلى. وهذا لم تكن عندهم شعائر أو طقوس دينية ولا كانت لهم حاجة اليها، وهذا ما انتبه اليه الكتبة المسلمون واشاروا اليه مراراً بقولهم ان القرامطة «ينكرون الرسل والشرائع كلها» (١) وانهم «تأولوا لكل ركن من اركان الشريعة تأويلاً يورث تضليلاً فزعموا ان معنى الصلوة موالاة امامهم والحج زيارته وادمان خدمته، والمراد بالصوم الامساك عن افشاء سرهم بغير عهد ولا ميثاق. وزعموا ان من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها وحملوا اليقين على

---

١ — كتاب الفرق بين الفرق ص ٢٧٧

معرفة التأويل » (١) ومع ذلك فهم لم يكونوا يمنعون المسلمين المقيمين بينهم من بناء المساجد واقامة الصلاة وسائر اصول الدين وشعائره .

قال ناصر خسرو ما تعريبه : « وليس في الاحسا مسجد تقام فيه صلاة الجمعة وهم لا يخطبون ولا يصلون إلا انهم (سمحوا) ببناء مسجد على حساب أحد الفرس السنيين » (٢). وقال بعيد ذلك « ولا يمنعون هنا احداً من اقامة الصلاة، اما هم فلا يقيمونها » (٣) .

اما وقد نبذوا كل ديانة من الديانات التاريخية الوضيعة فلم يعد يصعب عليهم بل كان من الواجب عليهم ان ينبذوا أيضاً كل ما يستند على هذه الاديان من الحدود والسنن المتعلقة بالأكل والشرب واللبس الخ .. وان يقولوا بتحليل كل ما ليس منه ضرر على الصحة ولا يحول دون تتميم الواجب والحصول على السعادة في هذه الدنيا لا في العالم الآخر . وهذا خسرو يشهد لهم « انهم كانوا يبيعون في الاحسا لحوم جميع الحيوانات كالقطط والكلاب والحمير والثيران والخرفان الخ .. على شرط ان يضع البائع رأس الحيوان وجلده قرب لحمه وهم يربون الكلاب كالخرفان في المراعي حتى إذا سمنت وعجزت عن الجري

---

١ — الفرق ... ص ٢٧٨

٢ — سفرنامه ص ٢٢٨

٣ — « «

ذبحوها واكلوها » (١) .

وبذلك قضوا على سنن الاديان القديمة وحدودها المتعددة وجاهروا بانهم أعلى من ان ينقادوا لهذه الحدود التي وضعت في نظرهم لضعفاء العقول وصغارها أو « للحمير » كما كانوا يسمون الطبقات السفلى الغير الراقية من الناس . وكان من جملة الحدود التي ألغوها تحريم الخمر فصار بعضهم يشربه جهاراً كما يستدل على ذلك من أقوال بعض الكتبة (٢) إلا ان استعماله لم يشع بينهم للاسباب التي ذكرناها سابقاً حتى ان ناصر خسرو الذي أقام بينهم أشهراً لم ير بينهم من كان يشربها جهاراً أو سراً وإلا لما كتب في رحلته ان سكان الاحسا لا يشربون الخمر ، إلا ان يكون نظر القرامطة إلى الخمر ومعاطاتها قد تغير في ايام خسرو أو ان هناك اسباباً أخرى حملتهم على ترك الخمر لا علم لنا بها . على كل حال لا ريب في ان شرب الخمر أو عدمه لم يعودا في نظر القرامطة من المسائل الدينية كما كانا قبلاً بل أصبحا من المسائل الاجتماعية أو الاخلاقية التي لا أهمية لها البتة فلا معاطاتها محرمة ولا الامتناع عنها ثواب من الله والناس .

إنا لنأسف جداً ان انقطاع الاخبار أو ندرتها عن قرامطة البحرين بعد النصف الثاني من الجيل الحادي عشر الناتجين عن

---

١ – سفرنامه ص ٢٢٩

٢ – انظر تأليف M. De Goeje ص ١٧٥

بعد بلادهم عن مراكز العمران العربي الاسلامي وعما أصاب البلاد العربية والخلافة الاسلامية من المحن في ايام الاتراك والمغول، يحولان دون الوقوف على تاريخ الجمهورية الشيوعية في شرق الجزيرة العربية بعد العصر المذكور وعلى ما طرأ على نظامها الاشتراكي من التغير قبل ان تتفكك عراها وتصبح في خبر كان.

فكل ما يمكننا ان نستنتجه من أقوال بعض الكتبة المتأخرين عن حالة القرامطة بعد الزمن المذكور هو ان حروبهم الخارجية مع سلاطين بغداد وخلفائها ومع القبائل المجاورة لهم ثم ما وقع من الاختلاف في بيت أبي طاهر وأقربائه كقتل ابنه سابور سنة ٣٦١ - ٩٧٢ وانقراض اعضاء مجلس «السادة» القدماء، ادّى كل ذلك ولا ريب إلى اضعاف قوة القرامطة وأطمع بهم جيرانهم وأعداءهم الذين كانوا يتحينون الفرص ليفتكوا بهم ويقضوا عليهم وعلى نظامهم الممقوت. إلا أن هذا الدور لم يكن طويلاً ودليلنا على ذلك ان جعفر أحد احفاد أبي سعيد الجنابي التقى سنة ٣٦٨ - ٩٧٨ بعساكر الفاطميين فكسرهم واضطرهم إلى الفرار، وان أباه بجر ابن شاخويه أحد قواد القرامطة زحف إلى الكوفة واحتلها باسم السلطان عضد الدولة البويهي (٩٤٩ = ٩٨٣) مما يستنتج منه ان احوال القرامطة في الوقت المذكور كانت لا تزال حسنة وكلمتهم عالية وهيبتهم محفوظة حتى ان سلاطين بغداد كانوا يطلبون ودهم ومساعدتهم ويتقربون اليهم بالعطايا والكتب إلى ان دخلت سنة ٣٧٤ -

٩٨٤ حين اخذ نجمهم يأفل وحالهم يسوء واول ما ظهر ذلك في حربهم مع السلطان صمصام الدولة (٩٨٩ – ٩٩٨) التي انتهت بكسرهم ورجوع فلولهم إلى البحرين ،فلم يكد هذا الخبر ينتشر بين جيرانهم حتى خرجت عليهم سكان اواسط جزيرة العرب وانفصلت عنهم ثم تبعهم سكان عمان سنة ٣٧٥ = ٩٨٥ وقبائل المتفق التي انقضّت عليهم سنة ٣٧٨ = ٩٨٨ و كسرتهم شر كسرة ثم تعقبتهم إلى عاصمتهم التي التجأ اليها القرامطة فحاصرتهم فيها لكنها لم تقو على فتحها فتحولت عنها إلى القطيف ففتحتها وغنمت فيها غنائم كثيرة حملتها إلى بلادها ، فكان لهذا الفشل اثر سيء على حالة القرامطة الاقتصادية والداخلية اثار بينهم استياءً عاماً أدى إلى نزع السلطة من أيدي احفاد أبي سعيد الجنابي وتسليمها إلى رجال آخرين حاولوا ان يسيروا على خطة من السياسة جديدة فأخذوا يتقربون من الفاطميين اخوانهم القدماء ليستندوا عليهم في حروبهم مع البدو وسلاطين بغداد أو ليضمنوا حيادهم. إلا ان هذه السياسة الجديدة لم تجدهم نفعاً بل كانت عاقبتها شراً من السياسة الأولى لأن سلاطين بغداد اخذوا يراقبون حركاتهم وسكناتهم ويخشون تقربهم من الخلفاء الفاطميين حتى إذا اطلعوا على مكاتباتهم مع اولياء مصر انقلبوا عليهم فأوعزوا إلى الاعراب أن تخرج عليهم فخرجت وحاربتهم وكادت تقضي على استقلالهم فاضطروا ان يلزموا بلادهم ويكفوا عن نشر دعوتهم في ما وراء البحار .

قال ابن النديم صاحب الفهرست : «... ومنذ نحو عشرين سنه تناقص أمر المذهب (مذهب القرامطة) وقل الدعاة فيه حتى اني لا أرى من الكتب المصنفة فيه شيئاً بعد ان كان في أيام معز الدولة في اوله ظاهراً شائعاً ذائعاً والدعاة منبثين في كل صقع وناحية » (١) .

كان ينتظر ان تتبدل هذه الحال بأحسن منها في ايام الحاكم بأمر الله (٩٩٦ – ١٠٢١) الذي عرف بميله الى مذهب المتطرفين من الاسماعيلية (٢) أو في أيام الخليفة الطاهر حين كان الفاطميون ينتظرون سقوط دولة بني العباس. فلما لم تتحقق هذه الاماني المبنية على اسس فاسدة رأى القرامطة ان يخلدوا الى السكينة وان لا يفكروا إلا في المحافظة على استقلالهم وتقوية نظامهم الداخلي الذي ظلوا محافظين عليه زمناً طويلاً كما يظهر من كلام ناصر خسرو الذي زارهم في اواسط سنة ٤٤٣ – ١٠٥٢ وأقام بينهم نحو نصف سنة .

مما يستفاد من أقوال خسرو ان النظام الاشتراكي كان لا يزال معمولاً به بين القرامطة في اواسط العصر الحادي عشر ،

---

١ – انظر صفحة ١٨٩ (من طبعة Flügel الالمانية) .

٢ – معلوم ان في ايامه ظهرت شيعة الدروز وهم من الفرق الاسماعيلية المتطرفة في المسائل الدينية .

وان القرامطة كانوا يدعون في أيامه « ابو سعيديين » نسبة الى ابي سعيد مؤسس جمهوريتهم ، وانه كان على رأسهم أحد احفاد ابي سعيد المعروفين يومئذ « بالسادة » مما يستدل منه على انه قد حصل بعض تغير في هيئة الادارة عند القرامطة

ثم يستفاد من كلام الكاتب المذكور ان حالة البلاد كانت حسنة والتجارة رائجة بفضل احتكار الدولة لها وسياستها الاقتصادية العادلة ، وان الشعب كان مطمئناً راضياً عن حالته من كل الوجوه لأن خسرو لم يسمع أحداً يشكو من الحكومة أو يتذمر من عمالها أو من النظام الجديد الذي أدخلته الى البلاد ، وقد ذكر أشياء تدل على ان موارد العيش كانت كثيرة وان الناس كانوا في بحبوحة عيش لا ينقصهم شيء من الضروريات « وفي الاحسا يكثر البلح حتى ان الناس يعلفون به الغنم » وهم « يبيعون الألف منه بدينار » (١) ولهذا كانت البحرين موضوع حسد جيرانها ومطمح أبصارهم يودون لو يقضون عليها ويستولون على خيراتها ، وكان أشد الناس طمعاً بثروة القرامطة أقرب الناس اليهم نسباً وأشرهم ألا وهم عرب البادية الكسالى الجياع الذين كانوا ولا يزالون حتى اليوم عالة على غيرهم يعيشون من النهب والسلب ، فكانوا يتحينون الفرص لينقضوا على الجمهورية الغنية المغضوب عليها ويفنوها ان استطاعوا

---

١ – سفرنامه ص ٢٣٣ – اشتهرت البحرين وخاصة عاصمتها « هجر » ببلحها حتى ضرب بها المثل المعروف « كجالب التمر الى هجر »

الى ذلك سبيلاً .

ذكر السائح الفارسي انه التقى بأمير عربي – لعله امير قبائل المتفق – وهو زاحف على الاحسا « وبعد ان حاصرها سنة كاملة استولى على حظيرة من حظائر المدينة الاربع » وأصاب غنائم كثيرة إلا انه لم يتمكن من الاستيلاء على الاحسا ولا تغلب على اهاليها « فلما رآني أخذ يسألني عن مواقع النجوم ثم قال لي ان غرضي ان استولي على الاحسا لأن أهلها كفرة لا دين لهم فهل انا موفق في عملي » ؟.

نحن لا نعلم بماذا أجاب ناصر خسرو على سؤال الامير العربي ، إلا أنا نرجح ان سعي الامير كان خائباً لأن لدينا من الاخبار ما يستدل منه على ان جمهورية البحرين كانت لا تزال في اوائل الجيل السابع للهجرة حية مستقلة راقية يدير امورها مجلس منتخب من أهاليها بحسب النظام القديم الذي بقي جارياً في البلاد الى اوائل العصر الثالث عشر حين زارها السائح المغربي ابن بطوطة فلم يطلعنا عليه أحد لا من كتبة العرب ولا من كتبة الفرس الذين هم أقرب الناس اليهم مذهباً ومكاناً . إلا انه يظهر من بعض اخبار مبعثرة (١) ان آثار النظام القرمطي بقيت ظاهرة في البحرين وعمان حتى

---

١ – انظر عن قرامطة البحرين في الاعصر المتأخرة مقالة M. de Goeje في Journ . Asiatique سنة ١٨٩٥

اوائل العصر الثامن عشر . ولعل بعضها لا يزال باقياً الى هذا اليوم .

فيا حبذا لو قام بيننا سائح كناصر خسرو او ابن بطوطة فزار تلك الجمهورية العربية وما يجاورها من البلاد التي تأثرت بنظامها وتعاليمها الاشتراكية وبحث هناك عن تاريخها في الأعصر المظلمة وما حفظ من كتبها القديمة فيطلعنا على احوالها الحاضرة ، وإلا فان كل ما نعلمه اليوم عن هذه البلاد بل كل ما نعرفه عن سائر الفرق الاسماعيلية وعن حركتهم في الهند وأفريقيا الخ لا يشفي غليلاً ولا يدخل في باب العلم الصحيح .

يظهر مما تنشره أحياناً جرائدنا ومجلاتنا عن الاسماعيلية ان عددهم لا يزال كبيراً في عمان ولا سيما في مدنها كمسقط والمطرحة وغيرهما ، وان مذهب الاسماعيلية انتقل مع المهاجرين من المدن المذكورة الى زنجبار وأفريقيا الشرقية التي كانت قبل الحرب مستعمرة للالمان حيث نرى حركة فكرية ونشاطاً في نشر المبادىء القرمطية بين سكان البلاد الاصليين ، إلا أنا نجهل لسوء الحظ نوع هذه الحركة وما تتضمنه من المبادىء القرمطية القديمة وألا يزال ذكر ابي سعيد وابي طاهر وأحفاده حياً بين اسماعيلية البحرين وعمان ومستعمرتهما الافريقية . على أنا لا نشك في أن قرامطة هذا اليوم — لو فرضنا انه لا تزال منهم بقية — ليسوا بقرامطة أمس « الذين كان الناس يخشونهم في المدن والفلاة » (١) ويرتعد من ذكر اسمهم خلفاء بغداد

---

١ — انظر تأليف M. de Goeje ص ١٩٨

والقاهرة فيما هم اليوم ـ وقد فقدوا أو نسوا اكثر مبادئهم الاجتماعية والسياسية وأضاعوا نظامهم الاشتراكي ـ إلا نحلة دينية سلمية جمدت وتحجرت منذ أجيال فلا تكاد تبدي حركة تدل على حياة داخلية إلا فيما ندر .

هذه هي اليوم حالة خلفاء القرامطة في البحرين وعمان والهند والعجم وآسيا الوسطى وأفريقيا وسوريا (المتاولة والدروز) لا يستثنى منهم إلا فرق قليلة كالدروز في سوريا والزيديين في اليمن الذين لا يزالون محافظين على حماستهم العربية القديمة وعزة نفوسهم وكرم أخلاقهم وإن لم يحافظوا على جميع مبادىء الاسماعيلية الاجتماعية والفلسفية .

الخاتمة

لا ريب في ان ظهور الاتراك والمغول على ساحة التاريخ وتغلغلهم في البلاد الاسلامية ابتداء من العصر التاسع الى اواسط الخامس عشر مع ما تبع ذلك من الحروب والاهوال والخسائر المادية والروحيـة التي لا تقدر ولا توصف ، ثم مجيء الصليبيين ينفثون تعصبهـم الديني في الشرق العربي ويحاولون ان يستولوا على أجمل وارقى اراضيه ، وما وقع بين الفاطميين والقرامطة من الخلاف الناتج عن تباين في بعض مبادىء واغراض هاتين الفرقتـين الكبيرتـين من مذهب الاسماعيلية ، واختلافات اخرى وقعت بين القرامطة أنفسهم ، الى غير ذلك من الاسباب الثانوية ، قد حالت دون تحقيق

برنامج الصّباح تحقيقاً تاماً وخصوصاً تحقيق ما له علاقة بقسمه الاشتراكي ، على انه لا بد من الاقرار في ان قسماً كبيراً من ذلك البرنامج قد تحقق أي صار مبدأ حياة لكثير من الناس ، وان النجاح الذي أصابته دعوة الاسماعيلية بين الامم المؤلفة للخلافة العباسية على اختلاف قومياتهم وطبقاتهم كان ايضاً عظيماً حتى بالقياس الى الحزب الجمهوري الديمقراطي في الاسلام أي حزب الخوارج ، واني لا أظن ان دعوة او حركة عقلية اخرى تركت في تاريخ الاسلام وعقول وحياة أبنائه من الآثار العميقة وكان لها من النتائج العملية مثلما كان للحركة الاسماعيلية .

من المعلوم ان العالم الاسلامي وقسماً من العوالم الاخرى ظلا يشعران بتأثير الافكار والانظمـة الاسماعيلية سنين بل اعصراً عديدة كحزب او كتلة واحدة ، وما ذلك إلا لأن البذور التي بذرها أصحـاب المذهب المذكور بين الامم الاسلامية خاصة والشرقية عامة كانت قوية ومملوءة حيـاة حتى ان حوافر خيل الترك والمغول والصليبيين والاهوال التي رافقت هجرة هؤلاء الاقوام من آسيا الوسطى ومنغوليا واوروبا الغربية لم تقوَ على قتلها .

على اني لا اريد أن يفهم من كلامي ان كل ما زرعه

الاسماعيلية نبت وأنبت نباتاً حسناً ، وان كل ما نبت تغلب على محن الدهر وبقي الى يومنا هذا ، بل ان كثيراً منه نبت وان قسماً مما نبت بقي الى هذا اليوم مشوهاً محرفاً في تعاليم الفرق الاسماعيلية التي ذكرنا آنفاً وفي أنظمة جماعات اخرى كأصحاب الحرف أو الاصناف والطرق الصوفية وغيرها من الهيئات المبنية على مبدأ التعاون المادي والعدل والمساواة الاجتماعية ووحدة المبادىء الاخلاقية الخ ...

فقد اصبح اليوم من المقرر ان من أهم مميزات الاصناف والأخويات والطرق الصوفية والدرويشية التي يحق للشرق ان يفاخر بها لأنه اول من مهد السبل الى ظهورها ، هي فكرة التضامن بين الطبقات والدفاع عن حقوقها الاقتصادية والاجتماعية وذلك بجمع كلمة أعضائها وتكوين جمعيات أو حلقات منها موثقة العرى ومرتبطة بنظام واحد وغاية واحدة ووسائل واحدة.

وغني عن البيان ان الاصناف في الشرق لم تكن هيئات او جماعات توبطهم وحدة الحرفة والرغبة في تحسين أحوال اعضائها المالية فقط كما هي الحال الآن في اوروبا وبعض البلاد الشرقية في عهد الاتراك الذين ، نظراً لضعف عقولهم وضيق صدورهم وميلهم الى الاستبداد وحصر السلطة في يد واحدة ، منعوا الاصناف وسائر الجماعات التي ذكرناها من التدخل في السياسة والمسائل الاجتماعية وأجبروها ان تقف عند غايات مادية فقط مع انها كانت قبل هذا الدور

تعنى ليس فقط بتحسين أحوال أعضائها المادية بل كانت تعمل ايضاً على تقوية وإنماء حقوقهم الاجتماعية وأخلاقهم وعقولهم كما كانت الحال عند الاسماعيلية والقرامطة . وإنا لنعرف من الاصناف من لم يكن أصحابها يعنون بالمسائل المادية او كانوا يعنون بها قليلاً ، وكان همها الأكبر نشر مبادئها بين الناس وتربية أعضائها تربية صالحة أدبية تتفق مع مبادئها الاساسية مما ينتج عنه ان الاصناف الشرقية كانت في اول ظهورها أقرب الى الجمعيات الخيرية الدينية منها الى نقابات العمال في عصرنا هذا ، وانها كانت تقوم بأداء وظائفها المتنوعة تحت مراقبة رؤساء خبيرين منتخبين ذوي مراتب عالية يعرفون بالشيوخ والائمة والبيران (ج . بير) الخ ، والمعروف عن أعضاء هذه الجماعات انهم كانوا متساوين في الحقوق والواجبات يعاملون بعضهم بعضاً معاملة الاخ لأخيه . ولهذا اطلق عليهم اسم (١) « الاخوان » ، وهو الاسم الذي لا يزال مستعملاً حتى اليوم عند اكثر أصحاب الاصناف والطرق.

بناء على ذلك وعلى شهادات بعض الكتبة المعاصرين نرجح ان أول حلقة أخوية ظهرت بين القرامطة كانت حلقة « اخوان الصفا » التي تأسست في النصف الثاني من العصر العاشر كما يستفاد من بعض « رسائلهم » (٢) وأقوال

---

١ – انظر عن اصل هذه التسمية المجلة الالمانية Ber Islam : ٢٢– ٢٦ و ٤ : ٣٢٤

٢ – طبعت هذه الرسائل (٥٢ رسالة) لاول مرة في بومباي من اعمال الهند ثم اعيد طبع قسم منها في القاهرة ونحن الان في حاجة الى طبعة ثالثة علمية لا تجارية ...

كتبة الاعصر المتأخرة .

« اخوان الصفا » جمعية أو حلقة علمية سرية لم يشأ اصحابها ان يطلع الناس على اسمائهم واغراضهم ومحل اقامتهم ولهذا ترى كتبة العرب المتقدمين واكثر من بحث عن هذه الجمعية أو ذكر شيئاً عن احوالها ومبادئها من علماء هذا العصر يخبطون فيها خبط عشواء ويظنون فيها الظنون على غير هدى ولا بصيرة . إلا انه يظهر من بعض سطور في رسائلهم ومما نعرفه اليوم عن محل اقامتهم وزمن ظهورهم ونوع فاعليتهم أو على الاقل فاعلية بعض اشخاص منهم ينسب إليهم الاشتراك في وضع الرسائل المذكورة ــ هذه الانسكلوبدية العلمية الاولى من نوعها ــ ان اخوان الصفا حلقة أو اخوية قرمطية أسست في البصرة لنشر المبادىء الاسماعيلية والسعي وراء تحقيقها بالطرق السلمية العقلية .

قال الاستاذ فون بوير T . Von Boer أحد المشتغلين بالفلسفة الاسلامية « إنا امام أمر واقع وهو نشوء عصبة دينية اجتماعية ذات ميول متطرفة أو بالاحرى ذات ميول ومبادىء اسماعيلية . أما اعضاء هذه العصابة التي كانت البصرة من اهم مراكزها فقد اطلق عليهم اسم « اخوان الصفا » لأن غايتهم الكبرى كانت ان يعمل الناس على خلاص نفوسهم بالتعاون وسائر الوسائل وخاصة « بالعلم المطهِر » . وإنا لا نعرف في الشرق الاسلامي عصابة أخرى كانت تعوّل على قوة العلم والحكمة (الفلسفة) في تمهيد سبل السعادة الانسانية في الحياة والدنيا مثلما كانت

تعول عليها جمعية « اخوان الصفا » (١) . فان صح هذا الرأي ، وهو أقرب الآراء إلى الصحة ، كان « اخوان الصفا » أول من قال بوجوب تسخير « العلم والعمل » لسعادة الانسان . وهو ما قاله بعد مئات السنين لاسال وماركس وما أصبح اليوم شعار حكومة البلاشفة في روسيا حيث تجده مكتوباً على جدران المدن وابواب البيوت اينما قلبت نظرك فيها .

إنا لنأسف انه ليس لدينا من المعلومات ما نقدر معها ان ندرس حياة تلك العصابة الداخلية والخارجية ونعرف إذا كان لها فروع في غير البصرة وما كانت علاقة هذه الفروع بأمها وما هي اعمالها إلى غير ذلك من المسائل التي يتشوق القارىء إلى معرفتها . على انا نستطيع بديهياً ان نفرض وجود هذه الفروع في عاصمة البلاد وبعض مدن إيران وآسيا الوسطى وسوريا ومصر وغيرها من البلاد التي انتشرت فيها مبادىء الاسماعيلية وكان لها فيها تأثير ظاهر . وانا نرجح ان رد الفعل الذي اخذت تبدو ظواهره في النصف الثاني من العصر العاشر وتقهقر القرامطة في البحرين ثم ما طرأ على خلافة بني العباس من الحوادث السياسية المهمة في اوائل العصر الحادي عشر ، كان لها تأثيرها على «اخوان الصفا » وفاعليتهم ، وانه كان من نتائج هذا التأثير ان اصحاب السلطة المدنية والدينية اخذوا يضطهدون الاخوان ويقيمون عليهم العيون فاضطروهم إلى التخفي والعمل « تحت الارض »

---

١ – انظر Encyclop . Musulm ج ٢٥ ص ٤٨٧

أو إلى ايقاف عملهم أو تغيير نوعه ، وكذلك نرجح ان الخلايا الاسماعيلية التي كانت منتشرة في البلاد اضطرت أيضاً تحت ضغط العوامل المذكورة ان تتجنب السياسة وتوقف حياتها على المسائل الاجتماعية والاقتصادية أو الادبية والدينية فقط ، فصار بعضها يشتغل بهذه المسائل وبعضها بتلك . وإنا نرجح حصول هذا التطور في حياة «اخوان الصفا» وخلاياها المتعددة استناداً على مانعلمه من أعمال الجماعات التي خلفت حلقات «اخوان الصفا» وتأثرت بمبادئها انذكر منها الهيئات التي ظهرت في عهد الاتراك بين العرب والفرس والترك كالاصناف والاخوان (اخيلر برادران) وبعض الطرق الصوفية والدراويش كالنقشبندية والرفاعية واليكيجار وغيرهم ممن يمتون بنسب روحي إلى «اخوان الصفا» أو جماعات الاسماعيلية . اما انه كانت بين الجماعات المذكورة صلة روحية فهذا امر يكاد يكون اليوم ملموساً ومتفقاً عليه عند العلماء (١) .

قال المستشرق الروسي غوردلفسكي استاذ اللغة التركية في « مدرسة اللغات والعلوم الشرقية » في موسكا ما تعريبه : « يستدل من اعمال اخوان (اخيلر) آسيا الصغرى — واعمالهم تكاد تنحصر في اكرام الضيوف والاعتناء بالسياح والغرباء — انهم غرباء الاصل أو بعبارة أوضح انهم من أصل إيراني وان كلمة « يا اخي » او « أخي » التي كانت شائعة بين « اخوان

---

١ — من اراد ان يقف على تاريخ الاصناف في الشرق فليطالع كتاب
H . Throning , Beitrage Zur Kenntniss D . Islamischen Vereinwesens - BerLin 1913

الصفا » والنزعات الشيوعية والتشيع الظاهر لعلي بن أبي طالب أو « للفتى » كما كانوا يسمونه ، ولأوده ثم نوع اعمال هؤلاء « الاخيلر » ونظامهم الداخلي والخارجي وأمور اخرى لا يسعنا ذكرها تحملنا على الظن في ان هذه الجماعات وما هو من جنسها وليدة جماعة القرامطة ووريثتها الشرعية » (١) . ومعروف اليوم ان هذه الجماعات لا تزال حتى اليوم تحافظ على شيء من القرابة الروحية التي تربطها بالقرامطة أو الاسماعيلية على الاطلاق، مثال ذلك ان الاصناف أو نقابات الحرف التركية لا تزال حتى اليوم تحافظ في بعض المدن الداخلية على شعائر دينية وعوائد غريبة لا نجدها عند غيرها من النقابات الغربية أو الشرقية، وهو ما اشار اليه الكاتب الروسي المذكور بقوله :

« ان الصنف التركي اقرب إلى أخوية روحية أدبية مبنية على مبدأ الاعتراف بالرئاسة والرتب والطاعة للشيخ أو الرئيس طاعة عمياء منه إلى نقابات المحترفين ، مما يستدل منه على ان نظام الاصناف التركية قديم لا تزال تتجلى فيه روح غير روح نقابات المحترفين الصرفة » .

ونحن لو امعنا النظر في النظام لوجدناه يقرب جداً من نظام

---

١ – طالع عن « اخيلر » في آسيا الصغرى سياحة ابن بطوطة (ج ٢ ص ٢٦٠ – ٣٦٠ من الطبعة البارزية) وكتاب رئيس فرع الآداب في جامعة الاستانة الاستاذ كوبريلي زاده محمد فؤاد – تحت عنوان : ايلك متصوفلر ص ٢٣٧

الدراويش الذين يعنون اكثر من « الاصناف » بالحياة الروحية النظرية وتربية السالكين في طرقهم تربية دينية أدبية وان كانوا احياناً يتدخلون في الامور السياسية كما كان يفعل اسلافهم الاسماعيلية ويدافعون عن حقوق الشعب المهضومة ويطالبون سلاطين آل عثمان باصلاحات اجتماعية .

ان من يقف على تاريخ الطرق الدرويشية كالمولوية والبكطاشية والنقشبندية ويطالع كتب شيخ الطريقة المولوية ويدقق في اعمال بعض اعضائها الاجتماعية ،لا بد ان يعثر هناك على نزعات شيعية متطرفة وروح إيرانية (١) أو روح اسماعيلية . ولهذا وبناء على ما ذكرناه قبلًا من الاصناف والطرق الصوفية، ترانا غير بعيدين عن الحقيقة لو فرضنا ان كل هذه الجماعات على اختلاف اسمائها ونزعاتها وأنظمتها الخارجية والداخلية ترجع في الحقيقة ومن جهة معلومة إلى جماعة واحدة تولدت منها واخذت عنها اموراً كثيرة لا تزال تحافظ عليها — ربما عن غير ادراك — إلى هذا اليوم. وأهم هذه الامور تلك الروح الاجتماعية التي كانت تجيش في صدور أشياع حسن الصباح وتدفعهم إلى اعمال عظيمة . فالاصناف إذن وبعض الطرق الدرويشية التي لا نزال نرى فيها نزوعاً إلى التطرف في المبادىء والافكار ، هي ذاك الحمى الذي

---

١ — نرجح ان جماعات كثيرة من الاسماعيلية انتقلت من بلاد العجم — على اثر دخول هولاكو خان اليها — الى آسيا الصغرى . وهناك دخل قسم كبير منها في طريقة النقشبندية .

حفظت فيه الروح الاسماعيلية الثائرة العاملة وذاك الملجأ الذي كنا نسمع فيه احياناً اصواتاً عالية جريئة كانت تدعو أصحاب الاستبداد المطبق وسلاطين آل عثمان وبادشاهات وخانات العجم والترك إلى ادخال الاصلاح اللازم للبلاد وتذكرهم بواجباتهم نحو شعوبهم المتألمة المهتضمة حقوقهم .

لولا ضيق المكان لأتيت على امثلة كثيرة من تاريخ الاصناف والطرق الصوفية والدروشية تؤيد هذا الفكر الذي قد يظهر غريباً لبعض الناس. إلا اني اكتفي بمثلين فقط وهما ثورة الدراويش في تركيا سنة ١٤١٥ – ١٤١٨ وحركة البابيين أو البهائيين في بلاد العجم .

من المعلوم عند أصحاب تاريخ آل عثمان ان زعيم الثورة المذكورة وهو الدرويش العالم بدر الدين سياوي اوغلي جاء من بلاد العجم أي من عش الاسماعيلية الكبير ومصدر الحركات الاجتماعية والأدبية في كل الشرق ، وهناك تشرب المبادىء الاشتراكية المتطرفة التي حاول هو وتلميذاه بركلدجه مصطفى واليهودي المهتدي طورلاق كمال ان يبثوها بين سكان آسيا الصغرى الذين كانوا في ذلك الوقت أقرب الناس إلى اتباعها والعمل بموجبها لما اصابهم قبيل ذلك من المحن والمصائب التي جرها على بلادهم الفاتح المغولي تيمرلنك والحروب الاهلية التي عقبت هذا الفتح وحولت اكثر البلاد الخصبة إلى صحارى يهيم فيها من بقي من سكانها ولا مأوى لهم ولا طعام .

رأى بدر الدين وأشياعه هذه الحالة ثم رأى سلاطين وأمراء البلاد وأصحاب الاملاك الواسعة فيها لا يهتمون إلا بأنفسهم وبجمع المال من الفقراء المعدمين ، فاحتج على ذلك في الجوامع والطرق، فكان لكلامه وقع شديد على طبقات الفقراء والمظلومين. فاخذوا يلتفون حوله ويؤيدون كلمته، فلما رأى ذلك برز يدعو الناس جهاراً « إلى العدل والمساواة بين جميع الطبقات على اختلاف اديانها وقومياتها، وإلى توزيع الاموال بين الناس على السواء ». فكان لدعوته هذه صدى قوي في البلاد حمل كثيرين من المستائين من الحالة الاقتصادية والاجتماعية في ذلك الوقت على الانضمام اليه وتأييده واصحابه بالقوة المسلحة. فدارت بينهم وبين الحكومة حروب عديدة استغرقت نحو ثلاث سنوات كان الحزب الاشتراكي يدافع فيها عن نفسه ومبادئه دفاع الابطال إلى ان خارت قواه وفقد ما كان عنده من الذخائر. فتغلبت عليه قرب مدينة أزمير جيوش السلطان محمد الاول المعروف بجلبي، وقبضت على أحد زعمائه مصطفى بوركلدجه وصلبته قرب مدينة مغنيزيا. ثم تعقبت زعيم الحركة الأكبر ومصلي نارها بدر الدين سياوي فقبضت عليه أيضاً في جبال مكدونيا وقتلته فتشتت اصحابه وماتت الحركة ولم تبلغ غايتها (١).

---

١ ـ انظر عن هذه الحركة تواريخ تركيا، وتأليف الاستاذ كوبريلي زاده « ايلك متصوفلر » ص ٢٣٤

اما الحركة البابية أو البهائية المشبعة – كما هو معلوم – بالافكار الشيعية المتطرفة والمبادىء الاشتراكية، فأمرها معلوم عند اكثر القراء لانها حديثة العهد ولأن مجلاتنا وجرائدنا تنشر عنها حيناً بعد حين المقالات الضافية ولأن زعيمها الاكبر وقسماً من اتباعه يقيمون في عكا وبعض مدن . فلسطين وسوريا ومصر ، فلا حاجة إذن إلى الافاضة في اخبارها، ويكتفي القارىء ان يعرف ان الحركة المذكورة ظهرت أيضاً في بلاد العجم وبين الشيعيين المتطرفين (الحروفيين) حفظة روح الاسماعيلية القديم ونارهم المقدسة ، إذ من المحقق ان علي محمداً (١٨٢١ – ١٨٥٠) المعروف «بالباب» كان من فرقة الاثني عشرية وان كلمة «باب» ولغة « بيانه » واساليب تأويله وبعض افعاله وأنظمته الرمزية ناهيك عن تعاليمه تقودنا تواً إلى مذهب الاسماعيلية حيث ورد لأول مرة في الاسلام استعمال كلمة «باب» بمعناها الحاضر (١).

اني أشعر بل اعتقد ان كل عبارة من عباراتي السابقة تحتاج إلى براهين واستنادات مقنعة، إلا اني عاجز الآن لما قدمته من الاعتبارات عن الاتيان بها، ورجائي ان ينتبه غيري من عشاق تاريخ الافكار الاجتماعية في الشرق إلى اهمية هذا الموضوع فيكرس له قسماً من حياته ويوفيه حقه من البحث والتنقيب. واني لا ارتاب في انه لو فعل ذلك لاهتدى الى تلك القني التي

---

١ – انظر Encyclop . musulmane ج٢ ص ٥٥٥

كانت ولا تزال تصل الاسماعيلية بالبابية وغيرها من فرق الشيعة المتطرفة ، ولظهرت له تلك الاسباب التي لا تزال تحمل الأمة الفارسية على الخروج على النظام المدني والديني في بلاد البادشاه، ولأدرك كيف ان البابيين الذين بدأوا عملهم بطلب بعض اصلاحات دينية واجتماعية معتدلة لم يلبثوا ان تحولوا إلى اجتماعيين فقط، نعم اجتماعيين من نوعهم(Sui generis)ولكن على كل حال اجتماعيين وان اختلفوا عن اجتماعيي أوروبا باساليبهم وبعض مبادئهم .

حاولنا أن نبين في أول هذا الفصل ما كان للافكار الاسماعيلية القرمطية من التأثير على نقابات المحترفين أو الاصناف والجمعيات الخيرية وطرق الدراويش الخ .. على انه لا يجوز ان يستنتج أحد من كلامنا هذا ان الهيئات المذكورة كانت دائماً مصدر الحركات الاجتماعية الحرة في الاسلام وان افكار ومبادىء حسن الصباح وأشياعه التي تسربت اليها بشتى الطرق كانت دائماً تتجلى في تعاليم وسيرة هذه الجماعات . كلا ثم كلا ! لاننا نعرف ان زوايا كثيرة من زوايا الدراويش كانت مبعثاً للحركات الرجعية والتعصب الديني أو القومي الاعمى وآلة لاستغلال عواطف جماهير الناس الدينية الطيبة ، وانما عنينا بعباراتنا السابقة بعض الطرق الصوفية لا كلها أو على الاقل ادواراً معلومة من حياة الهيئات والحركات المذكورة، فكم من حركة ابتدأت باسم الله وبركته وانتهت باسم الشيطان. فهذه حركة «باب» و «بهاء الله»

كانت في دورها الاول حركة مباركة حرة يرجى منها خير الامة والبلاد الفارسية إلا انها تحولت بعد وفاة مؤسسيها إلى بدعة دينية أو اخوية أدبية بسيطة ذات صبغة رجعية وبرنامج اجتماعي ضعيف. فكلنا يذكر كيف ان اصحابنا البهائيين الذين كانوا يؤيدون من سنة ١٩٠٥ إلى سنة ١٩٠٩ حزب الاحرار وبرنامجهم السياسي القائل بوجوب اعطاء بلاد العجم دستوراً يقرب من دستور انكلترا ويشدون أزرهم، أصبحوا عاجلاً من حزب الملكيين وأخذوا يقاومون زعماء الشيعة الذين انضموا إلى الاحرار وصاروا من قادة الحركة القومية الناقمة من الشاه وحكومته الرجعية.

كل ذلك لم يخف علينا كما لم يخف علينا أيضاً ان في تعاليم «الباب» و «بهاء الله» عن التساهل الديني ووحدة الدين والعدل والمساواة بين الأمم تناقضاً ظاهراً لم يهتد أصحاب المذهب المذكور وخلفاؤهم إلى إزالته بكتبهم و «رسائلهم» العديدة التي ينشرونها حيناً بعد حين أو يبعثون بها خطاً إلى اشياعهم في الخارج، أو بمحادثاتهم الطويلة مع السيدات الاميركيات أو الانكليزيات وغيرهن من الناس. ثم لا حاجة بنا لأن نذكر القارىء المطلع بما وقع في أول الحركة البابية من الخلاف بل من العداء بين «بهاء الله» وأخيه «صبحي ازل» وانقسام البابيين إلى فرقتين متعاديتين متطاحنتين كانت تسعى كل واحدة منها إلى ابادة الأخرى بالسلاح والوشايات وسائر الوسائط المحرمة.

يقول البعض ان البهائيين يحرمون القتل باسم الدين والمسائل

دينية ، إلا ان الاستاذ برون Brown المعروف بعطفه عليهم ومساعداته لهم يذكر في بعض تآليفه عنهم انه سمع من أحدهم في شيراز ما حرفه : « للنبي (رئيس الجماعة) ان يتخلص من كل شخص يحسبه عدواً للدين ويرى فيه خطراً على الانسانية كما يبعد الطبيب العضو المصاب بداء معد ». زد إلى ذلك ان البهائيين أنفسهم يقرون بانهم لن يحصلوا على السلطة المدنية في بلادهم إلا بعد حروب دينية تسيل فيها الدماء انهاراً قد يكون من ورائها تحسين أحوال اليهود والمسيحيين ولكن لا المسلمين ولا أصحاب « صبحي ازل » و (الشيخيين) الذين ولا شك ستسوء حالهم وربما يقضى عليهم .

كل هذا صحيح إلا انه لا يقدح في صحة ما حاولنا ان نثبته من وجود صلة تاريخية أو معنوية بين الاسماعيلية والبابيين (١) لأن عدد نقط التشابه بين هذين المذهبين كبير جداً يصعب تعليله عن طريق الصدفة . وفوق ذلك فانا لم اقل بمطابقة المبادىء الاسماعيلية وصورها الخارجية مطابقة تامة لمبادىء الاصناف ودراويش البكطاشية والبابيين وغيرهم من الجماعات والهيئات القريبة منهم، بل رجحت ان بعض الافكار والانظمة الاسماعيلية تسربت بطرق عديدة إلى الوسط المذكور وان هذه الافكار

---

١ — يسرنا ان نشير هنا الى ان الاستاذ المرحوم غولدزيهر يرى ايضاً في الحركة البابية صدى الحركة الاسماعيلية (انظر مقالته في « الاسلام » ص ١ ، ٤)

ظلت كامنة إلى أن توافرت الشروط الاقتصادية والسياسية فهبت من رقادها وخرجت من العالم الغير المدرك إلى عالم الادراك فتحولت إلى قوة محركة دافعة تجسمت في صور مختلفة .

نحن لا نرتاب في صحة هذا الفكر كما أنا لا نرتاب اليوم في صحة فكر آخر وهو ان تأثير المبادىء الاسماعيلية الباطنية لم ينحصر في المجتمع الاسلامي والشرق على الاطلاق بل تعداه إلى أوروبا وبعض الأمم المسيحية، وهناك ترك أثراً بيناً في حياة تلك الأمم الفكرية وانظمتهم الاجتماعية ودساتير أديرتهم وجمعياتهم إلى غير ذلك مما لا يسعنا الوقت إلى التبسط فيه ولسنا مبالغين أو بعيدين عن الحقيقة إذا قلنا انه كان للقرامطة تأثير تختلف درجاته على دستور الرهبنة اليسوعية مثلاً وبعض الطغمات الرهبانية وعلى دستور الاصناف والفرسان الهيكليين والمالطيين وغيرهم. فمن الادلة على ذلك ان الاصناف في أوروبا لم تكن في بادىء الأمر نقابات للمحترفين انشئت للدفاع عن مصالح اعضائها المادية فقط بل نوعاً من الاخويات أو الجمعيات الخيرية التي كانت غايتها تقوية المبادىء الدينية والأدبية الحسنة بينهم كما كانت الحال في الشرق « فكان لكل نقابة ولي (١) (patron) واحياناً هيكل في إحدى كنائس المدينة وصندوق تجمع فيه

---

١ — نذكر القارىء ان عليا كان « فتى » patron الأصناف في الشرق الاسلامي

اعانات الاعضاء لتوزع على المرضى والمحتاجين منهم عند الضرورة ... فكان إذا مات أحدهم يشيعه رفقاؤه إلى القبر ويهتمون بأولاده أضف إلى ذلك انه كان للنقابة حق المراقبة على حياة أعضائها وسيرتهم وتعليمهم وتربيتهم إلى غير ذلك من الواجبات التي نجد ذكرها في قوانين جماعات الدراويش وجميع الاصناف والهيئات الاسلامية على ما نعلم » (١)

لم تتغير صبغة هذه الهيئات وتصبح نقابات صرفة لا علاقة لها بالدين والأدب إلا رويداً رويداً كما وقع لاخواتها في الشرق وليس من غرضنا الآن ان نبحث (٢) عن العوامل والمؤثرات التي أدت إلى هذه النتيجة بل نحب ان نلفت نظر القارىء إلى أمر آخر قد يكون له منه فائدة أعظم وهي الطرق التي دخلت بها المبادىء والانظمة القرمطية إلى أوروبا وأثرت على هيئاتها الاجتماعية وأحدثت بينها حركات وانظمة متشابهة .

فمن هذه الطرق الحروب الصليبية وما نتج عنها من التماس بين العالم الاسلامي والعالم العربي المسيحي والتقرب بينهما على ما كان بينهما من العداوة . فلا شك ان بعض الغربيين الذين اقاموا مدة طويلة في الشرق وخصوصاً في سوريا وفلسطين كانوا عرفوا

---

١ – عن مقالة في « الاصناف » نشرت في « دائرة المعارف » الروسية بروكهوز وافرون

٢ – نحيل المستزيد من القراء الى الكتاب الالماني المذكور سابقاً .

الحركة الاسماعيلية هناك فتأثروا بها وحملوا إلى بلادهم معلومات كثيرة عنها وعن إحدى فرقها المعروفة بفرقة الحشاشين . وهناك أخذوا يطبقونها على حاجاتهم وأغراضهم فكان من ذلك ما ذكرناه من الهيئات الدينية والغير الدينية . وكانت تلك الحركات الفكرية التي أدت إلى دور (التجدد) في إيطاليا وما جاورها من البلاد ثم إلى دور الاكتشافات والعلوم الحديثة . أضف إلى هذا الطريق ذلك التيار الفكري والتأثيرات القوية التي كانت تتغلغل في أوروبا عن طريق اسبانيا وجنوب إيطاليا اللتين بقيتا تحت الحكم العربي وتأثير ثقافته وسننه الاجتماعية مئات من السنين . ثم لا يجوز ان ننسى أو نتناسى ما كان بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي في الاجيال الوسطى من الصلات التجارية والسياسية والعمرانية وان هذه الصلات كانت أقوى واكثر مما يتصوره بعض المؤرخين .

على كل حال لا ريب عندنا في ان فكار وسنن الشرق الاسلامي كانت تتسرب بطرق ... لا نزال نجهل اكثرها إلى أوروبا وتؤثر على حياة شعوبها الاجتماعية والعقلية، فربما كان من آثار ذلك ان الأمة الجرمانية مثلاً أخذت عن العرب في تلك الاجيال كلمة صنف أو أصناف فحولتها إلى Sumft (١)

اما ما يتعلق بتأثير آراء وانظمة الاسماعيلية على نشوء

---

١ — ان صح اشتقاقي هذه الكلمة من كلمة « صنف » العربية

وصبغة بعض جماعات رهبان اللاتين كاليسوعيين مثلًا (١) فهذ
فكر قديم لا يزال بعض كتبة الغرب (٢) يحوم حوله ويرجع
اليه حيناً بعد حين وله انصار وله خصوم لا تزال الحرب بينهم
سجالاً فمن ادلة أنصار هذا الفكر على صحته ان لدساتير بعض
الطغمات الرهبانية ولا سيما لدستور اليسوعيين مميزات وخواص
فارقة كوجود عدة رتب أو منازل يرتقي اليها السالك في
طريقه إلى الكمال الأدبي وحصر السلطة في يد رئيس مستبد
والميل إلى الاشتغال بالمسائل العلمية ثم الغرض البعيد من تأسيس
الرهبنة المذكورة والطرق الشاذة التي يستعملها أصحابها للوصول
إلى غاياتهم إلى غير ذلك من الصفات التي يختلف بها دستور هذه
الاخوية عن دساتير غيرها من الاخويات المسيحية وبعكس ذلك
يتفق مع دساتير « الاخوان » . فحبذا لو اعتنى بهذه المسائل
بعض علمائنا ممن اوقفوا حياتهم على الابحاث الشرقية أو بعض

---

١ — من المعلوم مثلًا ان ابن براجان انشأ مذهباً قرمطياً صوفياً في اسبانيا (انظر كتاب « عجبنامه » الذي قدمه بعض المستشرقين للاستاذ Browne اعجاباً بعلمه وفضله ص ٣٣٣)

٢ — نذكر منهم :
H . Mullet, Les origines de la compagnie de Jésus . 1896
Charbonel , l'origine musulmane des Jésuites.
ومقالات ظهرت في مجلتي Quarterly Report on Semitic Studies
et Revue des Revues الخ

مستشرقي أوروبا فألقوا عليها نوراً جديداً وساعدوا على حلها حلاً علمياً منزهاً عن الغرض .

يخيل لي ان ما أتيت على ذكره من الحركات الاجتماعية والاشتراكية في الاسلام – وهو قليل من كثير – يكفي لان يقنع القارىء الغير المصاب بداء العناد أن الأمم الشرقية على الاطلاق والعربية الاسلامية على التخصيص اجتازت في حياتها التاريخية الطويلة ذات المراحل الاجتماعية التي اجتازتها أمم الغرب المسيحية. فإذا صح هذا الفكر ، ولا نراه إلا صحيحاً ، كان لنا من ورائه اعتقاد قوي في ان شعبنا العربي لا بد ان يمر في المستقبل القريب بذات الادوار الاجتماعية التي تمر بها الآن أمم الغرب – اخواننا في الانسانية – الذين سبقونا لحسن حظهم ولعوامل تاريخية وغيرها سنين، نأمل – استناداً على ما نراه اليوم في الشرق من النهضة العمرانية وتنبه الادراك الذاتي في ابنائه – ان تكون قليلة .

فهرس الكتاب

المحتوى	رقم الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية	
هكذا نقرأ بندلي جوزي	١
مقدمة الطبعة الأولى	
وحدة النواميس الاجتماعية	١١
الفصل الأول	
أسس الاسلام الاقتصادية	١٧
الفصل الثاني	
الأمبراطورية العربية والأمم المغلوبة	٥٤
الفصل الثالث	
حركة بابك وتعاليمه الاشتراكية	٧٨
الفصل الرابع	
الاسماعيلية	١١٧
الفصل الخامس	
القرامطة	١٥٠
الخاتمة	٢١٨